إجازة الشيخ مرتضى الزبيدي
شارح القاموس
للعلامة ابن مالك عبد الواحد بن محمد الفاسي

محمد الفاسي

ان العلاقات الثقافية والعلمية بين المشرق والمغرب كانت قبل العصر الحديث متصلة متينة، وكان علماء المغرب عند ما يقصدون البلاد المقدسة لاداء فريضة الحج يتوقفون في مدن العلم ومراكز الثقافة ويلتقون بالعلماء والادباء ويأخذون عنهم ويستجيزونهم لهم ولمن طلب منهم ذلك من زملائهم الذين لم يتيسر لهم بعد القيام بأداء فريضة الحج وينقلون معهم ما استجد من تآليف المغاربة في شتى العلوم والفنون كما يأخذون معهم اجازات علماء المغرب لمن طلبها من أهل المشرق، وعند الرجوع يقومون بهذه الاتصالات نفسها ويحملون مؤلفات المشارقة الى المغرب واجازات علمائه لمن طلبها من أهل المغرب.

وهكذا كان التعارف تاما بين جناحي العالم الإسلامي، إذ بمكة يلتقي المغاربة بمن يحج من علماء البلاد الاسلامية الاخرى زيادة على أنهم كانوا ينتهزون هذه الفرصة الثمينة لزيارة بلاد الشام والعراق واليمن. فكان العلماء في كل الاقطار الاسلامية بفضل هذه المؤسسة الاسلامية الفريدة حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه السلام مطلعين على كل أحوال اخوانهم في كل ناحية من نواحي العالم الاسلامي ويعرفون بدقة أخبار الحركة العلمية. ويظهر هذا

في كتب الطبقات التي كانت تؤلف بالمشرق والمغرب بحيث كانت الوحدة الاسلامية حقيقة واقعية مما تضاءل شأنه في عصرنا هذا عصر السرعة والاتصال المباشر بواسطة الطيران فقل الاتصال وضعف التعارف ولولا ما تتصف به الحضارة الحالية من تنظيم المؤتمرات والندوات واللقاءات لكانت القطيعة أعمق ولاكنها مع ذلك لم تقم تماما مقام السفر الى الحج.

ومن أمثلة هذه الاتصالات ما أريد أن أحدثكم عنه وهو استجازة العلامة أبي مالك عبد الواحد بن محمد الفاسي العلامة اللغوي الشهير الشيخ مرتضى الزبيدي الذي بعث له بها وبقيت ضمن خزانة أجدادي لان أبا مالك عبد الواحد الفاسي هو جدي الخامس وهذه الاجازة مؤرخة بسنة 1204 أي منذ أكثر من مائتي سنة وقبل أن أطلعكم على نص هذه الاجازة ينبغي أن نلقي نظرة وجيزة على ترجمة الشيخ المجيز والشيخ المجاز.

والشيخ مرتضى الزبيدي أشهر من أن يعرف خصوصا في وسط هذا المنتدى الحافل بالعلماء وفطاحل اللغة العربية. وان كان لجدنا سيدي عبد الواحد شهرة في بلاده فهو لا يعرف ببلاد المشرق الا عند بعض الخواص بسبب ما قدمت من انقطاع الصلة والا فالشيخ مرتضى وهو تلميذ أحد أعلام اللغة من أهل فاس المعاصرين لسيدي عبد الواحد وهو الشيخ ابن الطيب الشرقي الذي كنت حدثتكم عنه سابقا. أقول إن الشيخ مرتضى كان يعرف علماء المغرب وبكاتبهم كما يظهر ذلك من تحليته لاجداد سيدي عبد الواحد وكانوا كلهم من كبار علماء المغرب

ترجمة الشيخ مرتضى الزبيدي

هذا الامام خاتمة المحققين والحفاظ المحدثين وعلماء اللغة المبرزين وقد طبق ذكره وآثاره العالم الاسلامي شرقا وغربا واستفاد من تآليفه الفكر الاسلامي والثقافة العربية مما أعتبره احياء لهما في عصر أوشكا فيه على الاضمحلال لما أصاب العالم الاسلامي من تدهور وتأخر. والسيد مرتضى الزبيدي اسمه الكامل محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزّاق الواسطي الزبيدي المصري كان له من تنقلاته في البلاد الاسلامية مؤهلات لتربع هذا المقام الفريد في الاوساط العلمية فهو ينتمي في أصله الى أسرة هاشمية حسينية من أهل واسط بالعراق وكانت عائلته نزحت الى الهند حيث ولد بقصبة بلجرام سنة 1145 هـ — وارتحل في صباه الى اليمن لطلب العلم وسكن مدة طويلة بزبيد حتى نسب اليها وعرف بعد ذلك بالزبيدي وحصل أثناءها على علم وافر، وأخذ من عدة مشايخ ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره دخل مصر وحصل في وقت قصير على شهرة لا تعرف عادة لمن كان في سنه وذلك لتحليه بأخلاق فاضلة وتمكنه المبكر في العلوم ومشاركته في الحديث الشريف وفي الاصول وفي اللغة العربية والبلاغة والفقه وغيرها من العلوم الاسلامية. وأقبل مع ذلك على الاخذ من علماء الوقت في القاهرة وفي غيرها من مراكز العلم بمصر وحج مرارا وأخذ من علماء الحرمين الشريفين وبعد هذا التحصيل الكامل أخذ في شرح القاموس وقد استغرق هذا العمل أربع عشرة سنة وأتمه سنة 1181 وهو ابن ست وثلاثين سنة وأولم بهذه المناسبة وليمة فاخرة للعلماء والطلاب وأعيان مصر لما كان حصل عليه من سعة الرزق اذ كان الامراء والكبراء يقدمون له الهدايا الجزيلة. وقد حظي كتابه هذا باقبال منقطع النظير وسعى لاقتنائه الملوك والوزراء وكبار العلماء في كل الاصقاع الاسلامية وقد طبع لاول مرة بمصر سنة 1863 م ثم طبع مرة ثانية ما بين سنتي 1286 — 1287 هـ وتقوم وزارة الاعلام الكويتية بنشره منذ

عدة سنين وقد أنجزت منه ثلاثة وعشرين جزءا في طبعة متقنة مشكولة في الحجم الكبير وقد بلغت فيه إلى باب الفاء فصل الشين وهذا عمل جليل تشكر عليه.
وقد أنجزت منه ثلاثة وعشرين جزءا في طبعة متقنة مشكولة في الحجم الكبير وقد بلغت فيه الى باب الفاء فصل الشين وهذا عمل جليل تشكر عليه.

وقد كان له الباع الطويل في علوم الحديث وجمع الأسانيد العالية مما يعد منفردا به وكان يبحث بحثا عن شيوخ الحديث في كل صقع ويستجيرهم. من ذلك على سبيل المثال استجازته للمحدث الشهير الحافظ أبي العلاء ادريس العراقي الفاسي. ومن ذلك ما ذكره صاحب فهرس الفهارس وهو قوله : '' ومع كثرة شيوخ المترجم كثرة مهولة بالنسبة إلى مشايخه ومعاصريه كان غير مكتف بما عنده بل دائم التطلب والأخذ ومكاتبته من الآفاق حتى أني رأيت بخطه في كناشة ابن عبد السلام الناصري استدعاء كتبه لمن يلقاه ابن عبد السلام المذكور «وأورد نصه بحروفه».

ومما يمتاز به الامام الزبيدي احياء طريقة املاء الحديث وقد كانت انقطعت بعد وفاة الحافظ ابن حجر وتلميذيه السخاوي والسيوطي وقد بلغت مجالسه الاملائية الحديثية أربعمائة مجلس كان يلقيها من حفظه وجمعها في مجلدات.

وله مآت الشيوخ كما قدمنا وقد ذكرهم في معاجمه الثلاثة حتى أن معجمه الاكبر تضمن منهم ستمائة شيخ وقد أورد الكتاني في فهرس الفهارس معجمه الصغير بنصه واستدرك عليه عددا كبيرا من المشايخ ورد أخذه عنهم في كتبه الاخرى وفي اجازات وقف عليها وتوجد بخطه في خزانته التي كنت ضممتها للخزانة العامة بالرباط في أول الاستقلال.

ومن جملة شيوخ الزبيدي من المغاربة عمدته في شرح القاموس العالم اللغوي محمد بن الطيب الصميلي الشرقي المعروف في المشرق بابن الطيب الفاسي

وهو كذلك صاحب شرح جليل للقاموس وابن الطيب هذا هو الذي يقول الشيخ الزبيدي عن تحقيقاته في شرحه «قاله الشيخ».

ومن جملة شيوخه المغاربة محمد بن الطالب الفاسي وعمر بن عبد الله ابن عمر قاضي الجماعة بفاس وعمر بن المختار الشنقيطي ومحمد بن مسعود الطرنباطي الفاسي ومحمد بن عمر التادلي — [أما تلاميذه فعددهم كذلك كبير حتى أنه لا يخلو بلد اسلامي من الآخذين عنه وقد ذكر منهم الكتاني جماعة وكلهم من مشاهير بلادهم وأئمتها ومن جملتهم نحو العشرين من علماء المغرب من بينهم جدنا أبو مالك عبد الواحد بن محمد الفاسي بعث له باجازة هي موضوع هذا البحث.

أما تآليفه فحدث عن البحر ولا حرج وان كان شرحه للقاموس غطى على بقية تصانيفه فان عددها بلغ المئآت منها عدد لا يحصى من الاجازات التي عمت البلاد الاسلامية. وأهم مؤلفاته مع تاج العروس شرحه لاحياء علوم الدين للامام الغزالي وهو موسوعة عظيمة لقضايا الفكر الاسلامي لم تصادف العناية اللازمة لها والاستفادة من مباحثها لان الاهتمام انصب بالخصوص على الناحيتين اللغوية والحديثية من انتاجاته.

وقد طبع شرح الاحياء لاول مرة بفاس سنة 1304 هـ مما يظهر عناية المغاربة بآثار الشيخ مرتضى الزبيدي رحمه الله.

'' وألفيته في الحديث عديمة النظير كما قال ابن عبد السلام الناصري — في كمال الاطلاع على الاحاديث النبوية وتراجم الرجال '' — وهي مشهورة ومعتمدة عند علماء الحديث.

وكان الشيخ مرتضى الزبيدي زيادة على معلوماته المتنوعة ومشاركته في كل العلوم الاسلامية يعرف اللغات التركية والفارسية والكرجية الهندية —

وقد ترجم له المؤرخون وأصحاب الطبقات والفهارس والرحلات من المشارقة والمغاربة ومن جملتهم تلميذه الجبرتي المصري في تاريخه وقد عقد له ترجمة مستوفية لأحواله الخاصة والعامة واخص بالذكر منهم المغاربة لأنهم اليوم غير معروفين بالشرق كالامام بن عبد السلام الناصري في رحلته الكبرى وأبي الربيع سليمان الحوات من مشاهير علماء المغرب في كتابه السر الظاهر وفي العصر الحديث الشيخ عبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس (1) وهي ترجمة حافلة خصوصا من ناحية علوم الحديث وذكر له عدة مؤلفات في هذا الموضوع.
[وكانت وفاة الشيخ مرتضى الزبيدي رحمه الله سنة 1205 هـ شهيدا بالطاعون ولم يعلم أحد بذلك لانشغال الناس بأمر هذا الوباء الذي فتك في ذلك الوقت بعدد كبير من أهل المشرق، ومن غريب المصادفات أن تلميذه أبا مالك عبد الواحد الفاسي توفي بعد ذلك بثماني سنوات شهيدا أيضا بالطاعون الذي كان انتشر اذاك بالمغرب وأودى بالآلاف من أهل المغرب من جملتهم عدد من العلماء الاعلام.

---

1) فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات.
المطبعة الجديدة بفاس سنة 1346 هـ ج 1 — ص 398 — 413.

ترجمة العلامة أبي مالك عبد الواحد بن محمد الفاسي

كان هذا العالم علما من أعلام المغرب في اللغة والنحو والتاريخ وتخرج على يده نخبة من علماء فاس والمغرب عموما.

وهو من هذه الاسرة العلمية التي نبغ من أبنائها بالاندلس منذ الفتح الاسلامي الى القرن التاسع وأنجبت هناك علماء مشاهير من جملتهم الامام أبو بكر بن الجد من أهل القرن الخامس ولما هاجر اخوان من أبنائهما الى مدينة فاس سنة 880 سار ابناؤهم بالمغرب سيرتهم بالاندلس في الاقبال على العلم والعمل على نشره بالتدريس والتأليف ونبغ منهم في القرون الخمسة الاخيرة العديد من العلماء والمشاهر منذ شيخ المشايخ أبي المحاسن يوسف الفاسي الذي ينتمي اليه كل أفراد هذه الاسرة وأخيه العارف بالله الفاسي مرورا بشيخ الاسلام أبي السعود وابنيه العلامة شيخ الاسلام محمد وأبي زيد عبد الرحمن العالم الموسعي وأبي عيسى المهدي صاحب ممتع الاسماع والعلامة الاديب الخطيب أبي مدين والشاعر أبي حفص عمر الى مترجمنا أبي مالك عبد الواحد ومن جاء بعده، وقد بلغ من انتشار العلم في هذا البيت أن كان منهم في عصر واحد أربعون عالما مدرسا يحتل كل واحد منهم كرسيا في جامعة القرويين. وقد قال الأمير شكيب أرسلان رحمه الله عن هذه الأسرة الفاسية أنه لم يكن في العالم الاسلامي أسرة تسلسل العلم في أفرادها قرونا مثل ما وقع في العائلة الفاسية بالمغرب وعائلة بني العديم بالشام.

أما العلامة الذي نحن بصدده فهو عبد الواحد بن محمد فتحا ابن أحمد بن محمد فتحا بن عبد القادر بن علي بن أبي المحاسن يوسف. ولد بفاس 1172 هـ (1759 م) وربي في حجر والده العلامة المؤرخ أبي عبد الله محمد وفي وسط أعمامه وأبناء أعمامه وحفظ القرآن صغيرا ومات والده وهوبن سبع سنين

فسهر على تربيته عمه أبو مدين وأخذ عن علماء وقته من أمثال أبي الحسن علي زين العابدين العراقي والعلامة بن عبد السلام الفاسي شيخ السلطان العالم المؤلف مولاي سليمان والشيخ أبي عبد الله محمد بن الحسن بناني وغيرهم. وقد ذكر المولى سليمان المذكور في تاريخه للعائلة الفاسية المسمى " عناية أولى المجد بذكر آل الفاسي بني الجد " : ثم حفظ المتون واجتهد في تحصيل الفنون ... بقريحة نافذة ووجهة صادقة وهمة عالية ورتبة سامية فحصل على علم نافع في قلب خاشع جميل المشاركة في العلوم شديد الحرص على احياء الرسوم. درس أعواما دروسا مباركة يشهدها جمع غفير من طلبة العلم في العربية والفقه والحديث وقيد وألف وجدد للمجد غرفا على غرف. وكان فصيح العبارة مليح الهيأة والشارة يحاضر في الادب وينظم الشعر وينثر الرسائل والخطب. كان أول من وقع عليه اختيارنا للخطبة بالجامع الذي شيدناه بعقبة المكودي بين سوق الرصيف ورحبة الزبيب (1) عدوة فاس الاندلس (2) فكان يطبع الاسجاع بجواهر لفظة ويقرع الاسماع بزواجر وعظه (3).

وترجم له صاحب سلوة الانفاس الشيخ بن جعفر الكتاني بما في العناية بلفظه (4).

وترجم له المستشرق ليفي بروفنصال في كتابه " مؤرخو الشرفاء بالفرنسية (Les Historiens des chorfa)(5).

---

1) هو المسمى اليوم جامع الرصيف.
2) في الواقع عدوة القرويين المسماة اليوم بالاندلس.
3) عناية أولى المجد المطبعة الجديدة بفاس سنة 1347 هـ ص 68 — 69
4) سلوة الانفاس طبعة فاسية في ثلاثة أجزاء سنة 1316 هـ ص 325
5) باريس 19222 ص 335.

وللشيخ عبد الواحد الفاسي مؤلفات وخطب بديعة وشعر رقيق لم يجمع في ديوان وعندي منه جملة في كناشته وكناشات.إبنه الفقيه الخطب أبي محمد عبد القادر.

وقد كان نسابه مطلعا على انساب الاسر العلمية بالمغرب كوالده أبي عبد الله محمد. ومن ذلك كتابه في تاريخ العائلة المجيدة الشريفة عائلة الصقلي الفاسية التي نبغ من أبنائها جماعة من العلماء وعنوانه '' غاية الامنية وارتقاء الرتب العلية في ذكر الانساب الصقلية ذات الإنوار البهية السامية '' وله كذلك كتاب في تاريخ العائلة العلمية الشريفة التي انجبت طائفة من العلماء وهي عائلة القادري الفاسية واسمه '' اغاثة اللهفان وسلوة الاحزان بالقادريين عظام الشان '' وله شرح لكتاب الفتوحات الالهية للسلطان العالم سيدي محمد بن عبد الله وقد جمع فيه الأحاديث الصحيحة التي اتفق عليها الشيخان ثم المحدثون الثلاثة ثم الأربعة ثم الخمسة ثم الستة وهو صنع فريد في علوم الحديث وقد طبعت هذه الفتوحات بالرباط.

أما انتاج أبي مالك عبد الواحد فلا يزال مخطوطا.

وتوفي أبو مالك عبد الواحد الفاسي شهيدا بالطاعون سنة 1213 هـ. (1799 م). كما توفي أخوه العلامة أبو العباس أحمد بن محمد الفاسي صاحب الرحلة الحجازية رحمهم الله جميعا.

وكتبه محمد بن عبد الواحد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد القادر ابن عبد الواحد المترجم

محمد الفاسـي

أما هذه الاجازة فقد صدرها بابداء عواطف رقيقة نحو العلامة المجاز مع تحيات عاطرة قائلا : ''سلام تجر به ذيول الصبا على تيجان الربا (كما يكتبها) سلام يوذن بحسن الاخلاص ويقترن بالود والاختصاص نهديه إلى حضرة معدن الكرم وموطن حسن الاخلاق والشيم منبع العز الشامخ ومنبت المجد الباذخ كنانة الفخار الاطهر ومدركة سوابق الناموس الاكبر عين أعيان العلما الاعلام وغرة زمانهم في شأو الاحتشام النجيب الراقي إلى ذروة الكمال التام، البدر المضيء في أفق الليالي والايام السيد أبي الصلاح (هكذا كناه) بن محمد بن احمد بن الامام أبي السعادات محمد بن شيخ الجماعة قطب رحى المغرب أبي البركات عبد القادر بن علي بن يوسف الكناني الفهري المالقي الفاسي أعاد الله علينا من بركته وبركة سلفه وحفظه بمعقبات من بين يديه وخلفه. ''وخلل ذلك بأبيات شعر أظنها من نظمه ثم تعرض لاستدعاء أبي مالك الفاسي الاجازة في خلاصة بن مالك فأسعف طلبه وحرر له سنده إلى هذا النحو الشهير وفي سنده عدة شيوخ من المغاربة وختم كتابة بطابعه المعروف له وهو صغير جدا وكأنه كان فصا لخاتمه وقد نوقش فيه بيت شعر يقول :

محمد المرتضى يرجو الأمان غدا   بجده وهو أوفى الخلق بالـذمم

ويلاحظ أن الشيخ مرتضى الزبيدي يكتب على طريقة المغاربة من نقط القاف نقطة واحدة من فوق والفاء بنقطة واحدة من أسفل. ولا أدري هل كانت هذه طريقته في مكتوباته الاخرى أم كان يستعمل ذلك تأدبا مع علماء المغرب. :

اجازة الشيخ مرتضى الزبيدى

ان من مظاهر أساليب التعليم عند المسلمين وتحقيق النقل في كل العلوم العقلية والنقلية ضرورة التحقق من صحة ما يؤخذ عن المشايخ باثبات سندهم الى أمهات التآليف والى الاتصال بالنبي صلى الله عليه وسلم في ما يرجع لحديثه الشريف وذلك لان من مبادئهم أن العلم يؤخذ من أفواه الرجال ويتجلى ذلك في الاجازات التي يمنحها الشيخ لتلميذه حيث يذكر فيها سنده الى النبي عليه السلام أو الى مؤلف الكتاب المدروس من قبل الشيخ وهكذا تثبت صحة كل معلوماتهم بطريقة نقدية فريدة لعلماء المسلمين في هذا المجال ولهم جولات بما وضعوه من قواعد لتصحيح النصوص الحديثة وغيرها. ومن أشهر الاجازات قبل الشيخ مرتضى الزبيدي اجازة شيخ الاسلام أبي السعود عبد القادر الفاسي التي نقلها الى الفرنسية الاستاذ بن أبي شنب مع تراجم كل العلماء الواردة أسماؤهم في مسلسلاتهم الى أمهات التآليف في مختلف العلوم. ثم ان الاجازات كانت زيادة على ذلك اداة الوصل بين علماء الاقطار الاسلامية حيث كان الاتصال بينهم بهذه الوسيلة غير منقطع كما قدمنا. وكانت هذه الاجازة ولازالت معتمد علماء المغرب العربي في هذا الباب.

أما اجازة الشيخ مرتضى التي نحن بصددها فهي نموذج أصيل لهذا الفن وتنبىء عن اطلاع واسع على سير الحركة العلمية وهي خاصة بسنده في خلاصة بن مالك وتشتمل على عدد كبير من النحاة الذين أخذ عنهم ومن مشايخ شيوخه الى مؤلف الخلاصة رحمهم الله.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

ان افضل قرب المتودد وأكمل تحف المتعهد، وأقوى أسباب المتعلق وأنجح أبواب المتشوق جزيل تحيات هي ركن صلاة الفؤاد الى قبلة الوداد وشروط كال المفروض والواجب من النفل والرواتب مع فريد سلام هو في ذلك المشتاق تمامه وفي فواتح الذكر ختامه سلام هو في روح الحب حبب وفي ثغر الود شنب، وفي جيد الزمن لآل، وعلى وجنة الدهر خال، سلام نزفه جنائب القبول، وتحفه نجائب الاقبال وتنغم معه شمائل الشمول ونسيم الشمال سلام تجربه ذيول الصبا على تيجان الربا، سلام يؤذن بحسن الاخلاص ويقترن بالود والاختصاص نهديه الى حضرة معدن الكرم وموطن حسن الاخلاق والشيم، ومنبع العز الشامخ ومنبت الفخر الباذخ كنانة هذا الفخار الاطهر ومدركة سوابق الناموس الاكبر عين أعيان العلماء الاعلام وغرة زمانهم في شأو الاحتشام النجيب الراقي الى ذروة الكمال التام البدر المضيء في أفق الليالي والايام السيد أبي الصلاح عبد الواحد ابن محمد بن أحمد بن الامام أبي السعادات محمد بن شيخ الجماعة قطب رحى المغرب أبي البركات عبد القادر بن علي بن يوسف العاصمي الكناني القصري المالقي الفاسي أعاد الله علينا من بركته وبركة سلفه وحفظه بمعقبات من بين يديه ومن خلفه وأبقاه بقاء جميلا ومد عليه من العناية الصمدية ظلا ظليلا ولا جعل لحوادث الدهر اليه سبيلا آمين.

وبعد فشوقي والسؤال كلاهما ... طويل مديد والبسيط ووافر
وشرح ودي لكم متقارب ... قوافيه في اخلاصه متواتر
وعجز وشغلي عن سواكم مرفل ... وصبري قد دارت عليه الدوائر
وكل ثنائي فيك وقف محبس ... وبيت من الامثال في الناس سائر
وماقبط سلوان المطاع قرأته ... وغيري على السلوان في الحب قادر

هذا وقد ورد الكتاب الفائق المشتمل على محاسن الالفاظ ومعارف الدقائق
كتاب في سراره سرور وفي رياض مطاويه أنوار وزهور

فللاه مغناطيس لفظ بعشه   الى فخه شحرور قلبي طائر

رسائل إخوان الصفاء بشعرك الذي
حلة الامن والشفا والولايه
وتركت التلخيص من كل فن
كان فيه من العباد شكاية
ماذا أقول وقولي فيك ذو حصر
واني سقيم والفؤاد سافر

يصدق في آياته وهو شاعر
وبه قد جررت اذيال عمري
في المعالي لما قرأت النهاية
فلسان الوصف قصير
وقصارى حالي العجز والتقصير
فلا تعجب من غريب بلدة

فقبلته وقابلت منه
رافعا للسماء داعي الله
أنت داويت يا حبيبي فؤادا
وبصر التأمل حسير
أحن الى لقياك شوقا وحسرة
يحن الى أشكاله ويناظر

وأشرتم في الكتاب أن أكتب لكم سندا خاصا لخلاصة ابن مالك ليكون ذخرا لكم وعدة في سلوك هاتيك المسالك فامتثلت الاشارة العلية وسطرت ما تيسر في اسانيدها الجلية فأقول أرويها عن شيخي الامام المتفق على جلالة قدره شيخ شيوخ عصره الشهاب أحمد بن عبد الفتاح أبي يوسف العلوي الشافعي الازهري المتوفى سنة ثمانين بعد المائة وقد جاوز التسعين بسماعي لها عليه من أولها الى باب المفعول المطلق واجازة لسائرها وسائر كتب ابن مالك وذلك بالجامع الأزهر المعمور في شهور سنة 1167 بسماعه لها على شيخه الشمس محمد بن محمد الشرنبابلي المتوفى سنة 1102 هـ بسماعه لها على الامام الحافظ شمس الدين محمد بن علاء الدين البابلي والامام أبي الضياعلي بن علي الشبراملسي بسماعهما لها على أبي النجا سالم بن محمد بن محمد اليوري المالكي بسماعه لها على الامام المحدث نجم الدين محمد بن أحمد بن أعلي الغيطي (ح) وبسماع البابلي أيضا على الشهاب أحمد السنهوري المالكي عن الشهاب أحمد بن علي بن حجر الهيثمي المكي قال هو والغيطي أخبرنا بها شيخ الاسلام زكريا بن محمد الانصاري سماعا عن كل من كل صالح بن السراج عمر بن رسلان البلقيني الكناني الشافعي وأبي عبد الله محمد بن ابراهيم الرشيدي الشافعي سماعا (ح) زاد الغيطي فقال،

وأخبرنا بها شيخ النحاة في عصره الشرف عبد الحق بن محمد السنباطي الشافعي سماعا للبعض واجازة للباقي أخبرنا الشمس محمد بن محمد امام الصرغتمشية الشهير بابن الصلاح قال هو والبلقيني والرشيدي أخبرنا أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد ابن عبد الواحد التنوخي عن الشهاب محمود بن سلمان بن فهد والشهاب أحمد ابن محمد بن غانم الجعفري قالا أخبرنا مؤلفها الامام أبو عبد الله محمد بن مالك الجياني الاندلسي وقد وقعت لي روايتها مسلسلة بالمحمدين وهي من أغرب ما يذاكر به، وذلك أني رويتها عن شيخي الامام الفقيه المحدث الاصولي النحوي اللغوي الملقب بامام الحرمين أبي عبد الله محمد ابن الطيب بن محمد بن موسى الشرقي الفاسي نزيل المدينة المنورة على سكانها أفضل الصلوات والسلام المتوفى بها سنة 1170 هـ عن ستين سنة سماعا عليه لبعضها بالمسجد النبوي في 1165 هـ واجازة لسائرها وشيخي الامام الفقيه المحدث المتكلم الناظر أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن أيوب التلمساني الشهير بالمنور المتوفى بمصر شهيدا بالطاعون عقب رجوعه من الحج 1168 اجازة مشابهة قالا أخبرنا بها الامام أبو عبد الله محمد بن أبي الفتوح عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي عن العلامة أبي عبد الله محمد بن محمد أبي بكر الدلائي الشهير بالمرابط عن والده عن أبي الدخائر محمد بن قاسم القصار عن أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن اليسيتني عن علامة الدنيا محمد بن محمد بن محمد بن مرزوق عن أبيه عن جده عن محمد بن أبي اليمن بن الكويك عن الشمس محمد ابن اسماعيل الدمشقي الشهير بابن الخباز عن مؤلفها محمد بن مالك رحمه الله، هكذا أملى هذا السند الامام الدلائي من حفظه لشيخ مشايخ شيوخنا أبي عبد الله محمد بن محمد بن سليمان الروداني والعهدة عليه والله أعلم سائلا من مولانا الامداد بصالح دعواته في خلواته وعقب صلواته كما هو بمثله له مبذول وعلى المولى جل شأنه القبول ومنا اهداء شريف السلام والتحية والاكرام إلى حضرات سادتنا الكرام ومشايخنا

الاعلام وأحبابنا وأصحابنا ومن له التعلق بنا أدام الله فضائلهم وكثر في العالمين فواضلهم.

حرر ذلك في ليلة يسفر صاحبها عن يوم الاثنين المبارك سادس عشري ربيع الاول الانور المكرم من شهور سنة **1204** بمصر المحروسة أدام الله انارة ربوعها المانورية وحبا أهلها بأنواع الكرامة وجعلها دار اسلام الى يوم القيامة قال ذلك العبد المعترف بذنوبه الراجي ستر عيوبه المؤمل من الله نيل مطلوبه أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد بن محمد الحبيني الواسطي العراقي الاصل ثم الزبيدي ثم المصري غفر الله زلله وأصلح خلله حامدا الله على نواله مصليا ومسلما على سيدنا محمد وآله وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وختمه بطابعه المعروف له المتضمن البيت الآتي.

محمد المرتضى يرجو الأمان غدا   بجده وهو أوفى الخلق بالذمم

الرباط   **محمد الفاسي**

الكناشة في العرف المغربي

عبد العزيز ابن عبد الله

الكناشة تشتمل على الأحداث التي شاهد صاحب الكناشة وأشعاره ومساجلاته الأدبية وفوائده.

توجد **40** كناشة لفحول العلماء بالخزانة الأحمدية السودية بفاس، ويسميها بعضهم الزمام والبطاقات وهي أوراق كالدفتر تقيد فيها الفوائد والشوارد للضبط (تاج العروس ج **4** ص **347** — مكتبة الحياة بيروت) وهو أشبه بما عرف بالمشرق من تذكرات كتذكرة الصفدي والتذكرة التيمورية أخيرا، وأقدم كناشة معروفة هي للجادري عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المديوني الفاسي (**818** هـ / **1415** م)، وقد ترجم أحمد زروق البرنسي لنفسه في '' كناش'' كما خلف عبد الواحد الونشريسي عدة كنانيش، وأشار المنجور الى كنانيشه في طالعة فهرسته الكبرى والصغرى ثم توالي استعمال الكلمة في العصر العلوي ككناشة العربي القادري والكناشات الفاسية والسودية واليحمدية والشرقاوية وكناشات الحائك وبنيس وشطير والمعداني الخ.

(الكناشات المغربية ــ محمد المنوني ــ المناهل ج 2 ص 196).

كناش أملاك المخزن

سجل تثبت فيه أملاك الدولة الموجودة بكل مدينة والمناطق التابعة لها ويشرف على مراقبته (أمين المستفاد) المحلي الذي يحاسبه المخزن على أعماله في هذا المجال (راجع رسالة سلطانية تلقاها أمين مستفاد أزمور عام 1302 هـ / 1885 م) (خم 360 ص 212) بسبب تعطيل السواني التي تحت عهدته ومطالبة ببيان السبب والاعوقب.

توجد نسخة منه في وثائق السيد بناصر غنام عرضتها وزارة الثقافة في '' المعرض الخامس '' (مارس 1973) (الرقم الخاص 56).

كناش الحاجب

كان السلطان يفض بنفسه المكاتيب الواردة على الحضرة باسم السلطان مختومة الى أن توعكت صحة المولى الحسن عام 1304 هـ / 1886 م ففوض لحاجبه أحمد بن موسى في فتحها والاستعانة بكاتبين من صدر الوزارة لتقييد مضمون كل كتاب ليرفع للجناب العالي فيراجع كل مضمون ثم يوقع عليه بما يراه، ويقيد الحاجب في كناش خاص سائر تلك المضمنات بتواقيعها.
(العز والصولة لابن زيدان ج 1 ص 42)

كناش الحساب لدى التجار

كناش الدخل ــ كناش الخرج اليومية ــ كناش الوسخ ــ كناش الكوبية (أي النسخ)

(لوتورنو ــ فاس الحماية ص 398)

كناش الديوان

كانت تثبت فيه ديون الدولة في عهد الحسن الأول (توجد نسخة منه في اسم صاحبها (بناصر غنام) وأحرضان عرضتها وزارة الثقافة ضمن وثائق ومخطوطات المعرض الخامس (مارس 1973) (الرقم الخاص هو 52 — 77) وكانت تسمى بكناش ما بالذم للمخزن راجع كناش ديون العرائش (وثائق بناصر غنام وأحرضان — المعرض الخامس — الرباط مارس 1973 (الرقم الخاص88)
وكناش ديون تطوان (الرقم الخاص 96)

كناش شروط الأجناس في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله

(فيه الشروط المعقودة مع فرنسا عام 1180 هـ / 1766 م مع عقود ومعاهدات اقتصادية وبحرية مع أوربا (خع 1694 د (63 هـ).

كناش مكاتيب الطابع الشريف

رسائل رسمية موجهة الى القواد والعمال خلال عام واحد (1324 هـ / 1325 هـ / 1907 م) (في عهد المولى عبد العزيز)
مكتبة كلية ابن يوسف / خع 1695 د
والطابع السلطاني : خاتم مستدير كانت تختم به الرسائل والأوامر والظهائر السلطانية وكان يوضع بأعلى المراسيم في العهد السعدي بخصوص المظالم أو رسائل الأشغال والعطاء في حين كان السلطان يسجل (العلامة) بيده على الكتب والأجوبة والظهائر (مناهل الصفا ص 206).

وصاحب الطابع كان قائدا للجيش عام 1223 هـ / 1808 م وهو أحمد بن

مبارك (الاستقصاج 4 ص 142)

والواقع أنه كان لكل قائد من قواد الحواضر أو القبائل الكبرى طابع مثال ذلك الطابع الرسمي لقائد تطوان محمد عاشير وهو بيضوى الشكل بأعلاه نتوء قليل قد كتبت في دائرته (وما توفيقي الا بالله) عليه توكلت واليه انيب (وفي وسطه) (خديم المقام العالي بالله محمد عاشير وفقه الله) تاريخ تطوان ج 2 ص 270.

كناشة ابن سالم ابراهيم بن محمد بن ابراهيم البرنسي (1130 هـ / 1717 م)

تحتوي على رسائل علمية واجازات من اشياخه (خع 1056 د).

كناشة لاحمد بن الحسن اليحمدي الوزير (1132 هـ / 1719 م)

وهي أكبر كناشة عرفت بالمغرب (نسخة في عشرة أجزاء في خم تسعة منها رقم 1034 والعاشرة رقم 3985 والنسخة في ثمانية أجزاء في مجلدين (خع 330 ك) وهي غير كناشة اليحمدي محمد بن الحسن (الجزء الأول خم 2272)

كناشة لاحمد بن الطالب بن سودة (1321 هـ / 1903 م)

(خع 473 ك).

كناشة لاحمد بن عبد السلام السريفي الصفصافي (1343 هـ / 1925 م)

بها نقول واجازات لابن القاسم بن أحمد الفاسي (خع 1182 ك)

(كناشة) لاحمد بن عبد الله التناني الصويري المهندس رئيس قواد الطبجية في العهد الحسني

جمع فيها فوائد اشياخه ومؤلفات في الحساب والجبر والمقابلة واغرتم. (الاعلام للمراكشي ج 2 ص 266).

كناشة لاحمد بن القائد عمر بن ابن سعة المراكشي (1292 هـ / 1875 م)

وهي اجازة الشيوخ يوجد عند بعضهم بمراكش.

(الاعلام للمراكشي ج 2 ص 227).

كناشة لاحمد بن قاسم جسوس الرباطي (1331 هـ / 1912 م)

ضمنها شيوخه (نسخة عند ابن أخيه الحاج قاسم جسوس بالرباط.

كناشة احمد بن محمد بن السعيد الفلالي العلوي قاضي مقصورة المواسين

(خم 10327).

كناشة احمد بن محمد بن عاشر السلوي الحافي

(خع 1044 ك)

كناشة لاحمد بن محمد الرشيدي المكناسي (1319 هـ / 1902 م)

(خع 1068 ك)

كناشة للطيب بن محمد البياز عامل فاس

(خم 3665)

كناشات أربع للعباس بن محمد بن عبد الرحمن الفيلالي الحجرتي

(1311 هـ / 1893 م) وقد سجل فيها وفيات المتأخرين من أهل فاس.

خع 3634 د (685 هـ / 3747 د / 70 ك /)

كناشة لعبد الرحمن سقين قيد فيها بخطه الفوائد الحديثة وغيرها

(راجع فهرسة تلميذه المنجور).

كناشة عبد العزيز الفرديس

(خع 1081 ك) / 2276 ك / 2848 د).

كناشة لعبد القادر بن محمد التطواني المزروم

حول وثائق سياسية ومستندات تاريخية ترجع لعصر السلطان محمد الثالث وكان كاتبا له (مكتبة العلامة محمد التطواني بسلا)

كناشتان لأبي المواهب سيدي العربي بن محمد بن محمد السائح

خع 147 د / 139 د

(الثانية مستخرجة من الأولى)

كناشتان للعربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المعسكري نزيل فاس (1313 هـ / 1895 م)

204 د / 471 د)

كناشة لعبد الله بن علي سطير التطواني (1215 هـ / 1800 م)

إسمها (نضار الأصيل على بساط الخليل) اشار فيها الى ابتكار طريقة جديدة للعبة الشطرنج ولعبة الكارطة. خزانة داود بتطوان (تاريخ تطوان ج 6 ص 199).

كناشة لعلال بن احمد بن شقرون لكريمي الفاسي (1319 هـ / 1901 م)

ذكر فيها أشياخه (خع 469 ك).

كناشة لعلال (أو علي) بن محمد التهامي بن احمد الحمومي الفاسي 1259 هـ/1843 م

(خع 1531 ك) (السلوة ج 1 ص 177).

كناشة لمحمد بن احمد بن الطيب بناني (1317 هـ / 1899 م)

(ضمنها اجازات شيوخه) (راجع بعضها في الاعلام (للمراكشي ج 7 ص 119 .ط. الرباط).

كناشة محمد بن احمد بن العربي الصقلي (1316 هـ / 1898 م)

(خع 480 ك).

كناشة محمد بن احمد الرافعي الازموري الجديدي

(1360 هـ / 1941 م) (خع 1198 ك)

كناشة محمد الطالب بن حمدون بن الحاج

(خم 3063)

(كناشة) محمد بن الطاهر الزبدى الرباطي

(تاريخ تطوان ج 4 ص 78)

(كناشة) تاريخية لمحمد العربي بن الطيب القادري

(خم 2389)

(كناشة) لمحمد بن عبد الرحمن (1343 هـ / 1925م

نسخة عند أسرته تابع تقييدها ابنه عبد الكبير وحفيده.

(كناشة) محمد الطيب بن عبد السلام الخياط قيم خزانة الرصيف بفاس في العهد الرحماني

(خع 1574 ك) فيها تقاييد في الانساب.

كناشتان لمحمد بن عبد القادر فرفرة الرباطي (1371 هـ / 1952 م)

تحتويان على معلومات تاريخية نادرة حول القرنين الرابع عشر والثالث عشر (نسخة في خزانة محمد التطواني بسلا).

كناشتان لمحمد بن عبد الله المراكشي

تحتويان على تقاييد مقتبسة من نوادر المصنفات (خع ج 88 / ج 91).

كناشة لمحمد بن العربي بن احمد الفيلالى

(خع 911 ك)

كناشة محمد بن العربي قصارة الفاسي (1257 هـ / 1841 م)

بها إفادات (السلوة ج 2 ص 155

(وقد اشار اليها الطيب بن محمد البياز عامل فاس في كناشته خم 3665)

كناشة لمحمد بن محمد بن علال التحول الفاسي.

نسخة بالخزانة الاحمدية السودية بفاس تحتوي على فوائد نادرة.

كناشتان لمحمد المدني بن علي بن جلون الكومي

(1298 هـ / 1880 م)

خع 29 ك / خع 2676 ك

كناشة لمحمد بن قاسم الزجالي الفاسي (1072 هـ / 1662 م)

ذكر فيها أساتذته ورحلته الدراسية الى القاهرة

(نشر المثاني ج 1 ص 242)

كناشة لمحمد بن محمد بن ادريس العمراوي الفاسي الوزير

ترجم فيها لنفسه (نسخة بالخزانة الأحمدية السودية بفاس).

كناشة ابن عبد السلام

فهرسة فيها مجموعة اجازات ابن ناصر محمد المدني بن محمد بن عبد السلام الدرعي وقف عليها الكتاني (ف.ف.ج 2 ص 221)

كناشة محمد المكي بن محمد بن علي البيطاوري (1355 هـ / 1936 م)

(خم 2857).

كناشة محمد بن محمد بن علي الدكالي السلاوي

مصورة على الشريط (خع 36)

كناشة محمد بن محمد بن محمد بن العناية بن فقيرة (توفي بعد 1320 م / 1902 م)

(خع 3736 د)

كناشة محمد بن محمد بن يحيى الطنجي

(خم 2847) فيها افادات وأشعار

كناشة محمد الصالح بن محمد المعطي الشرقي

(خم 3415)

فيها بعض اجازات

كناشة محمد بن المعطي السرغيني

(1296 هـ / 1878 م)

(خع 491 ك)

كناشتان لمحمد الطيب بن اليماني بوعشرين وزير محمد الرابع

تتضمن احداهما 114 ص حول البريد المغربي من عام 1276 هـ الى 1281 هـ والذعيرة الاسبانية واسماء قواد عصره.

كناشة محمد السعيدي المنوني

(1334 هـ / 1916 م) (خع 2803 ك)

كناشة محمد الفاطمي الشرادي

(1344 هـ / 1925 م) (خع 1555 ك)

الرباط **عبد العزيز ابن عبد الله**

العدو الشهم

د. عبد الهادي التازي

لقد كان من بين الفصول التي كتبت عن العلاقات المغربية البرتغالية بداية القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي)، هذا الذي يحمل عنوان (L'ennemi Valeureux) ونقتبسه من كتاب (Castelos en Africa) وهو بقلم إيلين صوصو (Elaine Sauceau) وهي تكمل الفكرة عن تلك العلاقات.

لاشك أن كل واحد (من المغاربة والبرتغاليين) كان يعيش على تقاليد ماضي الآخر، رغم أن دمهم كان يسيل في ميادين القتال فكان يمتزج أيضا مع علاقاتهم الانسانية.

هناك أسيرات مسيحيات أصبحن أمهات لكثير من الرؤساء المسلمين، وقد دخلت الأسيرات العربيات الجميلات العائلات المسيحية عن طريق الزواج الشرعي، وكان أبناء ضباط المواقع البرتغالية يتعلمون اللغة العربية مع المربّيات المغربيات. ومن جهة العرب فإن الكثرة منهم كانوا يتكلمون البرتغالية أو القشتالية أو لغة فرنجية أخرى مزيجة بين اللغة الاسبانية والعربية وتسمى «بالعجمية»، وهناك كثير من الرجال في جيوش أفريقيا الشمالية أصلهم من

غرناطة بل أن البعض قد ولد ونشأ تحت سماء ليشبونة، ورغم أن كل واحد كان مقتنعاً في أعماقه بتفوق طريقة حياته، فإن كلا من الطرفين كان يعترف بمحاسن عادات الآخر ! ولا يمكن أن ننتظر غير ذلك، فقد كان تعرف فريق على فريق يتم خلال فترة انتظار الأسرى لافتدائهم، أحيانا خلال سنوات، بفاس أو مراكش.

وفي بيوت النبلاء البرتغاليين مكث مولاي محمد ملك فاس بضع سنوات، وأصبح يلقب بالبرتغالي، لأنه عاش طفولته في الأسر في بلاط الملك د. ألفونس 5 (D'ALFONSO V) وعندما كان يصل أسير إلى إحدى المدن هنا أو هناك، فإنه يكون على يقين من لقاء معارف قديمة، لقد صاح أحد الشرفاء العرب حين جيء بلورينصوبيريز Lourenço pires أسيراً إلى بلاط ملك فاس : هذا لورينصوبيريز الذي كان البارحة طفلاً جاء اليوم ليقاتل ! كان الفتى لورينصو الذي كثيرا ما رآه الشريف العربي لما كان هو نفسه ينتظر فديته في بيت الكونت دي بورداس (de Bordas) غير بعيد من مزرعة أسرة طافوراس (TAVORAS) في كاباريكا (Caparica).

وهكذا لن نندهش من وجود نفس العقلية عند نبلاء البلدين، فالحرب بالنسبة لكلٍّ منهما كانت رياضة، خطيرة بدون شك، غير أنها كانت مطلوبة بالضبط من أجل ذلك ..!

وهكذا فإن الحرب بالنسبة إلى البلدين ـــ علاوةً على كونها تسلية أنيقة ـــ فإنها كانت كذلك أهم شيء في حياة الجهتين : الحرب بأهدافها التواقة التي كانت تُبقي الأمراء في حالة استعداد مستمر ...

كلما عاد ضابط من البرتغال إلى مركزه بعد عطلته، كان حكام «القصر الكبير» و «تطوان» لا يغفلون عن تقديم تهانئهم وعن تقديم الهدايا إليه، متمنِّين

له ولعائلته الصحة الجيدة، وعندما كان يتولى ضابط جديد القيادة كانوا يبعثون له التهاني والتحيات، يسألونه : هل ما إذا كان يحتاج لمساعدة.

وحتى بعد الغزوات الضارية كانوا كثيرا ما يتبادلون رسائل المجاملة عندما كان حاكم القصر الكبير مثلا يقدم أسئلته عن الأسرى : فلقد هنأ ذات يوم دون كوتينهو (D. coutinho) على غارته الناجحة، ولكي لا يبقى هذا الاخير ساكتا أظهر إعجابه بالطريقة الحكيمة التي أحجم بها الحاكم المغربي عن المعركة !

''إنه الحظ'' ! هكذا كان يقول كل من الغالب والمغلوب للآخر، وبمرونة زائدة، فكان الحظ مرة يقف إلى هذا الجانب ومرة أخرى إلى الجانب الآخر : إن ما كان يعرف ''بالشرف وأدب المهنة'' هو قانون ''رعرف'' (la déontologie) لا يراعى فقط على ساحة القتال. ولكن كذلك في عرض البحار...

لقد اعترضت مرة سفينة ''مغربية'' من العرائش سبيل باخرة كانت تبحر في اتجاه البرتغال (1)، وتحمل رسائل من الدون كوتينهو (Coutinho) الى الملك البرتغالي، فردها حاكم مدينة القصر الكبير فورا إلى أصيلا من غير أن يفتحها ! وقال : إن الرسائل الخاصة لا يمكن أن تلاحق ! والله لا نسمح لانفسنا بأن نمسها !! وحين طلب مولاي إبراهيم من الكونت ضون كوتينهو (D. coutinho) الوثائق التي كانت ضمن زاد أحد الاسرى المغاربة أرجعها القبطان المذكور في الحال بكامل مضمونها ! كما أن مولاي إبراهيم هذا نفسه أعاد الى لورينصو بيريز الذي سبق ذكره، الذخيرة والصليب الذهبي اللذين عثر عليهما على جثة أخيه الذي قتل في المعركة !!

1) يلاحظ وجود قطع من الأسطول المغربي على عهد الوطاسيين بالرغم من الوضع المعروف لهذه الدولة...

على أن هذا لا يعني أنهم لم يكونوا يحاربون بجد، فإن ملك فاس مولاي محمد ''البرتغالي'' الذي ربي في البرتغال، كان بطلا مقداما في الجهاد في سبيل الله، حتى عندما بلغ سن الرابعة والسبعين من عمره، كان يمشي كيلومترات وكيلومترات على ظهر جواده على أمل الاجهاز على كافر ولو كان واحدا !! وكان قادة القصر الكبير وشفشاون وتطوان محاربين شجعانا وكان في خدمتهم ضباط بواسل...

من بين الغزاة المشهورين ''للغرب البرتغالي'' الذي يوجد في ما وراء البحار(2)، كان القائد العروسي وهو قائد جبل حبيب : (الخروب) كما كان يسميه البرتغاليون، والذي كان يظهر من كل جانب على خط الافق. اشتهر جبل الخروب بغابات البلوط وغابات الفلين وبأنهاره وأوديته الخصبة وكذلك بجمال نسائه.

كان رجال القائد العروسي الذين كانوا يقاتلون تحت الراية الحمراء لشفشاون، يعتبرون من أشجع رجال المنطقة، ولم يكن رجال أي قائد بمثل تدريب وصحة رجال القائد العروسي، ولم يقدم أي ضابط أعمالا قرصنية أكثر جرأة مثل العروسي، ولم يكن أحد أكثر منه مهارة في نصب الكمائن والفخوخ ولا أكثر اطلاعا منه بتحركات العدو ! كان يظهر حيث لم يكن أحد ينتظره، ويقترب خفية زاحفا حتى يفاجيء الحراس وهم في مراكزهم العسكرية وكان يقترب من الدوريات المسيحية ويداهمها !!

''الله يحفظنا من العروسي'' ! كان هذا هو دعاء الرواد البرتغاليين عند خروجهم من طنجة أو أصيلا، لقد كان من الصعب النجاة من العروسي... ومع

2) هناك : على ذلك العهد غربان عند البرتغال : '' الغرب '' الذي يقع في الجزيرة الايبيرية والغرب الذي يقع فيما وراء البحار !!

هذا فإنه لا أحد كان يحسن معاملة الأسير مثله ! لم يكن ينهب أحدا إطلاقا، وكان يقدم للجميع ما لديه في بيته بالجبل، وبمجرد ما يتم افتداء الأسير فان القائد العروسي كان يرده بمؤن وافرة من الدجاج والفواكه المجففة ليتناول غداءه أثناء طريق العودة..!

ولقد ورد العروسي ذات يوم بنفسه لأصيلا لفدية أمه التي أسرت أثناء غارة. لقد أعد له الكونت ضون كوتينهو (D. Coutinho) استقبالا حافلا، وأجلسه على طاولة ''بين عدد من الفرسان النبلاء وقد تم اللقاء في غاية البهجة ! كان الخصوم يمزحون ويهدد بعضهم الآخر بمرح ــ قال العروسي عن كارفالهو (Carvalho) لأحد ضباط المركز : إن مشاغلي الكثيرة هي التي تحول دون أن أمسك بكم ومفاتيحكم بأيديكم !!، أمامي مناسبات كثيرة ! فأجابه كارفالهو (carvalho) سيحمل رأسك إلى أصيلا قبل أن تتمكن من ذلك ! فضحك العروسي قائلا : أنه لن ينال رأسه شيء من هذا النوع ! وإنه لا يستحق أن يعامله فرسان أصيلا بمثل تلك المعاملة ــ(يشير إلى أسر والدته).وكأنه من أولئك الذين يبيعون دينهم ويتعودون على الخيانة. ''إن أولئك الذين يقعون بين يدي أعاملهم معاملة الفرسان والأصحاب''. فهتف دون ماسكارينـاس (D. Mascarenhas) صهر الكونت : أنت رجل عظيم !! وعانق العروسي بحرارة قائلا : لقد تكلم كلام الفارس النبيل.

كان القائد المغربي محور الاهتمام العام طوال الايام الثلاثة التي مكثها في أصيلا، وحتى الحراس كانوا يتنافسون على دعوته إلى منازلهم المتواضعة، وقد عاد العروسي محملا بالهدايا وهو يرتدي المعطف الجميل الأحمر الذي أهداه له الكونت، وألح ماسكارنياس (Mascarenhas) على ضيفه وهو يصاحبه على أن لا ينسى ارتداء هذا المعطف في أول غارة له ليعرفه الناس بوضوح، فرد

العروسي الشجاع ''إن أعمالي هي التي تتحدث عني أكثر من القماش ! إبحثوا عني على ظهر فرسي الأبيض !''

كان الكل مقتنعا أن العروسي لن يموت إلا في إحدى المعارك والملاحم، لكن الذي حدث ان هذا البطل العظيم، قتل ذات يوم برصاصة طائشة !! وما عرف أحد قط من أطلقها ! لقد سبب هذا الحدث حسرة كبيرة، فإن أحدا لم يستطع أن يفخر بغلب العروسي بحد الرمح والسيف !!

وقد خلف العروسي بطل آخر، كان هو أمليكس (Amelix ?) زعيم جبل الخروب، كان قصير القامة، نحيلا وقويا، كان من أشجع الشجعان فقد شارك في المناوشات مع القواد منذ طفولته، وبعد أن أسر في طنجة نفي الى البرتغال حيث تمكن من الهرب واستطاع العودة الى بيته بواسطة زورق صغير ! كانت تلك هي آخر مرة قبض عليه فيها رغم أنه أصبح حسب بيرناردو رودريكيس (Bernardo Redrigues) أحد المهاجمين الأكثر جرأة...

كان يغير بدون انقطاع على الحصون الأربعة التي عندنا في الغرب : غرب ما وراء البحار ـــ سبتة، القصر الصغير، طنجة، وأصيلا. لقد دبر كوتينهو.D) (Cutinho، عبثا، كل الحيل للقبض عليه. لم يمض اسبوع واحد خلال ست سنوات لم يظهر فيه هذا الرجل القصير الشجاع كمقاتل صلد ! مع أنه لم يقم بغاراته ـــ إطلاقا ـــ مع أكثر من عشرين فارسا، لقد أسر في غضون هذه المدة زهاء مائة رجل، إما من الفرسان أو من المحاربين ...

كان أمليكس، مثل العروسي خصما شهما نبيلا، لم يكن يسيء إلى المحاربين الذين يستسلمون. كان يذهب بهم الى بيته ويعاملهم بسخاء خلال أسبوع قبل أن يصحبهم الى شفشاون حيث كان مولاي ابراهيم، سيده يكافئه بمبلغ من

المال مقابل كل أسير ! وهناك كانت تتابع الولائم حيث كان يستدعي الأسرى.
كان أمليكس يحب الاكل والشراب واللهو. وبالرغم من أن دينه يحرم عليه الخمر فقد كان يحضره على مائدته !! كان مضيافا بل ومتلافا الى حد أنه رغم كل المبالغ التي كان يتلقاها والهدايا التي كان يقدمها له الملوك والحكام، كان صفر اليدين ! لدرجة أنه بعد زيارة منه لموسم أقيم في شفشاون، وجد نفسه من غير نقود ليعود إلى بيته !

ـــ تعجب مولاي ابراهيم ذات مرة وقال له : ماذا ؟ تم الأمر ؟ ماذا فعلت بكل المبالغ التي أعطيتك إياها الساعة ؟

ـــ فأجاب : مولاي لقد صرفتها كلها في الشراب حتى ياخذ كل واحد منا نصيبه.!

وعقب احد الشهود عليه : '' إن أمليكس هنا ليبدد كل ما يوجد في ''الغرب'' من مال وخمر '' فقال الحاكم ضاحكا '' الحمد لله قبل كل شيء '' إنما فعل ذلك بيد كريمة وسنفعل مثله !.''

وأرسل في طلب النقود وأعطاه حفنتين كبيرتين، وهنا أوصى أحدهم مولاي ابراهيم قائلا : لا تعطه قبل أن يمتطي جواده لئلا يتوقف ويصرف الكل !

غير أن أمليكس يتوافق وطبع مولاي ابراهيم، الذي كان هو نفسه كريما، سخيا ألوفا لا مباليا (3).

ومن بين الاعداء الشجعان الذين واجههم البرتغاليون، يعتبر مولاي ابراهيم أكثر إثارة للاعجاب والحديث... كان ابراهيم ابنا لعلي بن راشد الذي أسس المدينة الناسكة شفشاون، من أم مسيحية، ولد بشريس ؟ (Jerez) على

R. Ricahd : Moulay IBRAHIM caïd de chechaouen S.I.H.M. Porti III 140 3)

الحدود بين طريف وقادس مات علي بن راشد يحمل معه ذكرا جميلا، ودفن في قلعته الهادئة وسط جبال الريف الوعرة، حيث كان يعيش عدد من المقاتلين الشجعان الذين دأبوا على مهاجمة الكفار؛ لم يكن الابن : مولاي ابراهيم متعصبا، كان مسلما مؤمنا ولكنه كان يحب اليسير والسهل من الامور. كان يتكلم القشتالية، ويعطف على الذين يتبعون دين أمه، على نحو ما تفعله هي، رغم أنه كان يحاربهم طوال حياته !

لم يكن أي أسير يخاف الاستسلام أمام مولاي ابراهيم، لأنهم كانوا متأكدين من حسن المعاملة ومن إطلاق سراحهم مقابل مبلغ ضئيل من النقود إذا كان الأمر يتعلق بفدية.

كانت شروط مولاي ابراهيم دائما خفيفة على خلاف شروط حاكم القصر الكبير الذي كان يفرض شروطا أصعب. وكثيرا ما كان مولاي ابراهيم يخلي سبيل الاسرى مجانا، وإذا ما أعيد له أسير مغربي من غير فدية، بعث بهدية قيمتها تفوق الثمن المحتمل للأسير !

كان مولاي ابراهيم يتصدر دائما المعركة وسط القواد الابطال المغامرين وهم كثير في جيش ملك فاس. كان يشاهد في خيمته لطيفا، مرهف الحس ! يتبادل الحديث مع الاسرى المسيحيين ورسلهم : يراهن مثلا، على أسر (روك رافينا Roque Ravena) أو ينصح أحد المرتزقة الذي ــ بعد أن فارق زوجته في أصيلا ــ جاء يعرض خدمته على مولاي ابراهيم : «من الأحسن لك أن تعود إلى أسرتك» !

وعندما كانت زوجة أحد الاسرى، الشابة الجميلة تأتي وهي تبكي مدرارا طالبة منه إخلاء سبيل زوجها لانها لا تستطيع دفع الفدية، كان مولاي ابراهيم

يقبل الشفاعة بشهامة قائلا '' لا نستطيع رفض طلب معقول لامرأة شابة وجميلة مثلك.'' !!

كان مولاي ابراهيم حاكم شفشاون ووزير ملك فاس، صديقا حميما للكونت كوتينهو(D. Coutinho)قبطان أصيلا. كانا يتبادلان الهدايا ورسائل المجاملة عند الذهاب والاياب، وكذلك بعد الغارات المتبادلة. كان مولاي ابراهيم يسأل عن أخبار الكونت إذا تغيب ويضيف الى ذلك طلب ابلاغ زوجة الكونت تقديراته واحتراماته ! هذه الاخيرة تبعث له هي نفسها بأطباق من الهدايا وقطع الحلوى التي كانت تعد في مطبخها...وعندما مرض مولاي ابراهيم في شفشاون طلب من كوتينهو أن يرسل اليه طبيبه دوراطDURATE رودوريكيز أخا فيرناندو صاحب الحوليات المشهورة، فقبل القبطان الطلب فورا. ومكث الطبيب مدة طويلة بشفشاون وعالج مولاي ابراهيم وأخته للاعائشة.

وفي عام 930 = 1524 التقى الرجلان شخصيا حيث جاء ملك فاس ليخيم في أصيلا مع حكامه وقواده !!!

وعلى مقربة من مدافع أصيلا، انتشر المغاربة في الضواحي... ووسط كل هذا نظم(D. Coutinho)ومولاي ابراهيم لقاء. وليلة القديس جانLe St Jean) (كان حاكم شفشاون يمتطي جواده محاذيا البحر على رأس ألف رجل يحملون راية تطوان وطنجة وشفشاون. فتوقف على مسافة قصيرة من القلعة مع ستة فقط من رجاله وبعث رسولا قبله ليبلغ خبر وصوله...

كان الكونت رضونضو(Redondo)ينتظره قرب البحر مع جنوده الذين كانوا في التدريب. فتقدم كذلك مصحوبا بستة رجال الى أن التقى هو ومولاي ابراهيم وجها لوجه، فتبادلا السلام. كان المنظر رائعا، كان الكونت يركب

جواده الجميل فاليرا(Valéra)'' أجمل مطية في عصرنا '' وعلى رأسه قبعة من الريش المتموج، كان يرتدي لباسا وقائيا أبيض متلألئا. أما مولاي ابراهيم فكان يغطي رأسه بقلنسوة حمراء وكان يلبس جبة من قطيفة رمادية وقماشا مزينا بشرائط خضراء ورمادية، وعلى خصره حزاما عربيا علق عليه خنجر مرصع بالفضة. وكان أمامه خادمه يحمل له الدرع والرمح. كان الرفقاء الستة كلهم بالعمامة والأقمصة العربية. كانوا من أشراف البلاد بل كان يقال أن ابن ملك فاس كان من بينهم متنكرا...!

وبينما كان الكونت ومولاي ابراهيم يتبادلان التحية والتهنئة، خرج غلمان من القلعة والمناديل على أكتافهم يحملون صناديق من الفواكه المعلبة وقطعا من الحلوى وجرة من الماء البارد قدموها لمولاي ابراهيم قائلين : «تفضلوا بتناول الطعام، إن السيدة زوجة الكونت قد رأت أن النهار حار فبعثت لكم فواكه لتتبردوا والماء لتشربوا »!

فرد مولاي ابراهيم بأنه يقبل يد السيدة زوجة الكونت، وأن هذا العرض لن يرفض ! فأكل من كل شيء وأعطى لرفقائه وملأ كيسه وكيس أصحابه بما تبقى، وترجل ليشرب وبعث الخدم ليحملوا الماء للاخرين في إناء من فضة كان قد أتى به، ثم سحب من كيس نقوده خمس قطع من النقود (كروش) لكل خادم قبل أن يعود لجانب الكونت الذي أطال معه الحديث وتفارقا وهما يؤكدان صداقتهما، وبعد ذلك أخرج الكونت الماشية لترعى خارج الاسوار. كانت فرصة سانحة فقد بقيت الماشية حتى الليل ولم يحاول أي مغربي السطو عليها...

وفي الصباح الموالي وصل سفير من عند مولاي ابراهيم يخبر بأن بعض سادة فاس يودون رؤية قلعة أصيلا متسائلا : '' فهل لهم أن يروها من الخارج

؟ '' طبعا '' فأرسلوا رجلا ليرشدهم وأعطي الامر بعدم إطلاق النار.

وأراد كل المغاربة حينئذ انتهاز الفرصة للفرجة، فلم يلبثوا أن ملؤوا البحر ووقفوا حول الاسوار ! وأطلت نساء أصيلا من النوافذ، وكان المغاربة الذين يتكلمون بالعجمية يبادلونهن الحديث !

واتفق أن كانت سفينة في هذا الوقت قدمت من سبتة ودخلت الميناء، فرأت الناس يسيرون في كل جانب من غير ان تسمع أدنى طلقة نار، ففهمت فورا أن أصيلا قد سقطت ! فابتعدت بسرعة وذهبت لتشيع الخبر الحزين !

وسرعان ما ذاع النبأ في كل من جبل طارق، ومالقة، وغرناطة، غير أن كوتينهو (Coutinho) الذي كان رأى الزورق عندما ابتعد، أرسل مركبا في اثره ليوقف الشائعات المحتمل ترويجها !...

وهكذا كان يحدث أن تزرع الصداقة والعداوة جنبا إلى جنب، لدينا مثل عند رودويكيز (Rodriques) بالذات وصديقه المغربي علي روديم (Ali Roudim) من العرائش : كان يبدو أنهما لا يفترقان فهما يقيمان إما في بيت الواحد أو في بيت الآخر... كانا يتحدثان عن ذكريات الحرب والقتال حتى إن عليا قد أظهر لزميله أثار وخدوش الجروح الخطيرة التي تجشمها في القتال ضد البرتغاليين ! إنه سلوك نموذجي !

وكذلك كان خطاب ملك فاس ابن محمد البرتغالي، في سنة **1542** نموذجا رائعا... حمله سفير تابع لبلاط خوان الثالث (D. João III)، كان هو دي فاركيز(de Vargues): لقد كان كوتينهو قد عاد الى البرتغال، وان العاهل المغربي يترجى ملك البرتغال أن يعيد كوتينهو الى إفريقيا لانه تربى في أصيلا

وكبر فيها...! لقد حارب وأساء إلينا كما أسأنا إليه، ولكن بما أنه أقام بيننا مدة طويلة فان بيننا نحن الاثنين صداقة كما هي بينه وبين جيرانه قوادنا وحكامنا...!!

قد يظهر مثل هذه القضايا غريبا ولكنه حقيقة واقعة...

الرباط — د. عبد الهادي التازي

الدَّوْرُ المُزدوج للثقافة

د. محمّد الكتاني

الحديث عن الثقافة حديث قديم وجديد في نفس الوقت، أي أنه حديث مكرر، ولكنه غير مملول. قديم لأن طرح المشكلة الثقافية من الموضوعات التي لا تكاد تختفي من الندوات واللقاءات الفكرية. وجديد لانها من القضايا التي يريد كل مثقف أن يسهم فيها برأيه وتحليله.

ولا أتصور أحدا من الذين تحدثوا عن الثقافة، قد جاء بالقول الفصل الذي لا معقب له في أمرها. وما ذلك إلا لان الثقافة معقدة كالانسان. فهي تستعصى على التحديد النهائي، فهي سلوك الانسان المثقف، والانسان كما تقول الحكمة القديمة هو الكون الصغير، ففي هذا الانسان كل ما في الكون مما ندركه ومما لا ندركه، ومما يقاس ويوزن ويعين، وما يستعصي على كل مقياس وتعين، فلا يقع في التقدير وإن رجح في ميزان التفكير.

ولتناولي موضوع الثقافة في أكثر من مناسبة إلحاح مستمر على توضيح

الفعالية الثقافية في الحفاظ على انسانية الانسان، في عصر أصبحت هذه الانسانية مهددة بالمخاطر الناجمة عن اختلال التوازن الأخلاقي واختلال مقاييس التفكير.

لقد كنا بالأمس القريب نعتقد أن التعلم، وتحصيل العلوم هما الكفيلان باخراجنا من التخلف، وإلحاقنا بركب الحضارة المعاصرة. وها نحن نرى اليوم أن المشكلات الناتجة عن التعلم، وعن اصطناع العلم هي أكبر بكثير من المشكلات التي كانت ناجمة عن الجهل. وها نحن نرى اليوم أن مشكلات الحضارة هي أعمق بكثير من مشكلات التخلف عن هذه الحضارة. ولا أقصد بذلك التسوية بين الحالين، حال الجهل وحال العلم. أو حالي التقدم والتخلف.

وإنما أقصد فقط الى أن توقع الأزمات والمخاطر التي قد تعصف بسلام الانسانيه وتعرضها للدمار هي في أحوال التقدم المختل والتعلم اللاأخلاقي أمر شبه محقق. فضلا عما جاءت به التكنولوجيا الاعلامية والتقدم التكنولوجي من مخاطر تتمثل في كون الدول النامية تتعرض لغزو ثقافي وتلوين فكري له ما له، وعليه ما عليه، ذلك أن عددا من دول العالم المتقدم لا تتجاوز عد أصابع اليدين تتحكم في كل دول العالم، وتغرقها في تيار إعلامي وثقافي يتدفق عليها من كل مكان، حتى من الأقمار الصناعية، فيجعلها مستهلكة لا منتجة، مقلدة لا مبدعة. بل يجعلها أكثر من ذلك عديمة القدرة على الحوار، فما يرد عليها من آراء وأفكار مفروض عليها وليس بمعروض. ومن ثم أصبح الالحاح على إيجاد هوية ثقافية لكل بلد ينتمي لغير العالم (المتقدم) أو (المصنع) خطة استراتيجية لا تتعلق فقط بمطلب كمالي، وإنما تتعلق بمطلب أساسي هو الحفاظ على الاستقلال والسيادة والقدرة على امتلاك حق القرار في كل مواجهة لها مع القوى الكبرى.

علينا أن نتناول الموضوع إذن من منطلق قومي أو وطني وفي ضوء المعركة التي يخوضها مجتمعنا في سبيل تنميته وازدهاره.

يخوض مجتمعنا منذ ثلث قرن، أي منذ استرداد الاستقلال السياسي (1956)، يخوض معركة بناء هذا الاستقلال على أسس سياسية واقتصادية وحضارية راسخة. وبناء هذا الاستقلال لا يعني سوى إعادة بناء الشخصية الوطنية لتحتل مكانتها في المجتمع الدولي والاسرة الانسانية بما يناسب موقعها وتاريخها وأصالتها.

إن بناء الاستقلال أو بناء الشخصية الوطنية لا يتم أي منهما في فضاء كما تشيد بناية في فراغ. لا تحتاج في ذلك إلا التخطيط والانجاز، وإنما يكون بناء الاستقلال بمثابة تحد لكل المعوقات والعوامل المعاكسة والمؤامرات الموجهة ضد التوجه الوطني، منها ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي. ولذلك قلنا عن هذا البناء إنه معركة يخوضها المغرب منذ استقلاله السياسي. بل إننا لنعلم جميعا أن هذه المعركة تعتبر من أضرى المعارك التي خاضها شعبنا في يوم من الأيام لتحقيق سيادته ووحدته واستقلاله. وليست المؤامرة ضد وحدة المغرب ببعيدة عنا، فمنذ قيام المغرب بإنجاز المسيرة الخضراء بقيادة ملكه جلالة الحسن الثاني، وهو يخوض معارك حاسمة مع خصومه الالداء، سواء في الميدان العسكري أو في الميادين الدبلوماسية، برغم تشبثها منذ الخطوة الاولى بالمشروعية والتحكيم الدولي، والجنوح إلى السلم، والدخول في الحوار كلما فتحت أمامنا أبواب الحوار.

إن تحقيق الوحدة الترابية في امتداد الجنوب كلفته الكثير من التضحيات وعرقلة مشاريع الانماء الاجتماعي، مما كان في غنى عنه لو كانت عملية البناء لا تتطلب غير التخطيط والانجاز.

إن بناء مجتمعنا على أسس راسخة يعني بناء هذا المجتمع على قواعد الديمقراطية والوحدة الوطنية والاستقلال الشامل والتنمية الحضارية والعدالة

الاجتماعية. وهذه أسس لا يتم ترسيخها بسهولة، فهي لا تتطلب كما قلنا مجرد التخطيط والانجاز للمخطط، أي أنها ليست مشروعا ينقل من الورق الى الممارسة كما يفعل المهندس المعماري. وإنما هي عبارة عن تاريخ إنساني يخلق خلقا، ويتطلب تعبئة إنسانية شاملة، ينصهر فيها عمل كل مواطن ضمن مسيرة إنمائية نستشعر فيها الاخلاص والنزاهة والعدالة، ونبذل فيها جميعا أقصى ما يمكن من الجهد والتضحية لبناء مغرب قوي عتيد، يستعيد وجوده الحضاري المتميز وشخصيته الوطنية المتألقة.

إن التحديات التي واجهها المغرب منذ استقلاله جعلت من بناء هذا الاستقلال كما قلت معركة، ليس هناك مغربي أولى من تقدير أبعادها ومخاطرها من قائد هذه الأمة جلالة الملك حين قال في كتابه التحدي بعد استعراضه للتحدي الناجم عن استرداد الصحراء :

'' إن هذا التحدي هو حلقة من سلسلة تحديات واجهها المغرب ومنكه منذ عشرين سنة، أي بمجرد أن استعدنا استقلالنا.

لقد كانت تحديات للجهل وللبؤس وللمجاعة ولعدم التطور ولمساكن القصدير كما كانت تحديات للزلازل والامراض وتحديات لعراقل الاستعمار وللصراع السياسي العقيم وللديماغوجية بمختلف صورها وللظلم الطبقي ولاطماع الاغنياء الجدد، وتحديات للفوضى وللظلم الاجتماعي، كما كانت تحديات للمادية الحيوانية التي تسحق الانسان وتضعه في مستوى آلة للانتاج، وللحماقة وللكراهية وللغيرة، وللأثرة والضغينة، وتحديات في النهاية للحرب، ولكل أنواع الحروب.'' (التحدي 310/309)

في هذه الفقرة الجامعة نكر مظاهر التحدي التي تواجه المغرب الناهض تتحدد للناظر فيها طبيعة الوسائل التي عليه أن نجابه بها تلك التحديات. فليست

التحديات من طبيعة واحدة، ولا من مستوى واحد، ولا من مصدر واحد، حتى تكون وسائل المواجهة واحدة. وانما هي تحديات متعددة المصادر والاهداف والمستويات.

ولكن العنصر المشترك بينها جميعا في النهاية هو الانسان المغربي. وإن التفكير والتخطيط لجعل هذا الانسان قادرا على التحدي، وقابلا للتعبئة في تحقيق التحدي، ومسهما عن طواعية وتلقائية في تحقيق ما يراد منه في المعركة الحاسمة التي نخوضها ضد التخلف ومظاهر الفساد والانحطاط، إن التفكير والتخطيط لجعل الانسان المغربي في هذا السياق البناء والحركة البناءة ليقوداننا حتما إلى المشروع الثقافي وإلى استثمار الثقافة الوطنية الاسلامية لانها وحدها تضع أصابعنا على حوافز الانسان الذاتية، ونوازعه الشخصية، لتوجهها وتوجهه من خلالها كيف تشاء. إنه وحده يعني إتيان البيوت من أبوابها.

نعم، يعتبر بعض المتخصصين في العلوم المادية والعضوية، مثل عامة الاقتصاديين والمهندسين، أن الثقافة نشاط ترفيهي وفني وفكري تمارسه (الجماعة) في فترات الراحة والاستجمام بعد عناء الكد في ميادين الصناعة والتجارة والزراعة والادارة. مثل زيارة متحف أو حضور أمسية موسيقية، أو ندوة ثقافية أو مشاهدة مسرحية أو مطالعة كتاب أو الدخول في حوار ميتافيزيقي. فالثقافة في ضوء تصور هؤلاء نشاط إبداعي واستهلاكي لا حساب له في تخاطيط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ولا في مشاريع الحكومات الهادفة دوما إلى استثمار الجهد الانساني في ميادين الاقتصاد والتنظيم. وهذا التصور يعتبر التقدم الاجتماعي أو النمو الاجتماعي رهينا برفع حجم الانتاج وطاقة الاستهلاك، أو تخفيض الفائض في ميزان المدفوعات وتحقيق التوازن في ميزان المبادلات.

إن هذه النظرة المادية إلى تنمية المجتمع تغفل من حسابها كون الانسان

هو العامل الأساسي في هذه التنمية من ناحية. وتغفل من حسابها أن تنمية الانسان ماديا ربما تحققت على حساب نواح أخرى يعود تجاهلها بالضرر البالغ على التنمية المادية نفسها، من ناحية أخرى. وها نحن نرى المثال لهذا الاختلال في الغرب الذي يشكو مفكروه من المصير البائس الذي انتهى إليه المجتمع الغربي وهو في ذروة قوته وازدهاره المادي. فالواقع الغربي اليوم تتفجر فيه مؤشرات التدهور كانتشار المخدرات والعنف وفقدان الحرية، والارهاق، وانعدام الطمأنينة إلى الحياة (1) وهكذا نعثر على عشرات الادانات التي يحملها مفكرو الغرب للمصير الحضاري الغربي مما نجده في كتب ودراسات أُلفت لهذا الغرض.

لنعد إلى النظرة المتوازنة إلى الانسان باعتباره كائنا ماديا وروحيا، وباعتبار أن السعي لتنمية حياته وازدهارها يجب أن يكون متكاملا بين حياته المادية وحياته الروحية. فسنجد أن الثقافة هي الفعالية المنسقة لهذا التكامل والمحققة لذلك التوازن.

وربما كان من المناسب هنا أن أرفع التباسا أو خلطا بين مفهومي العلم، والثقافة. فإنهما وإن كانا متكاملين، بحيث لا يحصل أي منهما من غير حصول الآخر، إلا أنهما متمايزان. والخلط الذي يقع بينهما يوقع في كثير من الأخطاء والمغالطات.

وقبل المقارنة بين المفهومين يحسن بنا أن نكون فكرة دقيقة عن كل منهما.

أما العلم أو العلوم ـــ وهذا لفظ أنسب ـــ فهي المعرفة المنظمة للظواهر الطبيعية معرفة تمكننا من التنبؤ بحوادثها المتعاقبة. وغاية العلم هي استخلاص

---

(1) يمكن الوقوف على تحليل هذه العناصر عند ألبرت شفايتزر. (فلسفة الحضارة) تعريب ع / بدوي ص 20 / 33.

القوانين العامة التي تعني أنه في ظروف معينة تحدث أشياء معينة، ولا خلاف في هذه الغاية ولا في المنهج العلمي بين الناس.

أما الثقافة فأمرها مختلف عن العلوم، والناس لذلك مختلفون في تحديدها بمواقع النظر إليها، لأن هذه الثقافة ملتبسة عندهم بالأهواء والمصالح والغايات المادية والروحية. ولا أدل على مدى الاختلاف فيها من أن المختصين في الثقافة يصلون في تعريفها إلى ما يناهز مئة تعريف. ومعنى ذلك أن هؤلاء جميعا نظرات مختلفة المواقع والمناهج والبواعث فمئة تعريف للثقافة تعني بداهة مئة منظور إليها. ومن المناسب حينئذ أن نعرف بعض المنظورات الأساسية التي نظر منها إلى الثقافة.

نظر إلى الثقافة من موقع اعتبارها سلوكا اجتماعيا مشتركا بين أفراد المجتمع كاللغة والطقوس، وهو منظور علماء الانثروبولوجيا. فهؤلاء يعتبرون الثقافة هي مجموعة الانساق التي يبدعها المجتمع ويحترمها ويقيم علاقاته على أساسها كالتقاليد والمؤسسات والعادات وأنماط السلوك المختلفة التي يقرها المجتمع كالعقائد والفولكلور والاساطير فكل ذلك عند هؤلاء ثقافة أو مظاهر ثقافية.

ونظر إلى الثقافة من موقع تحليل فعاليتها، من حيث هي مؤثر مباشر في توجيه الانسان وتحقيق اجتماعيته كما هو منظور علماء الاجتماع.فالثقافة عند هؤلاء فعل وانفعال متكاملان. فهي تارة فعل، من حيث تكون إبداعا فكريا وتنظيمها للحياة الاجتماعية، وهي تارة أخرى انفعال من حيث تتأثر بالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية. والثقافة من هذا المنظور هي علاقة بين الفكر والواقع.

ونظر إلى الثقافة من موقع تقويم الغاية التي تتغياها، والهدف البعيد الذي تسعى لتحقيقه، كما هو منظور علماء الحضارة ورجال الفكر التاريخي. ومن هذا المنظور تصنف الثقافات حسب الغايات العليا التي تنشدها والايديولوجيات التي

تستكن فيه، إذ تكن ثقافة مبدأ وغاية. وفلسفة شاملة تقوم على أساسها. تعبر عنها أو تكتفي بالتعبير الرمزي عنها. ولا تتوافر هذه الفلسفة إلا في الثقافات الشعب التي تنصق من عقائد دينية أو فلسفات كلية.

وهكذا اختلفت مواقع النظر، فاختلفت التصورات، وفي كل موقع تتباين وجهات النظر والتحليل.

فلنحاول أن نقرب مفهوم الثقافة من منظور اعتبارها فعالية، أي سلوكا موجها لتحقيق أهداف عليا.

والفعالية أو الفاعلية مشتقة من الفعل، وهو الحركة الصادرة عن الانسان لتحقيق عمل ما، إراديا أو غير إرادي. وتستخدم هذه الصيغة بمثابة مصدر دال على النشاط الذي يحول به الانسان طاقة من طاقاته الفكرية أو العضلية إلى إنجاز ملموس Activité . أو يطلق على قوة التأثير ومداها لدى الانسان على عالمه الخارجي Efficacité وبهذا المعنى تستخدم الفعالية في علم الديناميكا الحرارية، وتتمثل حينئذ في قدرة آلة معينة على تحويل شحنة من شحنات الطاقة إلى صورة أخرى معينة ومقصودة.

ومن هذا المعنى الديناميكي المادي المحض نقلت الفعالية إلى معنى آخر ينطبق على سلوك الانسان الذي لا يفتأ ينشىء الأشياء والعلاقات التي تمكنه من استغلال الطبيعة لاشباع حاجاته. والمرجع في استغلال الطبيعة وتحويلها لصالح الحياة الانسانية هو الانسان نفسه، بما له من طاقة روحية وعضلية، وفكرية وجسمانية، فإذا تحرك في تناسق مع أفراد نوعه أنشأ التاريخ والحضارة اللذين هما الصياغة الكاملة لحياته الاجتماعية.

وعلى ضوء تحديد فعالية الانسان في إنشاء التاريخ والحضارة، بوضع هذه الفعالية في مستوى الفعل، أو وضعها في مستوى الانفعال، أي بجعل الانسان

منشئا للتاريخ، أو جعله من منشآت التاريخ، في ضوء هذا التحديد يتحدد أيضا دور الثقافة باعتبارها إما فعالية للتغيير وإما فعالية للتكيف مع الواقع. (تغيير الواقع) —

وفي القرآن إشارة بليغة وحاسمة إلى الفعالية الأولى في قوله تعالى : '' إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم '' [الرعد — 12].

كيف تتحول الثقافة من تصورات ومعارف وخبرات وتربية فتصبح فعالية موجهة وهادفة تحرك الفرد والمجتمع تحريكا منتظما وفعالا ومستمرا نحو أهداف ومثل عليا ؟؟

تتحقق الثقافة أي تتجلى ويتم وجودها بأربعة شروط هي على التوالي المعرفة — المبدأ الأخلاقي — النزوع الجمالي — المنطق العلمي.

إن جميع العلوم والمعارف التي يكونها الانسان عن نفسه، وعن بيئته وعن عالمه، سواء اكتسبها بالخبرة أو اكتسبها بالتربية الموجهة أو بهما معا، تفرض عليه أن يكيف سلوكه مع تلك المظاهر المحيطة به لينسجم معها ويستثمرها ويساهم في الحفاظ عليها. وهذا يفرض عليه أن يتحرك في كل علاقاته طبقا لمبدأ أخلاقي، إذ لابد أن يكون قد أدرك معنى الحق، ومعنى الواجب، ومعنى المسؤولية ومعنى الالتزام، وأدرك مصدر كل هذه القيم وحدودها. ولا معنى لمعرفة أو علم بالانسان أو بأي جانب من جوانب علوم الانسان إن لم تقدنا المعرفة أو العلم إلى ضبط علاقاتنا مع أبناء نوعنا ابتداء من الاسرة، وانتهاء بالمجتمع الانساني الكبير. وهنا يتجلى الفرق بين العلم المحض، وبين الثقافة. فالعلم المحض يحدد علاقتنا بالاشياء المادية بمعنى أنه يكون في فكرنا مفاهيم وتصورات عن تلك الاشياء. أما الثقافة فتكون لنا سلوكا أخلاقيا تجاه تلك الاشياء. فالحفاظ على البيئة من التلوث سلوك ثقافي. نابع من معرفتنا بمضار التلوث ومخاطره، ونابع

من إيماننا بأن العالم قد سخر لنا لننتفع منه لا لندمره أو تلوثه، غير أن الثقافة لا تقف عند حد الحفاظ على البيئة من التلوث كقيمة أخلاقية ولكنها تدفعنا إلى تجميل العالم وإعطائه أجمل صوره. في جزئية من جزئياته، أو في كلياته ومظاهره العامة.

فالنزوع الجمالي متمم للتجلي الثقافي، من هنا عناية الثقافة بالفنون التي تربي الذوق وتصقل الاحاسيس، وتنمي نظرة الانسان التواقة إلى تجاوز المنفعة إلى اللذة، لان الجمال من مدركاتنا الفطرية التي لا تحتاج إلى استدلال أو منطق.

والثقافة لا تقف عند حد تحسيسنا بالواجب الاخلاقي، وتحسيسنا بالجمال. ولكنها تدفعنا بعد ذلك كله نحو الحركة في اتجاه تحقيق الخير والحق والجمال، أي تكون لدينا الشعور بهذه القيم، والحافز إلى تحقيقها، والنزوع إلى العمل على جعل سلوكنا مطابقا لمشاعرنا ووعينا.

بهذه الحلقات المتكاملة تتحقق الثقافة بمفهومها الشمولي عبر مراحل متراكبة : مرحلة المعرفة، ثم مرحلة الوعي الاخلاقي، ثم مرحلة الاحساس الجمالي، ثم مرحلة المنطق العملي.

فكل معرفة تقف دون تحقيق هذه الاشواط الثلاثة ليست بثقافة، وإنما هي معرفة عاطلة، تملأ الفكر، ولا تتعداه إلى الوجدان، والسلوك. بل إنها حينئذ تختنق وتتلاشى لانها لا تتعامل مع الواقع، ولا تتغذى منه.

هذه الشروط الثلاثة الأخيرة هي التي تكسب الثقافة الفعالية. لانها تحول العلم إلى حركة هادفة تخدم الحق لانه حق، وتسعى للخير لانه خير، وتنشد الجمال لانه جمال. وبذلك تكون الثقافة مشروعا للتنمية لانها تنمي لدى الانسان الاحساس بواجبه والاحساس بقيم الحق والخير والجمال، وتدفعه إلى التحرك مع

مجتمعه في اتجاه مشترك وحركة مشتركة. لا خلل فيها ولا نشاز.

وإذا عدنا إلى التساؤل الذي طرحناه من قبل. وهو التساؤل عن الفرق بين الثقافة والعلم أمكننا أن نستنتج بسهولة أن العلم أو المعرفة هو جزء من مكونات الثقافة، وأن الثقافة ليست معنى مرادفا للعلم. وإنما هي سلوك عملي يجعل من المعرفة سلما للارتقاء وقدرة على التحكم في الواقع. وبذلك يكون العلم مرحلة من مراحل نشوء الثقافة سواء نظرنا إلى هذه الثقافة كسلوك لدى الفرد، أو نظرنا إليها كمؤسسات اجتماعية ومعطيات حضارية. ذلك أن مفهوم الثقافة ينطوي على معنى تقويم النفس الانسانية وإصلاحها وتسديد خطاها، لانجاز مسؤولية معينة، وذلك كما يتم تثقيف الرمح أي تسويته، لاداء مهمته، كما هو أصل اللفظ العربي. ومن الفعل اشتقوا (الثقف) أي الحاذق المتمكن من التصرف فيما يعلم، السريع إلى الفهم والادراك. ولا يتم ذلك إلا بعلوم تعلم، وخبرات تكتسب، ومناهج تسدد النظر، وتجارب تصهر الفكر وتنمي طاقاته.

والثقافة هي استواء النفس واكتمالها على هذا النحو. فالعلوم إذن داخلة في المشروع الثقافي لكل حضارة. غير أن هذا المشروع لا يتم إلا في الجمع بين المعرفة والسلوك، أو اكتساب المهارة والابداع.

ربما أن السلوك الثقافي يرتبط بالواقع الاجتماعي وبالعوامل المؤسسة له من بيئية وقومية وفلسفة موجهة فإن الثقافة ترتبط في تشكيلها بمقومات لا فكاك منها. وهي التاريخ والقومية والعقيدة. فهذه المقومات تطبع الثقافة وتشكلها وتحدد لها الغايات الاجتماعية والحضارية التي تكرس نفسها لخدمتها أو لاستمرارها.

وبهذا المعنى ترتبط الثقافة بالمبدأ الاخلاقي الذي يكون عقيدة كل أمة، ويحدد لها غاياتها من ناحية. وترتبط بخصوصيات البيئة التي تقدم لها العناصر

التي تشكل لديها الاحساس الجمالي. فاللغة، والمؤسسات الاجتماعية ومصادر الثروة. ووسائل استثمارها، ونظام العلاقات الاجتماعية، كل ذلك يشكل أنساقا من السلوك الاخلاقي والجمالي والعملي.

ذلك ما يميز الثقافة عن العلم أو العلوم أو المعرفة الخالصة، لان هذه العلوم لا ترتبط بتاريخ ولا بقومية ولا بعقيدة، بل إن العلم لا يتحقق على الوجه الاكمل إلا إذا استطاع أن يتحرر من هذه العناصر جميعها فلا يتقيد بأهداف إيديولوجية أو بخدمة مصالح ظرفية أو قومية وطنية.

لماذا ألححنا على هذا التمييز بين العلوم وبين الثقافة ؟

ألححنا على ذلك لان الخلط بين الامرين جعل الكثيرين من العالم الثالث في توجههم نحو تحقيق نهضة اجتماعية وحضارية قومية لبلدانهم، جعلهم يولون ظهورهم لثقافاتهم الوطنية وتاريخها ومقدساتهم بحجة الأخذ بالعلوم الغربية لانهم يعتبرونها مصدر امتلاك القدرة على الرقي والخروج من التخلف. وبما أنهم خلطوا بين العلوم وبين الثقافة فقد دعوا إلى الانفتاح على الثقافات الغربية والتأثر غير المشروط بها وبفلسفاتها ومبادئها الاخلاقية ولو كانت متناقضة مع معتقداتهم.

ولو أمعنوا النظر لرأوا أن في دعوتهم إلى الانصهار في الثقافة الغربية دعوة ضمنية إلى التخلي عن قومياتهم وتراث تاريخهم الوطني، ومقومات شخصياتهم. أي لرأوا أن في دعواتهم هذه دعوة إلى التبعية المطلقة للغرب ليكونوا عالة على الحضارة الغربية متحركين مع أهدافها ومخططاتها.

أما إن استطعنا أن نميز بين العلوم والتكنولوجيا من ناحية وبين الثقافة الغربية من ناحية ثانية، فنصطنع ما نشاء من الاولى، ونتقن منها ما نستطيع، بدون حد نقف عنده، لانها رصيد إنساني مشترك، ثم نحتاط كل الاحتياط في

الاخذ بالثانية، ونميز فيها بين الموافق والمخالف لعقائدنا وشخصيتنا ونتحكم في توجيه تربية أجيالنا على بصيرة لما نأخذ ونترك فسنوفق حينئذ إلى تعميق استقلالنا والحفاظ على هويتنا الثقافية. إن التحدي الاكبر الذي يواجه شعوب العالم الثالث هو — كما سبقت الاشارة في مفتتح هذا الحديث — إيجاد هوية ثقافية متميزة لا لان الثقافة مطلب كمالي يتحقق بواسطتها التقدم الفكري والاستمتاع بالفنون الجميلة وإنجاز الابداعات الحضارية المختلفة. ولكن لان الثقافة خطة استراتيجية دفاعية تمكن المجتمع من الحفاظ على استقلاليته وسيادته وامتلاك حق القرار في توجيه أبنائه والارتفاع إلى الحوار المثمر مع الثقافات الاخرى، بروح المسؤولية والنقد البناء، والابداع والاقتباس لما هو نافع والرفض لما هو ضار.

وبهذه النظرة الواقعية والعلمية إلى الثقافة تكتسب الثقافة الدور المزدوج الذي نريد التأكيد عليه.

وهو دور التنمية الاجتماعية والحضارية، ودور المناعة والتحصين والدفاع عن الهوية الحضارية والقومية. فهي في هذا الدور المزدوج تعمل عمل الدم في الجسم الذي يغذي كل خلية من خلاياه. ويقوم في نفس الوقت بتحقيق المناعة، بخلق ظروف يقاوم بها الجسم الاوبئة والامراض وعوامل الفساد.

تطوان. د. محمد الكتاني

القضية المغربية

في معترك العلاقات الدولية وانعكاساتها الداخلية

من سنة 1904م إلى سنة 1912م

عبد القادر زمامة

لقد ألفنا في الابحاث والدراسات المعمقة في التاريخ القديم والحديث، أن نواجه عدة حقائق وعبر، تكون وليدة الاستقراء والتتبع، ونتيجة الدرس والتحليل، لاسباب الاحداث والوقائع البارزة في تاريخ الدول والشعوب، وعللها المباشرة وغير المباشرة.

ومن أبرز هذه الحقائق والعبر، أن التاريخ بالنسبة للدول والشعوب، في مدها وجزرها، وقوتها وضعفها، ليس في واقع الامر صفحات تنشر وتطوى، وليس خطا تقديريا بين ماض وحاضر ومستقبل فقط، ولكنه ذلك الجسر الطويل الذي تمر به وعليه تجارب الدول والحكومات، ومواقف الافراد والجماعات، واجتهادات المذاهب والآراء، بسلبياتها وايجابياتها، وخيرها وشرها، وخطإ تقع فيه، وصواب تهتدى اليه، لتكتسب من جهة الخبرة والمناعة في سلوكها، ولتستخلص النتائج والعبر فيما تقدم عليه من تصرف وتدبير من جهة أخرى...

والقضية المغربية بالفهوم الذي أعطي لها في معترك العلاقات الدولية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، تمثل تحولا في تاريخ المغرب على الصعيدين الداخلي والخارجي، بسبب ما احاط بها من ملابسات ومواقف، جعلت التدابير والمطامع والمكايد الخارجية تنعكس على الوضع

الداخلي، وتدفع به مكرها الى أزمات ومشاكل لا عهد له بها في التسلسل والتعقيد.. !

فعندما كان المغرب في مسيرته الحضارية والتاريخية يواصل عمله بحزم ويقظة، ويحمي حوزته بالغالي والنفيس، ولا يجد على حدوده : الشرقية والشمالية، براج الغزو ومخططات التسلل والتخريب، لم تكن هناك «قضية مغربية»، وانما كانت هناك علاقات : جوار، واقتصاد وتعامل ومصالح متبادلة محدودة الهدف عبر عدة أحقاب، على الرغم من تلك الضغائن الصليبية التي كانت تكنها بعض الجهات، بسبب اشعاعات المغرب المعروفة في افريقية، ومواقفه التاريخية في الاندلس.. فالعوامل المتعددة والاسباب المتنوعة المتشابكة، جعلت هناك «قضية مغربية» اعطيت لها مفاهيم : سياسية وعسكرية واقتصادية واستراتيجية، والتقت عند هذه المفاهيم، مشاريع ومطامع ومنافسات استعمارية، لدول اوروبية كانت اذ ذاك ترسم سرا وعلنا خريطة توسعية، لنفوذها الاقتصادي والعسكري والسياسي، نتيجة ما تملكه من تقدم علمي وتفوق صناعي وتطور في وسائل المواصلات البرية والبحرية عبر القارات والمحيطات، الشيء الذي حرم منه عدد من الدول في شرق الدنيا وغربها، ومنها المغرب في تلك الحقبة، ولكي نضع هذه القضية في اطارها الحقيقي من معترك العلاقات الدولية في هذه الفترة الزمانية التي نتحدث عنها، ينبغي ان نقترب قليلا من طبيعة هذا المعترك، وما يرتبط به من تقديرات وما يحركه من توازنات معقدة، نتيجة الحروب الاوروبية التي خاضت غمراتها الدول الاوروبية خلال القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر، حيث انهارت مشاريع الدول الكبرى ومخططاتها، من اجل التوسع داخل القارة الاوروبية نفسها، واصبح الاتجاه التوسعي يميل نحو جهات اخرى، ومنها القارة الافريقية، ومن اجل ذلك ظهرت احلاف وتكتلات ومشاريع ومنافسات،

وكان نزول الجيوش الفرنسية في الجزائر سنة **1830** م إيذانا بأن الشمال الأفريقي سيدخل مجبرا مرحلة جديدة من تاريخه، حيث أن السياسة الفرنسية إذ ذاك كانت تتخبط : داخليا، وخارجيا، في عدة مشاكل ـــ بعد حروب نابليون ـــ،وتواجه عدة إخفاقات في مشاريعها الاستعمارية، أفقدتها عدة أسواق، ومراكز، ومستعمرات، كانت تحاول الاحتفاظ بها، والسيطرة عليها، في أعماق البحار الأسيوية، والأميركية، مهما كان الثمن...!

ولكنها وجدت من بريطانيا وأسطولها وسياستها، المنافس القوي الذي يلاحقها ويقاومها، ولمدة طويلة من الزمان، وفي عدة جهات...!

فإقدام شارل العاشر ووزيره بولينياك، على إنزال جيوش الغزو في الشمال الأفريقي، بعد استطلاعات ومساومات مع دول معروفة. كان عملية لها أسباب، وأهداف متنوعة، تتفتح بها آفاق المستقبل...!

ويكفي أن نشير هنا إلى أن من جملة هذه الأهداف الامتداد شرقا، وغربا، من الجزائر، حسب ما تتمخض عنه الأحداث. وما تنتجه الدراسات والأبحاث، وما تتيحه تحرشات الحدود من فرص للتدخل والتهديد والضغط الداخلي والخارجي من أجل تحقيق السيطرة...

وتم الامتداد من الجزائر شرقا سنة 1881، وفرض على تونس نظام الحماية المعروف. وبذلك ضمنت السياسة الفرنسية كسب جزء جديد على شاطىء البحر المتوسط الغربي، وسبقت الدولة الايطالية إلى السيطرة على تونس. وكانت تطلعات ومطامع إيطاليا معروفة في هذا الموضوع. وامتداد السيطرة الفرنسية إلى تونس تحت إسم الحماية لم يمر من ناحية السباق الدولي بدون رد فعل مباشر وسريع...! فإننا نلاحظ إقدام بريطانيا على التدخل في مصر عسكريا سنة 1882 م، أي بعد فرض نظام الحماية على تونس بسنة واحدة. وقد بررت عملها هذا بمبررات سياسية وأستراتيجية معروفة...!

أما الامتداد من الجزائر غربا، فكان مختلفا عن الامتداد منها شرقا، في عدة نواح داخلية وخارجية. ومرتبطا بأبعاد ''القضية المغربية'' في المعترك الدولي. كما كان متوقفا على استكمال المخططات التي ينكب على إعدادها ضباط العسكريون الفرنسيون المهتمون مباشرة بهذا الامتداد.

ولم تدخر الحكومة المغربية — بشهادة الوثائق التاريخية — وسعا منذ نزول الجيوش الفرنسية بالجزائر، في الاحتياط، وتقدير المواقف، ومحاولة استغلال الظروف السياسية الخارجية، ولا سيما منها ما يرجع للتنافس البريطاني الفرنسي. من أجل أن يكف جيرانها في الشمال والشرق عن التحرشات والتسللات والمضايقات.

وقد ألفنا منذ معركة إيسلي 1844 م ومعركة تطوان 1860 م أن نجد بريطانيا في مواقفها السياسية من القضية المغربية، تحاول أن تخفف من الضغوط التي يتعرض لها المغرب من طرف اسبانيا وفرنسا... !

وذلك لأن بريطانيا — بعد احتلال جبل طارق — في نطاق سيطرتها على المضايق البحرية، كانت لا تريد أن ترى دولة استعمارية قوية تتحكم في الشاطىء المقابل لجبل طارق، في التراب المغربي...!

وبرزت القضية المغربية في معترك السياسة الدولية عندما أصبحت مشكلة الامتيازات الأجنبية والحمايات القنصلية، مصدر مضايقة وإحراج للحكومة المغربية.

وانعقد من أجلها مؤتمر مدريد 1880 م، ولكن هذا المؤتمر كان مناسبة لتثبيت هذه الامتيازات وتوسيع دائرتها. والسماح بها لدول تطلبها... !

وظهر أثناء هذا المؤتمر وبعده أن الدول الأوروبية التي تستفيد من هذه الامتيازات بشكل موسع هي : بريطانيا وفرنسا، وإسبانيا، ثم ألمانيا. واستفادة هذه الدول

تتجلى في دورها التجارية، وما لها من قناصل، ووكلاء، ومحميين، في عدة نواح من المغرب...

أما الدول الأخرى فكانت استفادتها محدودة. ومن أجل ذلك كان حضورها في هذا المؤتمر من أجل الاطلاع والمعرفة وتتبع خطوات السياسة الدولية واتجاهاتها في الميادين المختلفة من أجل نيل مكاسب. أو استغلال فرص.

ورغم كل الضغوط والإحراجات. فقد ظلت الحكومة المغربية في وضع متمكن من السيطرة على زمام السياسة الداخلية والتوازن في السياسة الخارجية. والعلاقات مع الدول الأجنبية، وبذلك فوتت على المتربصين بها عدة فرص...

الا أنه بدا منذ نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين أن الجيش الفرنسي أخذ يتقدم في الحدود الشرقية والجنوبية، وتم له سنة **1900** م الاستيلاء على منطقة الواحات : توات وما حولها...

وأثر ذلك على الوضع الداخلي، وانتشر التذمر في البوادي والحواضر، وصادف الحال أن الحكومة المغربية كانت تعاني مصاعب متنوعة بسبب الحصار المضروب حولها... !

أما المعترك الدولي فكان يميل تدريجيا في بداية هذا القرن إلى أنواع من المساومات، وتبادل المصالح بين الدول الاستعمارية، وتهيء الأجواء لاقتسام مناطق النفوذ. وكانت القضية المغربية إلى جانب القضية المصرية، والقضية الشرقية، في هذا المعترك ترفعها رافعة... وتخفضها خافضة...!!

وجاءت ظروف الاتفاق الودي الفرنسي البريطاني لسنة **1904** م وما سبقه من مساومات وترضيات بين فرنسا وإسبانيا... وكأنه قمة التجارب، والمنافسات،

والصراعات السرية والعلنية، بين ساسة لندن وباريز، لا سيما وقد زار الملك إدوارد السابع العاصمة الفرنسية سنة 1903 م في نطاق إعداد هذا الاتفاق...!

حيث أن بريطانيا في وجودها العسكري، والسياسي، بالبلاد المصرية منذ سنة 1882 م، كانت تشعر أنها لا تعتمد على مشروعية قانونية. أو دولية. وإنما تعتمد — بعد سياسة الأمر الواقع — على تأييد دول الحلف الثلاثي الذي كانت تتزعمه ألمانيا اذ ذاك... والحلف يضم النامسا. وايطاليا. وألمانيا... كما هو معلوم... فالاتفاق الودي سيجعل بريطانيا متحررة من المنافسة الفرنسية في مصر. كما أنه سيجعل فرنسا متحررة من الموقف البريطاني المعهود، منذ معركة ايسلي سنة 1844 م... ازاء القضية المغربية. مع احتفاظها بما لها من مصالح اقتصادية وسياسية...

لكن واقع هذا الاتفاق، وظروفه، وأهدافه، التي كان يرمي اليها على مسرح السياسة الدولية، يتجاوز نطاق القضيتين : المصرية والمغربية. ويرسم الطريق أمام قضايا أخرى تتحد فيها مصالح الدولتين...

وليس من هدفنا هنا أن نستعرض ذلك، وقد فصلته كتب التاريخ. وربطته بالسياسة التي كان ينهجها كل من وزير خارجية فرنسا اذ ذاك : دلكاسي ونظيره: لورد لانسدون وزير خارجية ابريطانيا... في كبح جماح ألمانيا. والحد من نشاطها السياسي والاقتصادي. وسباقها العسكري. والبحري...

ولقد أظهرت الأحداث المتتابعة أن الاتفاق الودي بين بريطانيا وفرنسا سنة 1904 م كان من الاتفاقات المؤثرة في تحول السياسة الدولية. وتغيير خريطة التكتلات الأروبية... كما أنه جعل فرنسا تعتمد على تأييد بريطانيا في عدة مواقف من القضية المغربية، ابتداء من مؤتمر الجزيرة 1906 م إلى أزمة أكادير1911 م.

إلى ظروف عقد الحماية 1912 م...

وأخيرا جعلها تطمئن الى الترضيات التي قدمتها الى دولة اسبانيا سرا وعلنا قبل الاتفاق الودي وبعده... لتتمكن من تنفيذ سياستها في المغرب على مراحل...

ولاشك أن الاتفاق الودي أثار غضب الحكومة الألمانية ومخاوف المؤسسات التجارية والمصارف المالية بها، التي كانت في سباق مع الزمان، جادة في توسيع مشاريعها الاقتصادية بالمغرب. وإغراق الأسواق بأنواع من البضائع الاستهلاكية...

وهنا ينبغي ألا نغفل — في باب الاستفادة من المصادر المتنوعة — ما كتبه: غليوم الثاني في مذكراته السياسية عن الوقع الذي كان للاتفاق الودي في ألمانيا، على الحكومة الألمانية، ومن ورائها الشركات والمؤسسات. وكيف طلب منه بإلحاح. أن يزور طنجة في رحلته البحرية التي زار خلالها موانىء البحر المتوسط ثم لشبونة عاصمة دولة البرتغال سنة 1905 م.

وكان غليوم الثاني يدرك دقة الموقف السياسي، ويقدر ما سيعطي لهذه الزيارة من تفسير، ولا سيما من طرف دلكاسي. فكان يفضل ألا يقوم بها لولا إلحاح حكومته، قبل الرحلة وأثناءها كما يقول في مذكراته...

ورغم أن تصريحات غليوم في طنجة. كانت محدودة الهدف :

— سيادة السلطان واستقلاله...
— المنافسة التجارية الحرة بين الدول...
— حماية المصالح التجارية للمؤسسات الألمانية...

فان الأجهزة المعادية لألمانيا أقامت الدنيا وأقعدتها، من أجل هذه الزيارة. واعتبرت

تصريحات غليوم انذاراالفرنسا. وبدأت تتكهن بظهور سحب الحرب في أوربا...

ويقول غليوم في مذكراته : انه لاحظ أثناء نزوله بجبل طارق ــ بعد زيارة طنجة ــ فتور الاستقبال، وبرودة المعاملة، التي عومل بها من طرف المسؤولين البريطانيين هناك...!

وما لبثت أزمة طنجة أن انقشعت بعدة تدخلات. كانت تهدف إلى إبعاد شبح الحرب. ومحاولة عقد مؤتمر جديد حول القضية المغربية، يكون مناسبة لتدلى فيه الدول بوجهات نظرها. وما ترتئيه من حلول للمشاكل القائمة... وتمهيدا لذلك كان لزاما على حكومة باريز، أن تبعد دلكاسي عن تسيير دفة السياسة الفرنسية في وزارة الخارجية... !!

ولا ينبغي أن نساير القضية المغربية في المعترك الدولي دون أن نشير الى معطيات الوضع الخاص. الذي قام في المغرب بعد تقدم الجيوش الفرنسية في منطقة الواحات الشرقية : توات. وما اليها. والتحرشات على الحدود. التي أدت الى سيطرة الجيوش الفرنسية على مساحات شاسعة من التراب المغربي. وذلك منذ سنة 1900 م...

وإلى حركة التمرد التي كانت تعمل بامدادات وتوجيهات تتلقاها من وراء الحدود. لتنشر الفتنة، والرعب، وتشغل الحكومة المغربية، وتستنزف الخزينة. وتمهد لفرض التدخل الأجنبي، وتنفيذ مخططاته الجاهزة.

وكان على رأس هؤلاء الفتان (بو حمارة) الذي قاد أخطر عمليات التمرد والتخريب، ضد الحكومة المغربية من سنة 1902 م إلى سنة 1909 م في تازة وناحيتها. ووجدة وناحيتها، وجهات من الريف. واستغلت أخبار تمرده على نطاق واسع ضد المغرب.

واستغلت السياسة الفرنسية الظروف والأزمات التي كان المغرب يتخبط فيها. والتي صورنا بعضها. واعتمدت على معطيات الاتفاق الودي بينها وبين بريطانيا ومعطيات الاتفاق الذي كان بينها وبين اسبانيا. وصارت تقدم اقتراحات ومشاريع. وتوفد البعثات السياسية الى البلاط المغربي للاتصال والدرس والمناقشة ورسم آفاق المستقبل: مستعملة أساليب اللين والشدة مستغلة عناصر الضغط. ملوحة بمتابعة سياسة القروض والمساعدات في الميادين العسكرية والمالية وما الى ذلك مما هو مسطر في نصوص هذه المشاريع...

والحقيقة التاريخية التي ينبغي ان نقف عندها بتأمل وموضوعية. هي أن الحكومة المغربية ـــ رغم ما قيل وما كتب عنها ـــ كانت تدرك وتعي الأخطار المحدقة بالبلاد. وتحاول بامكانياتها أن تجد منفذا لفك الحصار المضروب حولها. وجاء الوقت الذي لمست فيه داخليا وخارجيا التآمر على استقلال المغرب بكيفية سافرة...

ولهذا كان لزاما عليها أن تشرك رجال الرأي والمعرفة من أعيان الأمة المغربية على اختلاف حيثياتهم ـــ في دراسة عدد من الاقتراحات والمشاريع والقضايا التي تتقدم بها البعثات الفرنسية، ليكون موقفها مدعما بسند قوى. وهذا ما كان فعلا عندما رفضت المشاريع الفرنسية بعد دراسة ومناقشة اشترك فيها عدد من شخصيات المغرب...

في هذه الأجواء الداخلية والخارجية انعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة **1906** م بعد مشاورات واتصالات ومساومات في شأن جدول الأعمال. ومكان الاجتماع.

وكان المبدأ الذي قامت حوله الدعوة الى هذا المؤتمر هو : ان مؤتمر مدريد سنة سنة **1906**م.

1880 م لا تسمح مقرراته بخرق التوازن، واستبداد، بعض الدول بالاستفادة في المغرب من مصالح خاصة بها تفرضها بالقوة والضغط على الحكومة المغربية...

ولكن جلسات المؤتمر شاهدت مناقشات متواصلة بين نواب فرنسا وألمانيا من أجل المكتسبات التي تريد كل منهما التمتع بها في المغرب...

ووجد الوفد المغربي نفسه أمام دول تدافع عن مصالحها، ومكتسباتها. أما القضية المغربية، وما يعانيه المغرب من محن، وأزمات واعتداءات، وتآمر على سيادته ووحدة ترابه، فشيء ثانوي بالنسبة لمصالحها...

كما وجد الوفد الألماني ـــ الذي كان لا تهمه الا مصالح ألمانيا الاقتصادية والسياسية ـــ أن كفة التضامن والتنسيق بين ابريطانيا واسبانيا وفرنسا من جهة، وبين الدول الاخرى ـــ عدا ألمانيا ـــ راجحة...

وانتهى المؤتمر بالمصادقة على ميثاق دولي يعرف بميثاق الجزيرة الخضراء يشتمل على 123 من المواد. مع ديباجة سياسية عامة تؤكد :

ـــ سيادة المغرب...

ـــ ووحدة ترابه...

ـــ والحرية الاقتصادية دون تمييز بين الدول.

أما مواد الميثاق فتشمل : البوليس، والبنك، والضرائب،ومراقبة تهريب السلاح، والبضائع، والاشغال العامة،وتنظيم الجمارك، وما الى ذلك...

وقد أخذت فرنسا واسبانيا ـــ بحكم الجوار ـــ من هذه المشاريع والتنظيمات الحظ الأوفر. للتعاون مع المغرب على إنجازها، من أجل المحافظة على الأمن وازدهار الحياة الاقتصادية بالبلاد...

أما جوهر القضية المغربية، وما يلاحق المغرب من ضغوط عسكرية واقتصادية وتسللات الى حدوده الشرقية والشمالية والجنوبية فلم يقع الحديث عنه في هذا المؤتمر الذي كان مؤتمر مصالح الآخرين... !

ورغم ذلك فان هذا المؤتمر اعطى صبغة دولية للقضية المغربية جعلت فرنسا في سياستها وخطتها المبيتة الرامية الى السيطرة على المغرب ترى أن هناك أشواطا اخرى، ما زالت تنتظرها، رغم المجهودات التي بذلها ضباطها العسكريون في الجزائر... وسفارتها في طنجة... ووزارتها الخارجية في باريز... حيث كانت الضغوط العسكرية تساند المواقف الديبلوماسية... والمشاريع الاقتصادية في خدمة التوجيهات السياسية... !!

وكما كانت أنباء اعلان الاتفاق الودي بين فرنسا وابريطانيا سنة **1904** صدمة للمهتمين بالقضية المغربية في الداخل والخارج... كانت أنباء اعلان مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء، صدمة أخرى لهم، حيث لمسوا أن التلويح بتدخل بعض الدول الكبرى، لصالح القضية المغربية، انما كان في واقع الأمر عملية مساومة، من أجل الوصول الى ترضيات... واستخلاص أكثر ما يمكن من المنافع والمصالح في المجالات الدولية المختلفة...

وأصبحت الحكومة المغربية بعد مقررات الجزيرة الخضراء مقيدة بقيود جديدة، زادت في إحراجها والتضييق على تصرفاتها، بسبب التدخلات المتعددة في سائر مصالحها، ومرافقها... ولم يكن بإمكانها ان تختار أي بديل...!

وهكذا عجل مؤتمر الجزيرة الخضراء بانفجار الأحداث وتبلبل الأفكار، واختلاط الأوراق، وظهور سماسرة الفتن في أنحاء مختلفة من البلاد... وانتشار الإشاعات والحرب النفسية...

واستفادت كل من فرنسا واسبانيا من هذا الوضع الذي هيأ لهما عدة فرص للتدخل، من أجل تنفيذ المخططات السرية بينهما،لاسيما وقد مكنهما مؤتمر الجزيرة الخضراء من عدة مستندات تبرر عملهما حسب تفسيرهما...

وكان حادث مقتل الطبيب موشان بمراكش، مبررا لتتحرك الجيوش الفرنسية نحو مدينة وجدة وتحتلها... وتقدم للحكومة المغربية مطالب متعددة. بعضها في غاية الاحراج...

كما أن حوادث البيضاء والشاوية كانت مبررا لتتحرك سفينة حربية فرنسية. تساعدها سفينة اسبانية، نحو هذه المدينة.

وتصليانها من مدافعهما نارا حامية..ويقوم جنودهما باحتلالها، بعد معارك ضارية ومقاومة عنيفة، بذل فيها المغاربة أرواحهم دفاعا عن وطنهم وحريتهم، ووحدة ترابهم... ولم يكتف الجنود باحتلال المدينة، بل احتلوا المناطق المجاورة لها. وبذلك جعلت فرنسا — منذ سنة 1907 م — المهتمين بالقضية المغربية أمام الأمر الواقع ...! تشاركها في ذلك اسبانيا ..! رغم ما قيل من أن هذا احتلال تأديبي مؤقت ...!

ولم تمر على هذه الفاجعة إلاّ أيام قلائل حتى تم اعلان بيعة السلطان المولى عبد الحفيظ بمراكش. وبذلك ارتبطت حلقات الأحداث التي فجرها التذمر من مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء...

وأصبحت قضية الاعتراف والتعامل مع الوضع الجديد في المغرب،قضية داخلة في نطاق المعترك الدولي والمساومات وتبادل المصالح...

وأهم نقطة في هذا الموضوع هي أن الدول التي يعنيها الأمر بصفة مباشرة، والتي خرجت من مؤتمر الجزيرة الخضراء بمكاسب جديدة، تكتلت، وربطت قضية الإعتراف بالوضع الجديد، بقضية أخرى...

وهي : أن يعترف السلطان الجديد اعترافا رسميا بجميع المعاهدات، والالتزامات، والاتفاقات، التي كان سلفه قد اعترف بها والتزم العمل بها ...!

وبذلك زادت الاوضاع الداخلية تأزما لأن ممثلي الرأي العام المغربي في المدن، والقبائل، كانوا يعلقون أكبر الآمال على إلغاء كل اتفاق فرض بالقوة، والضغط السياسي والعسكري. ومن أجل ذلك أيدوا الوضع الجديد وحصل تناقض أساسي بين الرغبات الوطنية وبين المصالح التي تفرضها الدول المستفيدة من الأزمة المغربية...وذلك من أول يوم...!

ومرت شهور. وجرت أحداث. لا مجال لتفصيلها الآن... والسياسة الدولية، أي سياسة الدول المهتمة بالقضية المغربية، في مد وجزر، واختلاف واتفاق، ومساومات، من أجل استكمال الضغط على المغرب، لكيلا يجد الوضع الجديد السبيل إلى تسهيل أهدافه، والسيطرة على مجرى الأحداث المنفجرة، ومشاريع، التسلل التي يقودها الجيش الاسباني في الشمال، والجيش الفرنسي في الشرق والغرب والجنوب...

وهكذا وجد الوضع الجديد نفسه. وبعد تحقيق بعض الأهداف الوطنية ومنها القضاء على فتنة (بو حمارة) ... أمام مخطط فرنسي اسباني لتقسيم مناطق النفوذ في البلاد... وأن الاعتراف الدولي به الذي لم يتم إلا أواخر سنة **1908** م لن يزيده إلا احراجا وتأزما ومسؤولية...

وكانت العلاقات الألمانية الفرنسية قد دخلت في هذا الظرف مرحلة جديدة من التعامل في مجالات اقتصادية وسياسية،وعقدت بينهما اتفاقات تؤكد المصالح الفرنسية،وتضمن لألمانيا حق المعاملات التجارية في الأسواق المغربية. وبذلك وجد السياسيون والعسكريون الفرنسيون المجال واسعا،والظرف مناسبا،للدخول

بالقضية المغربية في مرحلة اخرى. لاسيما والحكومة المغربية أصبحت في وضع حرج بسبب بركان المشاغبات والفتن،وتعدد المشاكل والاشاعات والتحركات، الرامية الى تنفيذ المؤامرات المحبوكة واحتلال أجزاء من البلاد. ووصول العلاقات الدولية في القضية المغربية الى مرحلة انكشاف الحقيقة في الداخل والخارج...!

فالاتفاق الفرنسي الألماني سنة 1909 م كان في نظر السياسيين والعسكريين الفرنسيين ذريعة لفرض الحلول المقترحة من طرفهم في قضية وجدة، والدار البيضاء، على الوضع الجديد ... وفرض القروض الفرنسية على المغرب لتموين المشروعات وأداء التعويضات الحربية...

وهذا ما تم فعلا سنة 1910 م عند عقد الاتفاق المغربي الفرنسي حول قضيتي : وجدة والدار البيضاء. حيث فرض المفاوضون الفرنسيون على المغرب التزامات مالية لا طاقة له بها، مما زاد في متاعبه، وكلف الخزينة المغربية أعباء جساما...

كما عقد المغرب في نفس السنة اتفاقا مع اسبانيا لحل بعض المشاكل القائمة في الشمال،ومشكلة التعويضات التي تطالب بها اسبانيا لأنها كانت شريكة فرنسا في معركة الدار البيضاء سنة 1907 م.

وشاهد المعترك الدولي الأوربي سنة 1911 م بوادر الانفجارات والمواجهات بين دول الأحلاف. حيث أن المشاكل البلقانية المتعددة الأطراف، والقضية الشرقية المتعددة الجهات، إلى جانب محاولة تنفيذ المخططات التوسعية للدول الكبرى، كل ذلك، جعل سباقا محموما يخيم على العلاقات الدولية. كما جعل كل حلف يقدر وقع خطواته التي يخطوها نحو الحرب، وسوابقها، ونتائجها، وما ينتظره من مكاسبها...

وانعكس بعض هذا على القضية المغربية في المعترك الدولي. والوضع الداخلي

المتأزم. حيث أن السياسة الفرنسية اذ ذاك كانت تعمل في واجهتين اثنتين :

ـــ واجهة الاعداد العسكري والديبلوماسي للحرب ومحو آثار هزيمة **1870** م.

ـــ وواجهة تنفيذ المخططات العلنية والسرية في المغرب قبل اندلاع نار الحرب العالمية ...!

وكان الوضع الداخلي في المغرب يعاني هذه السنة مشاكل الفتن والتمردات التي شبت بكيفية خاصة في ناحيتي : مكناس وفاس. وقد وصل الأمر الى حصار مضروب حول العاصمة المغربية اذ ذاك عدة شهور...!

واعطيت عدة تفسيرات وتحليلات لأسباب هذه الفتن وهذه التمردات وأهدافها، والجهة المستفيدة منها، وما كان يعنيه توقيتها بظروف معينة مما لا داعي لتفصيله الآن...!

وأدى الأمر في الأخير وتحت ظروف قاسية الى استدعاء تدخل الجيش الفرنسي المرابط في الشاوية لفك الحصار، وتم ذلك في **21** ماي **1911** م.

وكان دخول هذا الجيش للعاصمة المغربية ذريعة لتقوم الجيوش الاسبانية بتحرك سريع نحو مدينتي : العرائش والقصر الكبير...! وذلك بطبيعة الحال في نطاق تنفيذ مخطط بين الدولتين...!

وأصبح هذا حافزا لألمانيا ـــ في الوضع الدولي الذي أشرنا اليه ـــ لترسل باخرة حربية الى ثغر اكادير. بدعوى حماية مظاهر الوضع الدولي المحموم...

ويظهر ان هذا الموقف الجديد الذي اتخذته ألمانيا ازاء دخول الجيش الفرنسي لعاصمة المغرب إذ داك، إنما كان في حقيقة الأمر يهدف إلى اختبار فعالية واستمرار بنود الميثاق الودي بين فرنسا وابريطانيا الموقع سنة **1904**م.. اذا

ظهرت بوادر الدخول في نزاع مسلح بين ألمانيا وفرنسا.

وهذا ما كان فعلا. فإن الموقف البريطاني في حادثة أكادير،تميز بالفورية والصلابة، وبدا واضحا لساسة برلين أن بريطانيا ستقف إزاء حليفتها فرنسا عسكريا ودبلوماسيا. وهذا ما يفيدنا به لورد غراي في مذكراته السياسية، وهو وزير بريطاني عاصر الأحداث وشارك فيها.

وانتهت الأزمة كما معلوم بتوقيع اتفاق ثنائي بين فرنسا وألمانيا في 4 نوفمبر 1911 م. وقد تضمن تسليم ألمانيا نهائيا بوجهة النظر الفرنسية في القضية المغربية، مقابل تعويض في الكونغو...! وبذلك أزاح العسكريون والسياسيون الفرنسيون آخر عائق كان يعوقهم، عن فرض نظام الحماية على الحكومة المغربية لأول مرة في التاريخ.

وليأخذ التوقيع على هذا الاتفاق الثنائي معناه ومغزاه في تلك الظروف، حمل نصه إلى المولى عبد الحفيظ في فاس، ليطلع عليه...

وبإثر ذلك، قدّم إليه مشروع معاهدة الحماية الذي اعده الخبراء السياسيون، والعسكريون، والقانونيون، وفرضته الضغوط العسكرية والسياسية، والمؤامرات الخارجية، والمصالح الاستعمارية المتعددة الأطراف.

وظل هذا المشروع محل درس وانتقاد واستفسار ومناقشة عدة شهور. وكتب المؤرخون والمعلقون والباحثون حول نصه الأصلي وظروف إمضائه في 30 مارس 1912 م الشيء الكثير مما لا يتسع المقام لتفصيله الآن..

وهكذا تملي علينا القضية المغربية في الفترة التي تحدثنا عنها نتائج وعبرا ينبغي ان نستفيد منها في مسيرتنا الحضارية والتاريخية على جسر هذه الحياة..

فاس **عبد القادر زمامه**

مصادر ومراجع :

رجعنا في كتابة هذا البحث الى عدة ابحاث ومقالات ومؤلفات من أهمها:

ـ اتحاف اعلام الناس : عبد الرحمن ابن زيدان الرباط 1930 م

ـ أزمة المغرب الأقصى : روم لا ندو (الترجمة العربية) القاهرة 1961 م

ـ مذكرات لورد غراى : تعريب احمد شكرى القاهرة 1929 م

ـ مذكرات غليوم : تعريب : اسعد داغر. ومحب الدين الخطيب القاهرة 1341هـ

ـ المسألة المغربية : محمد خير فارس القاهرة 1961 م

ع.ز

صُوَر من
النّقد الأدبي في العصر المريني
-1-

رضوان ابن شقرون

عرف العصر المريني في المغرب الأقصى تطورا وازدهارا في مختلف جوانب الحياة الفكرية والأدبية. ولم يكن حظ النقد الأدبي من هذا التطور والازدهار بأقل من حظوظ بقية الجوانب؛ فقد أسهم كثير من العلماء والأدباء في تطوير الدراسات الأدبية والمباحث النقدية أو البلاغية بأوجه متعددة وصور متنوعة، منها :

— تتبع العيوب والنقائص في الأعمال الأدبية.
— المناظرات والخصومات الأدبية.
— الدراسات التحليلية للنصوص والمؤلفات، أو نظمها، أو تلخيصها، أو شرحها، أو وضع الحواشي والتعاليق عليها.
— تأليف الكتب المختصة في الأدب ونقده وفنونه، أو الأدباء وطبقاتهم وأساليبهم، أو البلاغة وفنونها وصناعتها وقواعدها وتجنيس أساليبها.

فأما تتبع العيوب والنقائص في أشعار الشعراء، أو كتابات الكتاب، وتوجيه النقد إلى المستوى الفني والقدرة البيانية لدى هؤلاء وأولئك، فقد كان منه شيء بين ابن عبد الملك المراكشي (1) وبين ابن رشيد الفهري (2)، إذ انتقد الأول قصيدتين للشاعر مالك بن المرحل السبتي (3)، ورماه فيهما بالتكلف والوقوع في بعض عيوب النظم، كالتضمين، والايطاء، والخروج عن المألوف اللغوي. وهاتان القصيدتان هما (4):

ـــ ميميته في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومطلعها (طويل):

أدمعُكَ أم سِمطٌ، وَقَلبُكَ أم قُرطُ ... وشوقُكَ أم سِقطٌ، وجِسمُكَ أم خَطّ

ـــ وطائيته في المديح النبوي كذلك، ومطلعها (طويل) :

بوصف حبيبي طرَّز الشعرَ ناظمُه ... ونمنم خدَّ الطِرس بالنِّقس راقمُه

فقد نص ابن عبد الملك، بعد أن أورد القصيدة الأولى، على أن بها إجادة، ولكن فيها تعقبا من وجوه :

---

1) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي الأنصاري (ت 703 هـ / 1303 م) الفقيه القاضي المؤرخ الأديب، صاحب " الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ". ترجمه في نفح الطيب 453/3 والدرر الكامنة 314/4 والديباج المذهب 325/2.

2) أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري، السبتي (ت 721 هـ / 1321 م) الامام المحدث الحافظ الرحالة الخطيب الأديب، صاحب الرحلة الضخمة " ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة ". ترجمه في الوافي بالوفيات 284/4 وبغية الوعاة 199/1 وشجرة النور 216.

3) أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن المرحل المصمودي السبتي (ت 699 هـ/1299 م) الأديب الشاعر النحوي اللغوي المشارك، صاحب الشعر الغزير والكتب المتنوعة. ترجمه في غاية النهاية 36/2 وحسن المحاضرة 176/1 وسلوة الأنفاس 99/3.

4) القصيدتان في ديوان المعشرات لابن المرحل، وفي الذيل والتكملة 331/1 و 334، وفي فتح المتعال للمقري 217 و 282.

منها التضمين، وهو من عيوب النظم (5)، وذلك في قول الشاعر :

وممّا دَعاني، والدواعي كثيرة ... إلى الشوق أنّ الشوقَ مما أكاتمه
مثالٌ لنَعلَيْ مَن أُحِبُّ حديثه ... وها أنا في يومي وليليَ لاثِمُهْ

ومنها الايطاء، وهو من عيوب الشعر كذلك (6)، وذلك في تكرار «صوارمه» في قافية البيتين السادس والتاسع من القصيدة، وهو قوله :

وكم نازعَتْهُ الأَمْرَ قومٌ أعزّةٌ ... فما أسلمته بيضُه وصَوارمُه

وقوله :

أمَا حسَم الكُفْرَ الصريحَ حُسامُهُ ... أما صَرَمَ الافكَ الصريحَ صوارمُه

ومنها إعادة ضمير « نواسمه » وهو مذكر، على « الأرض » وهي مؤنثة، وحملها على إرادة التذكير بتأويل المكان أو المحل أو شبههما، أو إعادته على النبي صلى الله عليه وسلم بأدنى نسبة، وذلك قوله في نفس القصيدة :

أميل إذا هبّت نَواسِمُ أرضه ... ومَن لفؤادي أن تَهُبّ نواسمُه

ثم قال ابن عبد الملك : «كل ذلك تكلف بعيد المتناول، ولو جعل (الربع) عوض (الأرض) لخلص من هذا الانتقاد، وأحرز فضل الصقالة في اللفظ» (7).

---

5) قال ابن الأثير :''هو قسمان : معيب، وهو من علم العروض لا البديع : أن يكون البيت الأول لا يفهم معناه إلا بإيراد الثاني. وغير معيب: وهو أن يضمن الشاعر شعره أو الناثر كلامه كلام غيره ليكون له طلاوة وحلاوة'' جوهر الكنز 262. ولا شك في أن المقصود هنا هو القسم الأول. وانظر منهاج البلغاء 39 والمرشد الى فهم أشعار العرب 696/2.

6) هو اتفاق القافيتين في لفظ واحد وجنس واحد. انظر المنزع البديع 390، والروض المريع 160، وكتاب الطراز 153/2.

7) الذيل والتكملة 333/1 ـــ 334.

ثم قال بعد ذلك في معرض الانتقادات الموجهة إلى الشاعر عن القصيدة الثانية : «ومنها ــ وهو أقبحها ــ التضمين المنعي عليه.. وذلك بين البيتين: رأيت مثالا.. والذي بعده يليه (8). وفي البيت الثاني منهما معنى بديع قلبه من معنى آخر، ونقل معظم ألفاظه، وذلك في قول أبي العلاء المعري (طويل) :

قريطية الأخوال أملع قرطها   فسرّ الثريا أنها أبداً قرط

فنقل شيخنا أبو الحكم ذلك المعنى إلى هذا المعنى نقلا بديعا.» (9)

فتصدى ابن رشيد لابن عبد الملك، ورد عليه مدافعا عن شاعرية ابن المرحل وتمكنه، مفندا مقالة الناقد، رادا عليه نقده، متهما إياه بالتغاضي عن المكارم والفضائل، واقتناص النقائص والمثالب.

قال ابن رشيد : « وكل ما قاله صاحبنا فاسد، والنقد عليه عائد. أما التضمين الذي ادعى أنه عيب فليس بهذا، وانما العيب الذي ترجم له أهل القوافي هو ما كان بين القافية وصدر البيت الذي يليها، كقولهم (وافر) :

....   وهم أصحاب يوم عكاظ إني

شهدت لهم مواطن صادقات   ....

وأما هذا التضمين الذي فعله الشيخ (10)، فسبيل مفيدة، وطريق مستحسنة عند العرب والمولدين المتقدمين منهم والمتأخرين؛ وإنما أوقعه في ذلك

---

8) وهما قول ابن المرحل في الطائية :

رأيتُ مثالاً لو رآهُ كرؤيتي   نجومُ الدجى والليلُ أسودُ مشمط

لسرّ الثريا أنها قدم، ولم   يسرّ الثريا أنها أبداً قرط.

9) الذيل والتكملة 336/1 ــ 337.

10) يقصد الشاعر ابن المرحل.

عدم معرفته باللفظ المشترك (11) » ويستمر في الدفاع عن الشاعر بأنه إنما قصد مجاراة المعري في مأخذه الذي استمد منه معناه، وهو في الأصل لابن المعتز العباسي الذي قال في تشبيه الثريا (منسرح)

في الشرق كاس، وفي مغاربها قرط، وفي أوسط السماء قدم

فقد أخذه المعري وولد منه معنىً آخر في بيته المتقدم، ثم أخذه ابن المرحل، وليس في ذلك من عيب على مذهب ابن رشيد الذي يقول : « ومعاني الشعراء إنما هي أزهار وأنوار تختطف وتقتطف » (12).

ثم يغلط ابن رشيد صاحبه في ادعائه وقوع الايطاء في البيت المشار إليه بذلك ويقول : «وإنما قال الناظم في البيت السادس :

.... فما أسلمته بيضه ولهازمه (13)

وإنما وقع (صوارمه) في البيت التاسع، وهو الذي ألزم به النقد هذا الناقد المتعسف. وأما ماقاله في عود الضمير فمما تصان عنه المسامع، وبالله وبالمسلمين ما الذي يمنع من إعادة الضمير على النبي ﷺ! وأي تكلف فيه أو أي نسبة أو بعد تناول، مع أن إعادته على الضمير المخفوض في قوله (أرضه).. صحيح حسن ! ولكنها عادة تعودها، ووسادة اعتمدها

---

(11) فتح المتعال للمقري 285 ــ 286. وانظر الذيل والتكملة 334/1. وقال ابن فارس في الاشتراك: '' أن تكون اللفظة محتملة لمعنيين أو أكثر '' الصاحبي 456. وقال ابن الأثير :'' المشاركة من أقسام المجاز'': جوهر الكنز 53. وانظر الروض المريع لابن البناء 40 و 173 وخزانة الأدب لابن حجة 417.

(12) فتح المتعال 222.

(13) كذا رواية البيت في فتح المتعال، وليس (صوارمه) كما تقدم. واذا اعتمدت هذه الرواية انتفى العيب الذي اخذه الناقد على الشاعر.

وتوسدها. وما نعلم في هذه القصيدة شيئا ينقد إلا ثقل لفظ : (أصك به خدي) (14). والله المرشد، والانصاف أحق ما اعتمد، وأولى ما اعتضد » (15).

وبعد أن أورد ابن عبد الملك القصيدة الثانية تتبعها بالنقد، واستخرج ما رآه فيها من وجوه العيب. ومما عابه على الشاعر فيها :

أولا : استعمال (أم) مكان (أو) في قوله (البيت الثاني) :

أخافرة بعد النزوع على الصبا ... وللشيب رشق في عذارك أم وخط !

ثانيا : تكرير المعنى في قوله (البيت الحادي عشر) :

وما هي إلا لوعة وصبابة ... بقلبي لها قسط، وفي مدمعي سمط.

لأن الشاعر افتتح القصيدة بهذا المعنى نفسه (16)، وذلك — كما يقول الناقد — ضيق عطن.

ثالثا : استعمال (البسط) في قافية البيت الذي قبل الأخير منها مكان (التبسط)، وذلك قوله (البيت 14) :

تبسط عبد مذنب غير أنه ... بحب رسول الله صح له البسط.

ويتعقب ابن رشيد هذه الانتقادات أيضا، ويعترض عليها محاولا دحضها

---

14) وهو من قول الشاعر في نفس القصيدة :
أصك به خدي وأحسب وقعه ... على وجنتي خطوا هناك بداومه.
15) فتح المتعال 286.
16) راجع مطلع القصيدة الطائية المتقدم.

وتفنيدها، فيبين أن « هذه الاعتراضات كلها ساقطة، ولكن ليس لها لاقطة » (17)، ويأخذ في مناقشة تلك الانتقادات واحدا واحدا :

فأما الانتقاد الأول فقال عنه ابن رشيد : « فتلك شكاة ظاهر عنك عارها، فإن نظمه إنما قاله بأو، وكذلك أنشده لنا، وإنما ابن عبد الملك كتبه بأم بخطه ».

وأما الانتقاد الثاني فيرفضه ابن رشيد كذلك، ولا يرى فيه دركا، بل يراه « طريقة مسلوكة مألوفة، وسبيل في الفصاحة معروفة؛ وإنما يكره ذلك اذا تكرر في القافية، ولاسيما وتكريره لسمط إنما هو بعد تسعة أبيات، وإذا وقع مثل هذا وبينهما هذا العدد لم يكن إيطاء، مع أنه في الصدر اشتمل فيه مع سقط الترصيع دون أن يكون واحد منهما في مصراع فيقال : المصراع قد يشبّه العجز، وهذا شيء ما تحاماه متسع عطن، ولا قدح فيه أحد ولا طعن.. ومع هذا فاستعمالهما في البيت الأول المصرع وفي الثاني المعترض عنده ليس على حد واحد، بل هما مصرفان في مهيعين من الكلام مختلفين، ولا خلاف بين أهل البيان أن هذا من أنواع الافتنان، ومما يعد من الفاضل لا من المفضول، فإنه استعمل في البيت الأول من باب تجاهل العارف (18)، وفي البيت المعترض عند هذا المعترض من تحقق الواصف» (19).

وأما الانتقاد الثالث فهو أيضا واه عند ابن رشيد غير منكر في شعر الشاعر، يستدل على سقوطه بأنه لو اعتبر معنى البيت المعيب، لاتجه فيه إلى

---

17) فتح المتعال 220.

18) يسميه السكاكي التوجيه، ويقول إنه '' إيراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين .. ومنه سوق المعلوم مساق غيره، ولا أحب تسميته بالتجاهل''. مفتاح العلوم 202. وانظر بديع القرآن 50 والروض المريع 131.

19) فتح المتعال 220.

مقصد سليم » هو أنه لما انبسط في لذاته وذنوبه صح له بحب رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم أن لقي البسط ولم يلق القبض، إتماما عليه من الله تعالى» (20).

وتلك الانتقادات وهذه الاعتراضات جميعها دالة على أن النقد الأدبي في العصر المريني كان على مستوى جيد، يحمل أهله ثقافة أدبية ولغوية وفنية واسعة، ويوظفون ثقافاتهم ومعارفهم في تذوق الآداب ومحاكمتها، أو الاستماع إلى الانتقادات وتقويمها لانصاف الأدباء المبدعين وإبراز القيمة الفنية للنصوص الأدبية، ولعل هذا لم يكن ليتأتى في الأدب المغربي قبل العصر المريني إلا لماما، ثم لعله دليل على ارتفاع الذوق الأدبي والنقدي معاً في هذا العصر؛ ولقد تبين من خلال النصوص والأقوال المتقدمة أن النقاد كانوا يراعون أكثر الجوانب الفكرية وأهمها أثرا في الانتاج الأدبي والدراسة الأدبية، كالبلاغة والعروض والنحو واللغة..

* * *

ومن المناظرات العلمية والخصومات الأدبية ما جرى بين اللغوي النحوي ابن أبي الربيع القرشي (21)، وبين الشاعر اللغوي الأديب مالك بن المرحل، متقدم الذكر، حول عبارة « كان ماذا ». فالأول ينكر استعمالها على الثاني، وينفي ورودها في كلام العرب؛ والثاني يدافع عنها ويصر على صحتها.. فيؤلف كل من المتناظرين رسالة يشرح فيها وجهة نظره، ويؤيدها بما يملك من الأدلة العلمية، ويدفع رأي مناظره.

---

20) المصدر المتقدم نفسه 221.

21) أبو الحسن عبد الله بن أبي عبيد الله ابن أبي الربيع القرشي الأموي العثماني (ت 688 هـ / 1289 م). إشبيلي قدم سبتة وأقرأ بها النحو، وكان امام اللغة والنحو في زمانه. له فيهما المؤلفات القيمة والشهيرة الواسعة. خبره في الذيل والتكملة 105/6 ونفح الطيب 145/2 وبغية الوعاة 125/2.

وإذ لم نهتد إلى رسالة ابن أبي الربيع النحوي، التي تعد في حكم المفقود، فإن رسالة ابن المرحل موجودة، وهي التي أسماها « الرمي بالحصا والضرب بالعصا »، وتقع في ثلاثة أجزاء صغيرة.

ويتلخص رأي ابن أبي الربيع في بيتين يقول فيهما (مديد) :

« كان ماذا »، ليتها عدم   جنبوهـا، قـربها نـدم
ليتني، يا مال (22)، لم أرها   إنها كالنـار تضطـرم !

وذكر المقري « أن الأستاذ ابن أبي الربيع تطفل على مالك بن المرحل في الشعر، كما أن ابن المرحل تطفل عليه في النحو.. ومن نظم مالك بن المرحل في هذه القضية (مجزوء الرمل) :

عاب قوم « كان مـاذا »   ليت شعري [لم هذا] (23)
وإذا عابـوه جهـلا   دون علم، كان ماذا ؟ » (24)

وذكر السيوطي أن ابن أبي الربيع جهل ابن المرحل، « وصنف في المنع مصنفا.. وألسنة الشعراء حداد، وإلا فلا نسبة بين ابن أبي الربيع وابن المرحل، فإن ابن أبي الربيع ملأ الأرض نحوا » (25).

وابن المرحل كثير المشاركة في هذا الميدان، فقد كانت له خصومات أدبية

---

22) يا مال : ترخيم يا مالك.
23) في رواية النفح : ليت شعري كان ماذا . وقد أثبتنا رواية البيتين من بغية الوعاة 271/2.
24) نفح الطيب، تحقيق د. إحسان عباس 145/2.
25) بغية الوعاة، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم 271/2.

ومناظرات لغوية ونقدية مع أدباء آخرين كابن رشيق التغلبي (26)، الذي نظم قصيدة طويلة « تشتمل من التعريض والتصريح على كل غريب، واتخذ لها كنانة خشبية كأوعية الكتب، وكتب عليها : رقاص معجل، إلى مالك بن المرحل.. » (27)

ومطلع قصيدة ابن رشيق (كامل) :

لكلاب سبتة في النباح مدارك وأشدها دركا لذلك مالك

ولما بلغت القصيدة مالكا « كفت من طماحه، وغضت من عنان مجازاته، وتحدث بها مدة.. فعوق سهام المراجعة، ثم أقصر مكبوحا؛ وفي أجوبته عن ذلك يقول (متقارب) :

كلاب المزابل آذينني بأبوالهن على باب داري
وقد كنت أوجعها بالعصا ولكن عوت من وراء الجدار » (28)

فهذه المناظرات والخصومات كان لها أثر فعال في نفسيات الأدباء وفي المسار الأدبي والفكري للمغاربة عامة، وكذا في المستوى الفني واللغوي للانتاجات الأدبية والنقدية حينئذ.

الدار البيضاء **رضوان ابن شقرون**

---

26) أبو علي الحسن بن عتيق بن رشيق التغلبي (ت 696 هـ / 1297م)، لغوي أديب مشارك في كثير من الفنون. ترجمه في الاحاطة 472/1.

27) الاحاطة، لابن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان 473/1، وفيه عدة أبيات من قصيدة ابن رشيق.

28) المصدر المتقدم نفسه.

الاحــالات

1) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي الأنصاري (ت 703 هـ / 1303 م) الفقيه القاضي المؤرخ الأديب، صاحب " الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ". ترجمه في نفح الطيب 453/3 والدرر الكامنة 314/4 والديباج المذهب 325/2

2) أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري، السبتي (ت 721 هـ / 1321 م) الامام المحدث الحافظ الرحالة الخطيب الأديب، صاحب الرحلة الضخمة " ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة ". ترجمه في الوافي بالوفيات 284/4 وبغية الوعاة 199/1 وشجرة النور 216.

3) أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن المرحل المصمودي السبتي (ت 699 هـ/1299 م) الأديب الشاعر النحوي اللغوي المشارك، صاحب الشعر الغزير والكتب المتنوعة. ترجمه في غاية النهاية 36/2 وحسن المحاضرة 176/1 وسلوة الأنفاس 99/3.

4) القصيدتان في ديوان المعشرات لابن المرحل، وفي الذيل والتكملة 331/1 و 334، وفي فتح المتعال للمقري 217 و 282.

5) قال ابن الأثير :"هو قسمان : معيب، وهو من علم العروض لا البديع : أن يكون البيت الأول لا يفهم معناه إلا بإيراد الثاني. وغير معيب: وهو أن يضمن الشاعر شعره أو الناثر كلامه كلام غيره ليكون له طلاوة وحلاوة" جوهر الكنز 262. ولا شك في أن المقصود هنا هو القسم الأول. وانظر منهاج البلغاء 39 والمرشد الى فهم أشعار العرب 696/2.

6) هو اتفاق القافيتين في لفظ واحد وجنس واحد. انظر المنزع البديع 390، والروض المريع 160، وكتاب الطراز 153/2.

7) الذيل والتكملة 333/1 — 334.

8) وهما قول ابن المرحل في الطائية :

رأيتُ مثالاً لـو رأتْـهُ كرؤيتـي	نُجومُ الدجى والليلُ أسودُ مشمط
لسَرّ الثريـــا أنها قــدم، ولم	يَشْترِطْ الثريا أنها أبداً قُـرط.

9) الذيل والتكملة 336/1 — 337.

10) يقصد الشاعر ابن المرحل.

11) فتح المتعال للمقري 285 — 286. وانظر الذيل والتكملة 334/1. وقال ابن فارس في الاشتراك: " أن تكون اللفظة محتملة لمعنيين أو أكثر " الصاحبي 456. وقال ابن الأثير :" المشاركة من أقسام المجاز": جوهر الكنز 53. وانظر الروض المريع لابن البناء 40 و 173 وخزانة الأدب لابن حجة 417.

12) فتح المتعال 222.

13) كذا رواية البيت في فتح المتعال، وفيه (سوارمه) كما تقدم. واذا اعتمدت هذه الرواية ينتفي العيب الذي اخذه الناقد على الشاعر.

14) وهو من قول الشاعر في نفس القصيدة :

أصنك به خدي وأحسب وقعه على وجنتي خطوا هناك يداومه.

15) فتح المتعال 286.

16) راجع مطلع القصيدة الطائية المتقدم.

17) فتح المتعال 220.

18) يسميه السكاكي التوجيه، ويقول إنه " إيراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين .. ومنه سوق المعلوم مساق غيره، ولا أحب تسميته بالتجاهل". مفتاح العلوم 202. وانظر بديع القرآن 50 والروض المريع 131.

19) فتح المتعال 220.

20) المصدر المتقدم نفسه 221.

21) أبو الحسين عبد الله بن أبي عبيد الله ابن أبي الربيع القرشي الأموي العثماني (ت 688 هـ / 1289 م). إشبيلي قدم سبتة وأقرأ بها النحو، وكان امام اللغة والنحو في زمانه، له فيهما المؤلفات القيمة والشهرة الواسعة. خبره في الذيل والتكملة 105/6 ونفح الطيب 145/2 وبغية الوعاة 125/2.

22) يا مال : ترخيم يا مالك.

23) في رواية النفح : ليت شعري كان ماذا . وقد أثبتنا رواية البيتين من بغية الوعاة 271/2.

24) نفح الطيب، تحقيق د. إحسان عباس 145/2.

25) بغية الوعاة، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم 271/2.

26) أبو علي الحسن بن عتيق بن رشيق التغلبي (ت 696 هـ / 1297م)، لغوي أديب مشارك في كثير من الفنون. ترجمه في الاحاطة 472/1.

27) الاحاطة. لابن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان 473/1، وفيه عدة أبيات من قصيدة ابن رشيق.

28) المصدر المتقدم نفسه.

الدار البيضاء **رضوان ابن شقرون**

أصَالة الوَتَـد المفـْروق
في الدائرة الرابعة من دوائر الخليل العَروضية

محمد بن عبد العزيز الدباغ

علم العروض عند الخليل بن أحمد هو علم حصر به الانغام العربية التي كان الجاهليون يستعملونها في أشعارهم، ووضع لهذه الانغام أوزانا مختلفة تتكون من أجزاء سميت فيما بعد بالتفاعيل، وجعلها متناسبة مع الشعر الخارجي تناسبا يحدث أحيانا من صيغها الموضوعة، وأحيانا من تلك الصيغ بعد إحداث تغييرات فيها. فليست تلك الأجزاء التي أقام على أساسها ميزانه معبرة عن الانغام بذاتها دائما، لأنها في وضعها العام تخضع لتناسب رياضي من جهة، ولتناسب موسيقي من جهة أخرى. فإذا تلاءم التناسب الرياضي مع التناسب الموسيقي المستعمل، بقيت على شكلها الموضوع، وإذا وقع اختلاف في التناسب أخضعت الصيغة الموضوعة رياضيا الى صيغة أخرى تتلاءم مع الموسيقى الشعرية المقصودة.

وعلى هذا التصور المذكور، ينبغي دراسة المنهج الخليلي، لتتضح منذ البداية مقاصده، وتفهم مصطلحاته.

وهذه المصطلحات في حد ذاتها وضعها الخليل على أساس مقطعي خاضع للتغيير حسب الوجود الخارجي، إما خضوعا لازما إذا كانت طبيعة الموسيقى تقتضي اللزوم، وإما خضوعا غير لازم إذا كانت طبيعتها لا تقتضي ذلك

وعليه، فإن التحكم الأساسي يرجع للنغمة الموسيقية، لا للصور الشكلية الموضوعة، لأن النغمة موروثة محدودة، والصيغة الشكلية طارئة وقابلة للتغيير، وهذا هو السبب في أن الذين يريدون أن يتعلموا علم العروض عن طريق الأشكال الطارئة، دون ربط ذلك بالانغام الموروثة، لا يوفقون في ذلك التعلم، ولا يستطيعون قبول تلك الأشكال، ولا يقدرون على التصرف فيها أو حفظ ما يتعلق بها من المصطلحات التي أدخلها الخليل في باب الزحافات والعلل.

وقد ربط الخليل هذه الأجزاء بمفكات داخلية تختلف أسماؤها باختلاف وضعها، فسمى الحركة والسكون بالسبب الخفيف، وسمى الحرفين المتحركين بالسبب الثقيل، وسمى الحرفين المتحركين مع سكون بعدهما بالوتد المجموع، وسمى الشكل المكون من الحركتين بينهما سكون بالوتد المفروق.

ولاحظ وجود صورتين صوتيتين : الأولى منهما تتكون من ثلاث حركات فسكون سماها بالفاصلة الصغرى، والثانية تتكون من أربع حركات فسكون سماها بالفاصلة الكبرى. وهما صيغتان صالحتان لتحديد وضع القافية في بعض أشكالها، ولا يمكن إهمال وضعهما داخل البيت الشعري أيضا لأن التغيير الحاصل داخل الأجزاء قد يدفع قسرا الى وجود شكل أكبر من الأسباب والأوتاد، وأصغر من الجزء السالم، ولا يسهل التعبير عن هذا التغيير إلا بتحديد أسماء الصيغة الجديدة، وذلك ما دفع الخليل بن أحمد الى وضع الفاصلتين، ولكنه قيد وجودهما بقيود تتعلق بالتناسب الصوتي الخاضع للقانون الموسيقي. ويمكننا أن نطلع على هذه القيود في باب الزحافات والعلل أثناء الحديث عما يستحسن منها أو يستهجن.

وعلى كل حال، فمن المفكات الأربع الأولى تتكون الأجزاء التي قلنا إنها أصبحت تعرف عند العروضيين بالتفاعيل، وهي عشرة باعتبار الاستخراج.

أربعة أصلية هي: فعولن ومفاعلتن ومفاعيلن وفاع لاتن.

وستة فرعية متولدة من الأربعة السابقة هي فاعلن من فعولن، ومتفاعلن من مفاعلتن، ومستفعلن وفاعلاتن مجموعتا الوتد من مفاعيلن، ومفعولات ومستفع لن مفروقة الوتد من فاع لاتن مفروقة الوتد أيضا.

واكتسبت هذه التفاعيل أصالتها وفرعيتها من دوائر وضعها الخليل بن أحمد ليجعلها منطلقا للترابط بين الأجزاء التي تتركب منها وبين النغمات الخارجية، وجعل نقطة الابتداء وتدا مجموعا أو وتدا مفروقا، ثم تفرعت بعد ذلك الأصوات التي بنى عليها أبحره.

ويمكن ملاحظة ذلك فيما يأتي :

أولا ــ دائرة المختلف

وتتكون من فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

إن هذه الدائرة مبدوءة بوتد مجموع، وتشتمل على الطويل والمديد والبسيط، زيادة على صوتين مهملين.

ثانيا ــ دائرة المؤتلف التي تتكون من: مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن وهاته مبدوءة بوتد مجموع، وتشتمل على الوافر والكامل، زيادة على صوت مهمل

ثالثا ــ دائرة المجتلب المكونة من: مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن وهي أيضا مبدوءة بوتد مجموع وتشتمل على الهزج والرمل والرجز، وليس فيها أي صوت مهمل.

رابعا ـــ دائرة المشتبه المكونة من فاع لاتن مفاعيلن مفاعيلن،ونلاحظ هنا أن الابتداء كان بالوتد المفروق، وهي تشتمل على تسعة أصوات : ثلاثة مهملة، وستة مستعملة،هي:السريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث.

خامسا / دائرة المتفق التي تتكون من فعولن فعولن فعولن فعولن، وهي مبدوءة بوتد مجموع، وتمثل في وضعها البحر المتقارب. ويتولد منها صوت مهمل. إلا أن الأخفش اعتبر هذا المهمل مستعملا، وجعله ضمن أبحره فعرف بالخبب وبالمتدارك.

ومما تقدم، يتبين لنا أن الأصول مبنية على أساس البدايات، وأن ذلك عام في جميع الدوائر، لافرق فيها بين المبدوءة بالوتد المجموع أو الوتد المفروق، كما تبين لنا أن وضعية التفاعيل عند الخليل تنساق مع الشكل المستنتج، لا مع الصوت المحكي. الشيء الذي جعل لفاعلاتن شكلين، ولمستفعلن شكلين.

الشكل الأول يتكون من الوتد المفروق، وهو فاع لاتن ومستفع لن.

الشكل الثاني يتكون من الوتد المجموع وهو فاعلاتن ومستفعلن

وعلى أساس ما تقدم يمكننا مراجعة الذين يجعلون التفاعيل ثمانية فقط. اللهم إلا إذا خالفوا المنهج من أصله. كما يمكننا مراجعة الذين يذكرون أن الدائرة الرابعة لا تبتدىء بوتد كأخواتها، وإنما تبتدىء بسببين خفيفين، لأن ذلك يتنافى مع المقدمات التي توضع في التمهيد لهذا العلم.

إن الابتداء بالسببين يقتضي أن تكون الدائرة مبدوءة بالسريع المبني فيها على وزن: مستفعلن مستفعلن مفعولات ،وهذا الاعتبار مقبول من حيث الاستعمال، ولكنه غير مقبول من حيث أصل التصور الذي بنى عليه الخليل

دوائره. ولهذا حاول بعض العروضيين كأبي بكر الشنتريني مثلا أن يعلل الدوافع التي جعلت البداية بالسبب دون البداية بالوتد المفروق، فذكر أن السبب في ذلك راجع الى ضعف الوتد المفروق ونقصانه عن مرتبة الوتد المجموع، ولهذا لم يقو على التحمل فانتقل الخليل بن أحمد الى الابتداء بالسريع

قال الشنتريني : وهذا الذي سوغ للخليل رحمه الله أن يتداول هذه الدائرة من أول السببين، وإن كان الفك من أول الوتد هو الأصل. (ص 63 من كتابه: المعيار في وزن الاشعار تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية).

وهذه العلة التي ذكرها الشنتريني صالحة لتعليل إهمال المنطلق، ولكنها لا تخول لمن يؤرخ لهذا العلم أو لمن يفسره حسب أصوله الخليلية أن يجعل السريع أصلا لهاته الدائرة، لأن الذين يفعلون ذلك هم بين اختيارين:

إما أن يغيروا المنهاج الخليلي ليبحثوا عن منهاج آخر مبني على تصورات جديدة، وذلك مثل ما فعله الجوهري وحازم القرطاجني قديما، أو مثل ما حاول أن يقوم به بعض النقاد المعاصرين كالدكتور عبد الله الطيب والدكتور ابراهيم أنيس.

وإما أن يزيلوا من التفاعيل الأصلية الممهدة للعلم فاع لاتن مفروقة الوتد.

ولكن حيث إن هؤلاء الذين ذكروا ذلك يتحدثون عن التفاعيل الأصلية والفرعية، ويذكرون في الأصلية فاع لاتن مفروقة الوتد، فإن ضرورة التنسيق المنطقي تفرض عليهم ربط المقدمات بما بعدها.

فالحل إذن يمكن التوصل إليه عن طريق الملاحظة التالية الملخصة فيما يأتي:

إن الأصوات الناتجة عن مفكات الدوائر سواء كانت أصلية أو فرعية لا

يلزم من وجودها في الدوائر استعمالها في المجال الخارجي، فهي قد تكون مستعملة، وقد تكون مهملة، وحيث إن الاهمال ليس من المفروض فيه أن يكون في حشو المفكات أو في آخرها، فهو متوقع أن يكون في أول المنطلق، وذلك ما وقع بالفعل في الدائرة الرابعة، لأن سائر الدوائر مبدوءة بوتد مجموع إلا هاته فهي التي تبدأ بالوتد المفروق، وليس من اللازم أن تكون التفعيلة الأصلية منطلقا مستعملا مادامت القيود المتصلة بالدوائر مرتبطة بتصورات الخليل وبمعطياته التي قدمها إلينا لنجعلها سبيلا الى فهم علمه، والى استعمال مصطلحاته. ويمكننا تقريب مقاصده باستخراج المفكات من طريق أفقي، عوضا عن المسار الدائري الذي سار عليه، وذلك بنقل المفك الأول من صدارته وجعله في آخر التفاعيل، ويتجلى ذلك فيما يأتي :

أولا ــ فاع لاتن مفاعيلن مفاعيلن

هذا هو أول الدائرة الرابعة، وهو وزن مهمل، تفعيلته الأولى مبدوءة بوتد مفروق يمكن نقله من مكانه ووضعه في آخر الخط الافقي فيصبح حينئذ على الشكل الآتي

لاتن مفاعيلن مفاعيلن فاع

وتقابل هذه الأصوات بالتفاعيل الآتية :

مستفعلن مستفعلن مفعولات

فيتولد منها بعد خضوعها لقيود صوتية معروفة في باب الزحافات والعلل البحر المعروف بالسريع.

فلو أخذنا «مس» وهو السبب الخفيف الأول في مستفعلن ونقلناه إلى الأخير فسيتولد صوت على الشكل الآتي :

تفعلن مستفعلن مفعولات مس

ويقابل هذا الصوت بالتفاعيل الآتية :

فاعلاتن فاعلاتن مستفعلن

وهو صوت مهمل

وهكذا نسير في مراحل الاستنتاج الى أن تكتمل لدينا الصور التي وصل إليها الخليل في دائرته.

وسيلاحظ من سيتتبع هذه الاستنتاجات، أن الوتد المفروق سيأخذ قوالب ثلاثة :

القالب الأول، فاع لاتن وهو الأصل في الدائرة إذا جاء قبل مفاعيلن المكررة

القالب الثاني، مستفع لن وهو أحد الفرعين المتولدين عن الأصل بجعل الوتد المفروق بين سببين.

القالب الثالث، مفعولات وهو الفرع الثاني المتولد بجعل الوتد المفروق في الأخير بعد سببين.

وكل قالب من هذه القوالب الثلاثة يختلف وضعه داخل المتولدات أيضا، فإما أن يكون في الصدر، وإما أن يكون في الوسط، وإما أن يكون في الأخير، بحيث تبقى هيمنة الأصل واضحة مع ما بعدها من البداية الى النهاية.

ومعنى ذلك، أن الأجزاء الثلاثة تبقى محتفظة بوضعية أوتادها، فالجزء الأول المكون من الوتد المفروق في أوله، يأتي مع الجزءين الأخيرين المكونين من الوتد المجموع في أوسطهما. فإذا غيرنا الجزء الأول بما يتولد عنه، فإننا ...

الجزءين الأخيرين بما يتولد عنهما على حسب نسق التفعيلة الأولى، فإذا أصبح الوتد المفروق في الوسط بين سببين، أصبح الوتد المجموع في الوسط بين سببين، وإذا تأخر الوتد المفروق بعد السببين، تأخر الوتد المجموع بعد السببين وبذلك تبقى المعادلة واضحة.

وبهذه الطريقة يسهل حفظ الأوزان المدمجة في الدائرة الرابعة، ويتيسر استحضارها، ويمكننا إيضاح ذلك مرة أخرى بحسب الوضع الاستقرائي لكل جزء داخل الدائرة، ويتجلى ذلك فيما يأتي :

أولا ــ بالنسبة الى فاع لاتن مفروقة الوتد فإنها لا يمكن أن تأتي إلا مع مفاعيلن المكررة، ولا يمكن الاختلاف إلا في الترتيب، فإذا جاءت على الأصل الدائري تركب منها صوت مهمل، وإذا جاءت في الوسط فإنه يتولد عنها المضارع، إلا أن هذا البحر يكون مجزوا حسب ما هو معروف. فإذا جاءت في الأخير، تولد من ذلك صوت مهمل.

ثانيا ــ بالنسبة الى الصورة الأولى من صورتي التفريع من فاع لاتن ومن مفاعيلن وهي التي يجعل فيها الوتد في الأخير، فإنها بالنسبة الى فاع لاتن تصير مفعولات، وبالنسبة الى مفاعيلن تصير مستفعلن، وحينئذ تأخذ التفعيلتان الجديدتان نفس التوازن المذكور سابقا، وأعني به وجود تفعيلة مكونة من الوتد المفروق، وتفعيلتين مكونتين من الوتد المجموع، وتختلف الوضعية في الترتيب فقط.

فإذا جعلنا التفعيلية ذات الوتد المفروق في الأخير، تولد ما يعرف بالسريع بعد إخضاع هذه التفعيلة لقانون الزحافات والعلل. وإذا جعلناها في الوسط، تولد ما يعرف بالمنسرح، وإذا جعلناها في الأول، تولد ما يعرف بالمقتضب، إلا أنه في الاطار الخارجي يكون مجزوا.

ثالثا ـــ بالنسبة الى الصورة الثانية من صورتي التفريع من فاع لاتن ومن مفاعيلن وهي التي يجعل فيها الوتد في الوسط، فإنها بالنسبة الى فاع لاتن تصير مستفع لن مفروقة الوتد، وبالنسبة الى مفاعيلن تنقلب الى فاعلاتن. وحينئذ تأخذ التفعيلتان الجديدتان نفس التوازن المذكور، وأعني به وجود تفعيلة واحدة مكونة من الوتد المفروق، ووجود تفعيلتين مكونتين من الوتد المجموع، كما هو الشأن فيما سبق. وتختلف الوضعية في الترتيب أيضا، بحيث اذا جعلنا التفعيلة ذات الوتد المفروق في الأخير، تولد عن ذلك بحر مهمل، فإذا جعلناها في الوسط، تولد عنها الخفيف، أما إذا جعلناها في الأول، فإنه يتولد عنها المجتث إلا أنه يرد مجزوا في الاستعمال الخارجي.

فالتقييد بالمتولدات إذن غير لازم من حيث الاستنتاج، لأنه مقيد بالاستعمال. وهذا هو السر في خضوع التفاعيل للزحافات والعلل، وخضوع الابحر للطول والقصر والتوسط.

والمراد بالاستعمال ما وافق التناسب الموسيقي الخارجي، ولهذا كان من الضروري أن يتوجه النقد الموسيقي الى وضعية الشعر، لا إلى وضعية التفاعيل، لأن النقد إذا توجه إلى وضعية التفاعيل داخل المجموعة، فإن ذلك لا يأتي بنتيجة إيجابية، لأن تلك التفاعيل ذاتها خاضعة للوضع الشعري، ومقيدة بالتغييرات المتوقعة إذا كانت موسيقى الشعر في حاجة الى ذلك.

فالربط بين التناسب الموسيقي، وبين التفاعيل في وضعها الدائري من غير مراعاة الزحافات والعلل، أمر لا يتلاءم مع أصول العلم، ولا ينسجم مع المنطق السليم.

ومن غريب الأمر أن عالما من علماء الأدب، وناقدا من النقاد الماهرين الذين لهم خبرة بالمنطق اليوناني، وهو حازم القرطاجني، قد تعثر في هذه البديهية،

ووجه للخليل نقدا شديدا دون أن يفرق بين التفاعيل في وضعها الدائري، وبينها هي نفسها بعد تعديلها من أجل ملاءمة الجانب الموسيقي الخارجي.

وأكبر ما استنقص به الخليل وجود الوتد المفروق في نهاية التفاعيل، ولكن هذا الاستنقاص غير مقبول، لأن الخليل لم يترك تلك التفاعيل على وضعها الدائري، بل أخضعها لزحافات ملاصقة، أو لعلل تزيل صيغة الثقل منها، خصوصا بالنسبة للعروض والضرب، فمفعولات في بحر السريع مثلا يشترط كسفها مع طيها، أو وقفها مع طيها، أو صلمها، وهي في كل هذه الحالات، لا تختم بمتحرك، وكذلك شأنها في منهوك المنسرح.

فبالنسبة للسريع مثلا، نجد العروضيين يذكرون أن لهذا البحر أربع أعاريض، وستة أضرب:

العروض الأولى مكسوفة مطوية، فتصير على وزن فاعلن

وأضربها ثلاثة.

الضرب الأول موقوف مطوي، ومثاله قول الشاعر

يا نفس من هم الى همة فليس من عبء الأذى مستراح

الضرب الثاني مثلها ومثاله قول الشاعر

ما أقصر الليل على الراقد وأهون السقم على العائد

الضرب الثالث أصلم، ومثاله قول الشاعر

قالت ولم تقصد لقيل الخنا مهلا لقد أبلغت أسماعي

العروض الثانية مكسوفة مخبولة، فتصير على وزن فَعِلن ولها ضرب مثلها،

ومثاله قول المرقش

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الاكف عنم

وقد يوتي لها بضرب أصلم

ومثاله قول الشاعر

يا أيها الزاري على عمر قد قلت فيه غير ما تَعْلَمْ

العروض الثالثة موقوفة مشطورة وهي الضرب، ومثاله :

قد قلت للباكي رسوم الأطلالْ

يا صاح ما هاجك من ربع خالْ

وهذان بيتان مشطوران لا بيت واحد

العروض الرابعة مكسوفة مشطورة، وهي الضرب ومثالها قول الشاعر

يا صاحبي رحلي أقلا عذلي

وأما بالنسبة للمنسرح المنهوك، فإن العروض فيه تكون هي الضرب أيضا، ولا تكون إلا موقوفة أو مكسوفة

فمثال الموقوفة قول هند

صبرا بني عبد الدار
صبرا حماة الادبار
ضربا بكل بتار

ومثال المكسوفة قول أم سعد بن معاذ ترثي ابنها بالبيت التالي

ويلم سعد سعدا

ففي كل ما تقدم، اتضح لنا أن الوتد المفروق لم يأخذ شكله الدائري، وإنما انساق مع الشكل الموسيقي الخارجي.

وهذا الشكل الموسيقي الخارجي هو الذي حاول حازم أن يتوصل إليه من خلال تصوره للتفاعيل، ولتصوره لمفكاتها التي تكونها، فهو لم يقتصر على الشكل الخماسي، والشكل السباعي، بل أضاف إليه الشكل الثماني، والشكل التساعي، وسمى المفكات التي تتكون منها التفاعيل "بالأرجل"، وهو الاسم الذي كان يطلقه اليونانيون عليها، وأضاف الى السببين المعهودين سببا آخر سماه "السبب المتوالي"، وهو عبارة عن حركة بعدها سكونان، كما أضاف الى الوتدين وتدا ثالثا سماه "بالوتد المتضاعف"، وهو عبارة عن حركتين بعدهما سكونان.

وقد أبدى حازم بعض هذه الملاحظات في كتابه: "منهاج البلغاء" (ص 236) فقال إن السبب الثقيل والوتد المفروق لا يقعان في نهاية أي جزء، وإنما يقعان في صدور الأجزاء وتضاعيفها، وإن السبب المتوالي، والوتد المتضاعف، لا يقعان إلا في نهاية الضروب والاعاريض المصرعة، وإن السبب الخفيف والوتد المجموع هما اللذان يقعان في صدور الأجزاء وأوساطها وأعجازها كل موقع.

وهي ملاحظات يمكن الاستغناء عنها إذا ما ربطنا بين التفاعيل وما يتصل بها من زحافات وعلل لتقابل الشعر الخارجي، هذا زيادة على أننا قد نصل الى ما يشبه السبب المتوالي، أو الوتد المتضاعف باستخدام العلل المعروفة بالقصر والقطع والوقف والتسبيغ والتذييل.

فالحديث عن الأوزان إذن وعن تلاؤمها مع معانيها وموسيقاها شيء لا

يتصل بالتفاعيل المجردة الموجودة داخل الدائرة في وضعها الأصلي أو الفرعي، ولكنه يتصل بالاطار الذي وضعت فيه تلك التفاعيل، فإذا وجهنا أي نقد موسيقي، فإن الواجب يقتضي أن ينصب على ذلك الاطار ذاته، ففرق مثلا بين أن نصل الى البحر المضارع عن طريق الاستنتاج الدائري، وبين أن نقول بعدم وجوده لأنه متنافر مع الذوق، وذلك لأن هذا التنافر إحساس يمكن أن تنقد به طريقة الاستعمال، ولكن لا يمكن أن تنقد به الطريقة التي أوصلتنا إليه، لأن نقد طريقة الوصول باعتبار التناسب بين التفاعيل يقتضي إنكار الوجود، وأما إبراز التنافر فيقتضي إنكار الجانب الجمالي والتناسق الموسيقي في الشعر ذاته لا في تفاعيله، ولا يلزم من الشعور بالخلل الجمالي الحكم بعدم الوجود أصلا لأنه قد يكون موجودا وهو غير جذاب.

وقد حاول الخليل بن أحمد ما أمكنه أن يربط بين الزحافات والعلل وبين ما يقابلها من الأصوات حسنا وقبحا وصلاحية، ولهذا لا يخلو أي بحر من ذكر ذلك.

والدليل على أن هذا الأمر ذوقي، هو كون هذا البحر الذي أنكر حازم وجوده لانعدام التناسب فيه، جعله الجوهري ضمن أبحره المركبة، فهو عنده مركب من الهزج والرمل باعتبار كون فاعلاتن فيه مجموعة الوتد، وليست مفروقته لأن الجوهري لم يعتد إلا بسبع تفاعيل، وأزال منها ما يتصل بالوتد المفروق إلا إذا جاء عرضا عن طريق زحاف سماه بزحاف التقديم والتأخير يتولد منه البحر السريع المدمج في البسيط المجزو.

فالابحر عند الجوهري منها ما يتولد بتكرار التفعيلة وهي سبعة، ومنها الابحر المركبة وهي خمسة:

وضمن هاته المركبة تدمج بعض الأبحر التي لم يجعلها قائمة الذات، وإنما

جعلها مدمجة في غيرها وعددها أربعة.

أولا ــ البحر السريع الذي أدمجه في البسيط السداسي، وهو البسيط المجزو إلا أن الجزء لا يختص بحذف العروض والضرب، بل قد يقع بحذف تفاعيل في الحشو.

فإذا حذفت فاعلن الثانية والرابعة تولد البسيط المجزو العادي، وإذا حذفت فاعلن الأولى والثالثة تولد السريع ويسمى الكل عنده بالبسيط السداسي.

ثانيا ــ المنسرح، ويدمج في بحر الرجز، وذلك بقلب الوتد المجموع من مستفعلن الثانية والخامسة، أي بتقديم سكون وتد مجموعه على حركته فيصير الرجز على الشكل الآتي :

مستفعلن مفعولات مستفعلن

وهو نفس الوزن المعهود في الدائرة عند الخليل بن أحمد.

ثالثا ــ المقتضب، ويدمج أيضا في بحر الرجز، وذلك بحذف مستفعلن الأولى والرابعة مع إحداث نفس التغيير الذي توصلنا به الى المنسرح سابقا

رابعا ــ المجتث، وهو مدمج في الخفيف بحذف أوله ورابعه فيصير الوزن على شكل مستفعلن فاعلاتن من غير إدخال عنصر التفريق في الوتد المجموع.
إن هاته المحاولات التي قام بها كل من الجوهري وحازم لم تغير صلب الموضوع، خصوصا حينما حاول كل منهما الإتيان بمنهاج لم يهمل بعض المصطلحات الخليلية أحيانا، أو تركها وحولها عن مقاصدها أحيانا أخرى.

ولنأخذ على سبيل المثال البحر المقتضب، فهو عند الخليل مكون من مفعولات مستفعلن إلا أنه يرد مجزوا وتجب فيه المراقبة في مفعولات

بحيث يجب حذف فائها أو حذف واوها إذ لا تخلو من طي أو خبن، ووجود الطي أحسن.

فمثال الخبن قول الشاعر:

أقبـــــلت فـــــلاح لها عـــــارضان كالسبـــــج

ومثال الطي قول الشاعر:

أتانـــــا مبشرنـــــا بالبيـــــان والنـــــذر

وعليه، فإن وضعية المقتضب عند الخليل واضحة صوتيا، وعلى أساسها وأساس المثالين السابقين بنى الخزرجي رامزته العروضية فقال حين ذكر المقتضب البيت التالي:

وما أقبلت حتى أتانا بعلمها مبشرنا يا حبذا ما به أتى

فالميم ترمز للمقتضب، والالف الى إظهار أن عروضها واحدة، والهمزة من أقبلت الى أن الضرب واحد أيضاءوالاشارة بأقبلت وبأتانا الى البيتين السابقين لابراز المثال وتوضيح المراقبة.

وقد اعتبر حازم أن هذه المراقبة مخلة بالتناسب الصوتي ولذلك أنكرها وقال بوجوب الطي ونحن نرى أن انعدام التناسب لا يلزم منه عدم الوجود، ولكن يسمح للناقد أن يظهر الخلل في الموجود، ففرق بين وصف الواقع ونقد الواقع، فإذا كان الخليل حسب استقرائه يذكر أن للمقتضب وجودا مع اختلاف وضعية التراقب، فإن النقد يجب أن يوجه للشعراء العرب الذين استعملوه، لا للعلماء الذين وصفوه،وهذا هو منطلق الاضطراب الذي وقع لحازم في نظراته العروضية، لأنه أدخل عنصر البلاغة وعنصر الموسيقى في نقد المنهاج مع أنهما يجب أن يكونا من عناصر نقد الشعر ذاته وذاك ما وقع له مع المضارع أيضا

وعليه فإن موقف حازم رحمه الله من عدم استحسان بعض الاصوات لعدم انسجامها مع الموسيقى لا يلزم منه انكار وجودها، كما أن موقفه من انعدام التناسب الموسيقي مع الوتد المفروق إذا ختمت به التفاعيل لا يسمح له بأن يبقيه على اطلاقه عند من استعمل الوتد المفروق، لانه شرط في الاستعمال شروطا قد أوضحناها سابقا تجعل الوتد خاضعا للشعر الخارجي، وموافقا لاصول الموسيقي، بحيث لا نرى مثلا أي فرق بين الوزن الذي يستعمله الخليل بن أحمد للمنسرح داخل تفاعيله وهو: مستفعلن مفعولات مستفعلن مع خضوع ذلك للتغييرات اللازمة، وبين الوزن الذي استعمله حازم لهذا البحر وهو: مستفعلاتن مستفعلـن فاعلـن.

فحازم لاحظ أن العرب تنتقل عند اجتماع هذه التفاعيل من الاثقل إلى الاخف، ومن الجزء الى ما يناسبه، ولذلك بدؤوا بالتساعي، ثم تلوه بسباعي يناسبه، ثم تلوه بخماسي يناسب السباعي، والتزموا الخبن في الضرب، وهو جزء من القافية (ص 242)

وتنظيره هذا يقتضي أن التوازن مشروط في التفاعيل، مع أننا ذكرنا من قبل أن التوازن ينبغي أن يكون مشروطا في الشعر ذاته، وعلى أساسه يقع الحكم استحسانا أو استهجانا، بل إن هذا التوازن الصوتي قد تختلف تركيباته حسب المعاني والاغراض، وذلك ما أوضحه الدكتور عبد الله الطيب في كتابه "المرشد الى فهم أشعار العرب"، فهو قد عمل ما أمكنه على أن يقابل بين الأوزان والمعاني، وأعانه على ذلك ذوق سليم، وحفظ كبير لاشعار العرب، فكانت مقابلاته تثير إعجاب النقاد، وتبشر بدراسات جديدة في الموضوع سيتولاها الاختصاصيون وأصحاب الذوق السليم. ولهذا كانت قيمة هذا الكتاب من هذه الوجهة، أهم من الخطرات التي كان يتحدث فيها عن بعض المقابلات بين تفاعيل الخليل وبين النغم الشعري، لأنه كان في تلك المقابلات يربط بين الوزن والتفاعيل، وهي

مقابلات ليست جوهرية في الموضوع النقدي، لأنها تنبني على نفس الأسس التي بنى عليها حازم القرطاجني والجوهري مذهبيهما حينا فكرا في تغيير التفاعيل، أو في نقد بعضها، في حين أن الجانب الذي امتازت به دراسة الدكتور عبد الله الطيب هو ذلك الذي يحدد الدلالات الموسيقية للأبحر المتقاربة وإدخالها في سياق واحد رغم اختلاف تسميتها لدى الخليل.

إن الاهتمامات الموجهة لربط الأصوات بالمعاني في إطار النقد أسمى من الاهتمامات التي توجه لربط التفاعيل المجردة بأصول التناسب الموسيقي لأنه ربط قسري لا ينسجم مع الواقع، ولا يستفاد منه شيء جديد، ولهذا كان عمل الدكتور عبد الله جد مفيد حينما أعطى خصائص كل بحر على حدة، أو حينما أبرز التقارب الموجود بين بعض الأبحر لا على أساس اندماجها في دائرة معينة، وإنما على أساس التقارب الصوتي. وأنا أرى أن هذا التقارب قد يبرر إدماج أبحر مختلفة في سياق دلالي واحد، ولكنه لا يبرر انفصال تلك الابحر عن دوائرها إلا في حالات تتفق فيها الحيثيات، فيحتمل حينئذ إدماجها هنا وهناك. وسيكون هذا الادماج شكليا في صورته الظاهرة لأنه لا يؤثر على الدلالات المعنوية التي توصل إليها الدكتور من خلال استقرائه للشعر العربي. وعليه فإن هناك فرقا بينا واضحا بين الأوزان الدائرية، وبين الدلالات الموسيقية. لأن الدلالات صالحة لان ينعت بها هذا البحر أو ذاك حسب الصورة التي هو عليها، وأما الأوزان الدائرية فهي صور شكلية مبنية على تصور رياضي أوضحنا بعض جوانبه في مقدمة هذا البحث.

ولا تناقض في الدراسات بين هذا الجانب أوذاك، إذا اتضح المسار وتقاربت المفاهيم، وأخذ كل جانب حظه من الدراسة دون أن يمس بالجانب الآخر. فعلم العروض له حدوده، وعلوم النقد والبلاغة والموسيقى لها حدودها.

والمقوم الماهر هو الذي يستطيع تحديد العلاقة الرابطة بين هذه العلوم فلا يبخس جمال الشعر، ولا يهمل أشكال الأوزان، ولا ينسى حقيقة التداخل بين أبعادها. وحينئذ يتسع صدره لفهم أوضاع الأشكال العروضية وما يطرأ عليها من تغيرات لمقابلة الاطار الخارجي فلا يجد نشوزا في سبب ثقيل ولا في وتد مفروق ولا في فاصلة صغرى أو كبرى، مادامت هاته الأشكال تخضع لقوانين مفروضة تجعلها منسجمة مع الموسيقى، غير نابية عن الذوق السليم، ولا خارجة عن قانون التناسب القويم.

فاس **محمد بن عبد العزيز الدباغ**

ملحوظـة :

هذا البحث مهدى الى الدكتور عبد الله الطيب بمناسبة الاحتفال بتكريمه والاعتراف بفضله العلمي ومجهوداته المتواصلة التي قدمها للجامعة المغربية طوال إقامته بالمغرب جازاه الله خيرا وأعانه على خدماته العلمية.

طرائف ومفارقات
من
تقاطع اللغات

أحمد عبد السلام البقالي

تنبيه

[هذا ليس بحثا لغويا أكاديميا بالمعنى الصحيح. إنه مجرد مجموعة من الملاحظات والتأملات، والذكريات التي تجمعت لي ككاتب يعشق الكلمة في جميع اللغات، ويؤمن بقوتها، ويحاول استكناه أسرارها الغامضة، وسماتها وأبعادها المتعددة، ويضعها تحت مجهره كالماسة البديعة، يستشف جمالها، وانعكاس أشعة الضوء عليها، ويستنطقها، ويداعبها، ويلاعبها كالهريرة الصغيرة اللعوب، أو الجرو المرح الناعم الفروة

وهي تجربة حياة بأكملها مع هذا المخلوق المعنوي المرهف الجميل، وتكريم للكلمة كأداة سحرية في يد الكاتب يبدع بها الأعاجيب، ويخلق بها من خياله العوالم، وبالله التوفيق].

(المفارقة الأولى)

جلس السائح الفرنسي الأنيق يتعشى في مطعم إسباني فخم. وعند نهاية وجبته، طلب من النادل أن يأتيه ''بجاتوه'' ـــ بجيم مصرية ـــ فاستغرب النادل الاسباني الطلب، ولكنه ابتسم للزبون ـــ الذي هو دائما على حق ـــ وغاب لحظة، ثم عاد يحمل قطا وضعه أمام الزبون الفرنسي!

وكانت دهشة الزبون الفرنسي أشد من دهشة النادل الأولى !

ولم ينقذ الموقف إلا سائح يحسن اللغتين، فشرح للنادل أن «الجاتوه» عند الفرنسيين تعني الحلوى، لا القط ! وتكتب Gâteau بدل Gato التي تعني القط عند الاسبان.

(المفارقة الثانية)

الحادثة الأولى انتهت بسلام..ولكن الحادثة التالية كان يمكن أن تؤدى إلى مشكل !

هذه المفارقة وقعت بعد إستقلال المغرب سنة 1956، وانضمام المنطقة الشمالية، التي كان يستعمرها الاسبان، إلى الجنوبية بعد جلاء الفرنسيين..

الزوج من الجنوب، من الدار البيضاء. والزوجة من الشمال، من طنجة

نادت الزوجة زوجها بالهاتف في مكتبه وقالت له : ''هات معك بومْبِيَّة فقد احترقت التي في وسط الدار.''

وعلقت .. وكاد المسكين يصعق حين سمع كلمة ''البومبية'' والحريق وسط الدار .. كلمة ''البومبية'' تعني عند أهل المنطقة الجنوبية سابقا ''رجال

الاطفاء'' les pompiers أي ''أصحاب المضخات''.

وطلب الزوج المضطرب رجال الاطفاء، وأعطاهم عنوان المنزل، وعاد إلى بيته يسابق الريح.

وحين دخل الشقة لم يجد أثرا لحريق بالمرة .. وسمع صوت زوجته الشابة تغني سعيدة في المطبخ أغنية شمالية بلهجتها الطنجاوية الحلوة.

ودخل عليها فابتسمت له،.وبادرت بسؤاله : ''هل جئت بالبُومْبيَّة ؟''
فأجاب الزوج المستغرب :
''ناديتهم بالتلفون، وأعطيتهم عنوان الدار .. وسيصلون قريبا !''

فسقط فك الفتاة من الدهشة : «ناديتهم بالتلفون ؟ من هم الذين ناديت في التلفون ؟»

ـــ البومبية طبعا !

ـــ ماذا تقول ؟ هل ''البومبية'' لها تلفون ؟

ـــ ألم تقولي إن وسط الدار يحترق ؟!

ـــ أنا قلت ذلك ؟

ـــ وطال النقاش !

ووصل رجال الاطفاء الذين جاءوا بفؤوسهم ومعاولهم لكسر الأبواب، لولا أن تداركهم الزوج الشاب، واعتذر لهم بأن المكالمة كانت خطأ، ودفع ثمن تحرك الفرقة.

وبعد مدة من النقاش استطاع الزوج المنهوك أن يعرف أنه كان ضحية لمفارقة لغوية أجنبية سببها ازدواجية الاستعمار .. وأن ''البومبية'' التي كانت تعنيها زوجته، ما هي إلا مصباح كهربائي ـــ bombilla ـــ كما يسميها الاسبان!

(المفارقة الثالثة)

يحكي لي طالب عربي ظريف إحدى المقالب التي لعبتها عليه اللغة الانجليزية في أيامه الأولى بأمريكا .. قال لي :

«كنت أسير في كلية الطب، فاعترض طريقي شاب أمريكي، وقال لي: «أنا طومي» فأمسكت بيده أصافحه، وأقول له: «تشرفت، وأنا محمد!» وابتسمت له سعيدا بالتعرف عليه، وأنا أقول في نفسي «ما ألطف هؤلاء الناس!» ولكنه نظر إلي بارتياب شديد، وتركني وذهب يقدم نفسه لطالب آخر، فلم يصافحه هذا، بل أشار له إلى إحدى الغرف .. وجاء من شرح لي أن الشاب لم يكن يقدم لي نفسه، بل كان يسألني عن قسم التشريح Anatomy! فخجلت لحركتي السخيفة !»

(تقاطع اللغـات)

للكلمات في كل لغة أقارب وأصهار، وأشباه، وتوائم في اللغات الحية الأخرى؛ إن لم تكن في معانيها ففي أصواتها .. فحين ينصت العربي إلى الانجليزي، مثلا، يتكلم لأول، وهلة، يعتقد أنه يفتح فمه فيسيل منه شريط مبلبل متواصل لا انفصال فيه للكلمات بعضها عن بعض !

وحين يستمع إلى الفرنسي يعتقد أنه لايمكن أن يقول شيئا ذا معنى .. فكل كلامه رغوة خفيفة عامرة ''بالغاءات'' ..

وحين يتكلم الاسباني تحسبه رشاشا يقذف بسيل متقطع من الرصاص! وقد سمعت الشاعر الأرجنتيني الكبير (بورخيص) يقول في مؤتمر الشعر العالمي لسنة 1984 بمراكش : «أنا لا يعجبني أن أكتب الشعر بلغتي الاسبانية ! فهي ليست لغة شعر .. فرضت علي فقط بحكم المولد !»

ولا يشعر العربي بأنه بدأ يتعلم هذه اللغات إلا حين يبدأ في سماع الكلمات مفصولة عن بعضها البعض، ويبدأ في جمع رصيده منها .. فالكلمات هي «آجر بناء» اللغة، ويحتاج اكتسابها إلى جهد ووقت طويل، واحتيال على الذاكرة لتختزن الكلمات، عن طريق اقترانها بكلمات أخرى تشبهها في العربية، ومن هنا كانت أهمية هذا البحث.

(نمـــاذج)

أثناء زيارة رئيسة الوزراء البرطانية، ''مارغريت ثاتشر''، لبلد عربي، سمعها الناس تقول لزوجها: «دنس!» فاندهشوا ظنا منهم أن رئيسة الوزراء تسب زوجها، وتصفه بانه «دنس» وغير طاهر ! ولم يستغرب الذين كانوا يعرفون أن «دنس» Dennis هو إسمه، ولا علاقة له بمعناه في العربية.

ولابد أنهم استغربوا كذلك حين سمعوه يناديها ب «ميج !» فظنوا أنه يرد لها الصاع صاعين ! ويقارنها بمقنبلة روسية .. ولكن العارفين فهموا أنه يناديها بنصف اسمها «مارغريت» تدليلا لها من زوج محب !

وإذا قال الانجليزي لخادم المطعم «فول» فإنه لايطلب منه فولا مدمسا، بل يشتمه ويصفه بالأحمق أو المغفل : Fool كما في «Aprils Fool» أحمق أو مغفل أبريل !

وإذا قال لك أمريكي «آيمبروك I'm broke» فلا يعني أنه رجل «مبروك» بل إنه مفلس خاوي الوفاض، ولعله يريد أن يستلف منك بعض الدولارات !

وإذا سمعت انجليزيا يقول : «ويست مينستر أبي»، فإنه لا يعني أن «الوزير (ويست) هو أبوه»، فكلمة «أبي : Abby» تعني «الدير»، أو الكنيسة. وإذا سمعته يقول «أرمي» فلا تسأله ماذا يرمي، فإنه يتحدث عن الـ «Army» أي الجيش.

وإذا قال طار Tar فإنه يعني القطران، لا الطيران. وكان Can تعني علبة. وبان Ban لاتعني ظهر، بل منع. وفار Far تعني بعيدا، لا الحيوان القارض، وبات Bat تعني الخفاش أو المضرب (في البيسبول)، وليس المبيت. وفات Fat لاتعني مضى بل سمين. وبيت Bait لاتعني المنزل، بل الطعم (لصيد السمك). وتعني كلمة مشروم Mashroom الفطر وليس شرم الأذن أي تمزيقها.

وحين يذكر الانجليزي أمامك كلمة شاي : Shy، فلا تنتظر أن يصب لك شايا .. إنه يتكلم عن «خجول».

وتعني كلمة «سن : Sin» عنده الذنب وليس إحدى الأسنان أو سنوات العمر. وكلمة فص Fuss لاتعني فص الخاتم، أو صفار البيضة، بل الضوضاء أو المبالغة في الاهتمام بشيء ..

وإذا سمعت عربيا يلعن دين Dean الكلية، فإنه يسب عميدها وليس دينها.

سمع طالب مصري أمريكيا يقول : «شايلو : Shiloh» فسأل : «شايل إيه ؟». و«شايلو» إسم مكان وقعت به معركة كبرى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية.

وسمعت عن طالب أمريكي طلب «كركي» من زميله العربي، فأجابه هذا: «من أين آتيك به ؟ إذا أردت الكركي فاذهب إلى بحيرة حديقة حيوان، فهي ملأى كراكي !» وبعد الشرح تبين له أنه يطلب منه مفتاح السيارة Car Key .. أما طائر الكركي بالانجليزية فهو Flamingo.

وإذا قال لك الانجليزي «شاور» فإنه لا يطلب منك التشاور مع أحد، إنه يقصد «الدوش» أو رشاش الماء في الحمام: CHAWER

(تريكــي ـــ ديكــي)

وأثناء رئاسة (ريتشارد نيكسون) للولايات المتحدة، سلك خصومه نعتا التصق به التصاقا خطيرا .. كانوا يسمونه : Tricky Dicky أي «ديك (تصغير ريتشرد) المحتال !» وسمعها طالب ليبي من طالب أمريكي فأمسك بتلابيبه ظنا منه أنه يشنع على عبد السلام التريكي، وزير خارجية ليبيا، ويقول إنه «ديكه!»

وكلمة «هام» من «هام على وجهه»، تعني عندهم لحم الخنزير Ham المدخن. و«رام» من «رام العلا» تعني نطح، Ram. و«لام» لاتعني «حرف اللام»، أو عاتب، بل الخروف Lamb.

ونتفق معهم في اسم «سام وسامي : Samy و Sam» ولكنها لاتشتق عندهم من السمو، بل هي اختصار اسم صامويل = السموأل.

«والجيم» لاتعني عندهم حرف «الجيم» بل إسما علما، مثل«جيمي كارتر»، الرئيس الأمريكي السابق. وهي تدليل «لجيمس».

وكلمة «جام : Jam» أي كأس كما في مطلع قصيدة الشاعر المغربي الأستاذ ابراهيم الالغي :

ذكريـــات تمر عامـــا فعامـــا   مثل مر الكؤوس جاما فجاما
تعني عندهم معاني شتى، مثل مربًى لفواكه، والتشويش على الاذاعات، وعصيان آلة وانحباسها، وانسداد الطريق بفعل ازدحام السيارات..

(تــــم)

ولابد أن أختم هذا القسم بنكتة حكاها طالب عربي ظريف على مسرح (جامعة كولومبيا) سنة 1959 عن طالب بدوي جاء للدراسة في أميركا، فسأله زملاؤه في الصف عن اسمه، فقال: «عبد الجبار بن عبد الجليل ولد خدايجة الكركوكي.» فقال له الطالب الأميركي سندعوك: «تم»!

وفرح الطالب العربي بالاسم الجديد لأنه عربي مشتق من التمام كما في «البدر التم».

وتعني هذر Héather الثرثرة بالعربية، والخلنج بالانجليزية. و«مان Man» تعني الرجل بالانجليزي، وبالعربية كذب. والمين هو الكذب. و Main ولاية في الشمال الغربي للولايات المتحدة.

(حــروف)

وهناك حروف بالعربية لها معاني بالانجليزية مثل: «نون = Noon» وهو الظهر، و «سين Seen» مرئي أو رئي و «شين Sheen» أي لمعان. ولام Lamb.

وهناك «نير Near» وتعني بالعربية الخشبة التي تجمع بين ثورين في الحرث، والتي هي رمز العبودية في الآداب. أما في الانجليزية فتعني «قريب».

وإذا قال لك الانجليزي «أنت Ant» فإنه لا يعنيك بل يقصد نملة ! وإذا سمعته يقول أنت للمخاطب المؤنث، فإنه يعني «ضد»، كما في Anti nuclear demonstations المظاهرات ضد الحرب الذرية.

وإذا قال «بط:But» فإنه لايعني الطائر الداجن، بل يقصد «لكن» وكلمة «لاك: Lack» لاتعني مضغ، بل نقص مثل Lack of faith. وكلمة «في: Fee» تعني عندهم ضريبة أو رسماً مالياً كرسوم الكلية : Tuetion Fee وإذا سمعته يقول : «شوك Shook» فلا تنظر إلى الأرض، فهو يقصد «هز» اليد بالمصافحة، أو حرك من «Shake Hand» أو «Shake Him Up».

وإذا قال «أنا Anna» فهو يقصد إسم امرأة ولايعني نفسه ! وكذلك «Ann آن» فهي لاتعني «آن الأوان» بل مجرد فتاة.

وإذا كان الطفل «ضمٌّ : Dumb» فهو يحتاج إلى عطف والديه وضمهما، لأنه أبكم أو أخرس أو بليدا! و «ركون Raccoon يعني حيوانا «ركونا» إلى الخمول من أميريكا الشمالية. وكلمة «رف Rough» بالانجليزية لاتعني «رَفّ» الكتب أو السلع، بل ينعت بها الخشن من الناس والأشياء. وكلمة هرس Harass تكاد تعني نفس الشيء في اللغتين. فهي بالعربية كسر وسحق، وبالانجليزية أنهك بالغارات وأزعج باستمرار..

وإذا سمعته يقول : «ريم Ream» فإن الانجليزي ليس على وشك أن يترنم بمطلع بردة شوقي :

«ريم على القاع بين البان والعلم   أحل سفك دمي في الأشهر الحرم»
ولكنه يقصد ببساطة رزمة ورق !

وإذا فاه بما يشبه كلمتي «شرق وغرب»، فأغلب الظن أنه لايقارن بين العالمين، وإنما يتحدث عن سمك «القرش : Shark» وعن «الزي أو الملابس Garb».

(الريف نط)

وسمع أحد رجال الثورة انجليزيا يقول : «الريف نط !» فظن أن الريف قام بثورة .. إلى أن أفهموه أن معنى كلمة «Reef Knot» هو «عقدة الشراع» ليس إلا، فعاد إلى شيشته !

وسمع لص عربي بلندن انجليزيا يقول: «شرطي!» فأطلق ساقيه للريح! وكان الانجليزي ينادي صديقه القصير القامة بقوله: «Shorty» و Short تعني قصير.

(غرور)

وقالت التلميذة المغرورة لزميلتها تثير غيرتها :

ــ أستاذ الانجليزية غازلني اليوم ووصفني بزهرة الآس !

ــ يا سلام ! وكيف قال لك ذلك ؟

ــ قال لي : «You are an ass»

ــ إنه شتمك، يا مغفلة ! كلمة «آس : Ass» تعني حمارة ! بل وشيئا أسوأ من حمارة !

وسمع أحدهم انجليزيا يقول : «دام : Dam» فظنه يريد أن يقول «دام لك العز !» حتى عرف أنه يتحدث عن سد لحجز المياه !

(من اللي شالو !)

وما دمنا في موضوع المياه، هل سمعت بالمصري الذي كان يبحث عن حذائه على الشاطىء، فسمع أميريكيا يشير إلى الماء ويقول : «شالو Shallow» فصاح به : «مين ؟ مين اللي شالو !؟» ليتبين، لسوء حظه، أن الرجل يعني أن الماء ضحل، قليل العمق !

وسمع العربي انجليزيا في ملعب الغولف يقول : «ماشي ..» فظنه يتحدث إليه بالعربية، إلى أن مد له صبيه عصا من عصي الغولف يطلق عليها إسم «ماشي Mashy».

وسمعنا عربيا يجادل بائع خزنات حديد قائلا : «أريد خزنة لاسيفا !» ولكن الانجليزي أصر على أن يبيعه «السيف Safe» فمعناه خزنة بلغته ! وهي مشتقة من السلامة.

(آيس كريـــم)

ويحب الأميريكان أن يلعبوا على أصوات لغتهم فيقول الطفل أو الفتاة : «I scream for ice cream !» «أصرخ من أجل مثلج !».

(كلمعي ورد ووغــد)

وسمع زائر عربي في مستشفى أحدهم يتكلم عن «ورد : Ward» فظن أنه يريد شراء باقة ورد لمريض، ولكنه أدرك، بعد ذلك، أنه يبحث عن «عنبر أو قسم في المستشفى».

وكاد فرنسي، في نفس المستشفى، أن يتعرض لغضبة عربي آخر حين نطق، في محضره بكلمة «ورد» التي تحولت على لسان الفرنسي إلى «وغد !».

(حريـر وسلـك)

والتفتت سيدة عربية في دكان قماش بلندن إلى زوجها مستغربة بلادة الانجليز : «أنا أطلب منه قماش حرير، وهو يريد أن يبيعني قماش سلك ؟!» ولم تهدأ حتى شرح لها زوجها أن كلمة سلك Silk تعني عندهم الحرير !

(الرنـد)

وسمعت السيدة أحدا يتكلم عن «الرند Rand» فطلبت من زوجها أن يشتري لها منه شيئا : «طعمه طيب في الطبيخ !»

فرد عليها إن هذا النوع من الرند طعمه رديء جدا، ورائحته غير طيبة. فهو «عملة جنوب أفريقيا !»

وطلب معلم الانجليزية من تلميذه أن يترجم «Home Sweet Home !» فقال «ما أحلاهم !»

وحين يقول لك الأميريكي عن شيء أو وضع إنه «ماس Mess» أو «ماسي Messy» فإنه لايعني أنه في جمال الماس أو نفاسته، ولكنه يقول إنه فوضوي أو فوضى !

وإذا قال «ملك : Milk» أو «ملكي : Milky» فإنه لايشير إلى شيء يملكه، بل إلى اللبن، أو الشيء اللبني، مثل المجرة أو الطريق اللبني Milky Way.

وإذا تحدث عن «ريف Reef» فلا يعني البادية أو جبال الريف المغربية، إنه يعني ثنية الشراع أو سلسلة صخور قريبة من سطح البحر.

وما دمنا في موضوع البحر فإن كلمة «سيل : Sail» أو «Sale» لاتعني

السيل، كما في «سيل العرم» بل تعني الشراع أو المبيع التجاري.

وكلمة «إرث : Earth» لاتعني التركة، بل معناها الأرض. «وكان Can» كما في «كان يا ما كان في قديم الزمان» تعني مجرد علبة معدنية أو فعل «يقدر» من القدرة. وكلمة «نون Noon» لاتعني جمع نونة أي الحية المائية أو حرف «النون» كما في الآية الكريمة «نون، والقلم وما يسطرون»، بل تعني الظهر أو الظهيرة. «وأيد Aid» لاتعني الأيدي كما في قوله تعالى : «والسماء رفعناها بأيد، وإنا لقادرون» بل تعني «المساعدة».

وإذا سمعته يقول إن فلانا «ساد : Sad» فلا تفرح له لأنه أصبح «سيدا»، فهو في الحقيقة «حزين».

وإذا سمعته يقول «مات : Mat» فلا تحزن كذلك .. لأنه فقط يتكلم عن بساط الباب ! وإذا قال لك «دور : Door» فلا تدر، فهو يعني الباب. وعندما يدخل الانجليزي الأكرش الحانة ويطلب «بير Beer»، فلا تنزعج، فهو لايطلب بئرا من الشراب، إنه يطلب جعة «بيرة».

وكلمة «فرم Farm» لاتعني عندهم طحن اللحم كما هي في مصر، بل تعني «مزرعة» وحين يقول لك الأميريكي «سلامي Salami» فإنه لا يقصد السلام عليك .. بل يطلب لحما إيطاليا مصبرا.

(أسمـــاء اعـــلام)

وكان صديقنا محمد بريطل يعتقد أن إسمه العائلي مشهور في أميريكا حتى تبين أن كلمة بريطل Brittle تعني عندهم «هـش» أي سريع التفتت.

وفي حصة الانجليزي بالمدرسة الخديوية، أيام كنت طالبا بها في

الخمسينات، كان الطلبة يتسلون باسم اسكوتلاندة، فيقول الواحد منهم للآخر مهددا : «اسكت لا انده المدير !»

وسمع عربي أمريكيا يقول : «أكلهما»، فظنه يتحدث عن شجرتين آتيتا أكلهما أو أثمرتا ! ولكنه تبين أن الأمريكي يتحدث عن ولايته «أوكلاهوما Oklahoma».

ويوم الخميس 1985.10.4 سمعت مذيعا ظريفا يشرف على برنامج موسيقي لرغبات المستمعين بالاذاعة البريطانية B.B.C يسأل فتاة أمريكية من أين هي، فأجابت من ولاية أيوا Iowa، فعلق : «أنا استعمل تلك الكلمة دائما حين أذهب إلى البنك ــ أقول لهم I owe you! وتعني «أنا مدين لكم !»

كلمـــات نابيـــة

وفي كل لغة كلمات لايستحسن ذكرها بصوت مرتفع في لغات أخرى مثل : East التي تعني الشرق، و Dart وهي السهم القصير الذي يرمى باليد، و These أي الرسالة أو الأطروحة الجامعية بالفرنسية ــ وبالنسبة للانجليز، لايصح أن تنطق بكلمة Fahrt الألمانية التي تعني مخرجا من طريق. وكلمة «آس: Ass» التي تعني عندنا زهرة جميلة، وعند الانجليز حمارة أو است. وكذلك الاسم العلم Nick.

(نكـــات صغيـــرة)

وسمعت بعض أطفال العائلة يحكون نكاتا عن حصة الانجليزية في مدرستهم، فقال الأول : طلب المعلم من ابن متسول أن يأتي بكلمة : «هات Hat»، وتعني طربوش، في جملة مفيدة؛ فالتفت المتسول إلى جاره، وقال :

«هات صدقة لله.» وطلب المعلم من جاره أن يأتي بـ (فات : Fat) وتعني سمين، في جملة مفيدة، فالتفت إلى ابن المتسول وقال : «فات الأوان.»

(وفي الفرنسية)

ضحك الطفل العربي من معلمه الفرنسي حين أشار هذا إلى رجل وقال : إنه «أُمّ !» فالرجل لايمكن أن يكون «أماً!» ولكن المعلم الفرنسي أصر على أن «أُمّ Homme» هو الرجل في لغة بلاده. ولا يستغرب شيء من الفرنسيين في هذا المجال.

وسمعت عربيا دخل يتعلم الفرنسية ليذهب لسفارة بلاده في فرنسا، يعلق ضاحكا : «هؤلاء الفرنسيون حكماء ! فقد أطلقوا على المرأة إسم أنشط عضو في بدنها، وهو الفم ! فسموها «Femme !»

وصحح العربي معلمه الفرنسي حين سمعه يقول : «ما ـــ فمي ..» قائلا : «لاداعي لـ «ما» .. فكلمة «فمي» تكفي للاشارة إلى فمك ـــ ولكنه خجل حين عرف أن الرجل لم يكن يقصد فمه، بل أسرته «ma famille».

وإذا قال الفرنسي «بُلُوا Boulot» فإنه لايتحدث عن أقوام اصابتهم بلية؛ ولكنه يتحدث عن «عمله أو مسؤوليته.»

وإذا نطق بكلمة «مغشي» فلا تسارع إلى نداء الاسعاف لنقل «المغشي عليه»، إنه فقط يتحدث عن «السوق : Marché».

وحين يقول الانجليزي نفس الكلمة فإنه يعني بها الأرض السبخة ذات المستنقعات. Marshy Land. ولا يقصد بها مرتشيا ..

وحين يخبرك الفرنسي بهجوم «الكَفَر» فلا تسارع إلى استلال سيفك للجهاد ! واكتف بعلبة ميد للحشرات، فإنه يعني الخنافس وصراصير المطبخ: «Cafards».

وقال الفرنسي لجليسه الانجليزي في الحانة مشيرا إلى زميل ثالث غلبه السكر فنام : «Il est mort !» فظن الانجليزي أنه يطلب منه أن يزيده شرابا «more» ولم يدر أنه يقول له : «إنه ميت : Mort !»

وحين يقول الانجليزي «monk» والفرنسي : «manque» فإن الأول يقصد «الراهب»، والثاني يقصد «النقص» أو «الشوق !».

(مـــوش)

وذهب مصري إلى دكان فرنسي ليشتري مبيدا للذباب فسأله هذا ماذا يريد؟ فرد بأنه «موش عارف الكلمة بالفرنسية!» فابتسم الفرنسي فاهما وغاب ثم عاد إليه بعلبة للذباب: «موش Mouches!»

وكلمة «ريش Riche» لاتعني عند الفرنسيين ما تعنيه عندنا؛ ولكنها قريبة، فنحن نقول عن الغني إنه «مريش» يعني كثير الريش «وهم يقولون «Riche».

وإذا قال لك الفرنسي «ميل»، فإنه لايطلب منك أن تميل، فكلمة «ميل mille» تعني عندهم ألفا.

وسأل ضابط فرنسي الجندي المغربي : «أين السرجان ؟» فأجاب : «إنهما في الاسطبل !» وذهب وجاءه بسرجين للركوب وبعد أخذ ورد، فهم أنه طلب: «ضابط الصف : Sergent».

(ظهر الفساد !)

وفاه فرنسي بكلمة : «فساد» أمام عربي متدين لايعرف الفرنسية، فرد عليه : «أنتم أهل الفساد .. وناشروا الفساد في الأرض ..» وكان سيستمر لولا أن استوقفه صديق ليشرح له أن : «الفساد Façade» عندهم تعني الواجهة لاغير !

وإذا سمعت فرنسيا يقول : «ديس» فإنه لايتحدث عن بئيس «ديس» بالنعال؛ ولكنه يقول رقم «عشرة Dix»

وإذا قال لك «دوس : Douce» فإنه لايطلب منك أن تدوس شيئا، بل يقول عن شيء إنه «حُنْو» أو «ناعم.»

وإذا سمعته يقول : «شتيمة» فإنه يعني «العقوبة : Chatiment» لا «السب!»

وسمع السوسي (رجل من أهل سوس بجنوب المغرب) فرنسيا يقول : «Ne faites pas de soucis !» فظنه يقول : «لاتتصرف تصرف السوسي !» فأراد أن يغضب لبنى قومه، لولا أن أفهمه زميل أن «السوسي» تعني عند بني جنسهم «القلق»، فهو يطمئنك بقوله : «لاتقلق !»

وطلب فرنسي من صاحب دكان في إحدى القرى «الويل!» فأجابه : «تغرق فيه حتى الأذنين !» لم يفهم القروي أن الفرنسي يطلب «زيتا : Huile»

وإذا كان العربي والفرنسي على طرفي نقيض فيما يخص كلمة «فيل»؛ فهي عندنا أضخم حيوان، وعندهم أرق شيء، وهو الخيط File، فإن الانجليزي خرج بلباقته الأنجلوساكسونية من الجدل، وجعل كلمة «Feel» تعني «أشعر» أو «شعر» !

ورغم ذلك فقد سببت الكلمة للانجليزي حرجا بالغا حين سأل طالبا عربيا شديد السمنة، وحساسا من ضخامة جسده : «How do you feel ?» فرد عليه الطالب غاضبا : « الفيل هو أبوك !». وكان الانجليزي المؤدب يسأله فقط : «كيف يحس ؟» على إثر وعكة.

وهناك كلمات في الفرنسية مثل : «صال Sale» وتعني القاعة أو الغرفة، ولاتعني أن أحدا «صال» أو جال. وكذلك «السيما» من «سيماهم في وجوههم» الآية الكريمة. معناها بالفرنسية «الاسمنت Ciment». وكلمة «صُمّ» لاتعني الذين لا يسمعون، كما في الآية الكريمة : «صم بكم فهم لايعقلون» بل هي مجموع «حساب : Somme».

وإذا قال لك مغربي، وأنت تسوق سيارة، أن تقف عند «فروج» فهو لايطلب منك الوقوف عند «ديك»، بل عند الضوء الأحمر Feu rouge بالفرنسية!

وفي أحد أقسام تعليم الفرنسية للكبار، فاجأ المعلم تلميذا بكلمة : «أنشا.» فالتفت الطالب إلى زميله يسأله: من هذا الذي أنشأ؟ وماذا أنشأ؟ هل سيعلمنا العربية؟

وقاطعه المعلم ليشير إلى صورة قط على السبورة، ويعيد : «Un Chat».

وكذلك حين صاح في آخر : «إنشط !» فاحتار الرجل ماذا يفعل ليظهر النشاط للمعلم ! ولكن هذا أنقذه بالاشارة إلى صورة قطة ترضع أطفالها مكررا «Une Chatte» ..

وسمع عرب فرنسيا يصيح في مزرعة من خلف سياج : «كنز ! كنز!»

فظنوا أنه عثر على كنز ! Quinze ولم يعرفوا أن كلمة كنز تعني عند الفرنسيين رقم خمسة عشر، وأن الفرنسي كان يبحث عن بيض !

وحين يقول الفرنسي «أنكر !» فإنه لاينكر شيئا، بل فقط يستزيد من شيء كالأكل أو الغناء .. «Encore» «أعد !».

ويظن المصري أن الفرنسي يسأله عن أحد حين يقول : «مين»! وهو في الحقيقة يقول (منجم Mine).

وكان إسم حارس المدرسة الفرنسية «علي»، فكان يلتفت كلما سمع كلمة aller التي تعني «ذهب ! ومضى.»

(اللهجة المغربية)

أراد أحد السفراء الأمريكيين بالمغرب أن يتعلم اللغة العربية، فاتخذ أستاذا، وبدأ يتعلم باجتهاد كبير، إلا أنه أحس أنه لايستطيع فهم رجل الشارع، فأسرَّ بذلك لصديق مغربي، فأجابه هذا :

«إذا أردت تعلم اللهجة المغربية، فعليك بخرق أحد قوانين اللغة العربية المقدسة !»

فاندهش السفير، وسأل ماهو هذا القانون. فأجاب محدثه :

«يقال إن «العربية لاتبدأ بساكن، ولاتقف على متحرك» ! والمغاربة يبدأون بساكن في لهجتهم الدارجة، وفي الصحراء المغربية يقفون على متحرك ! وهذا سرُّ سرعة لهجتهم، وصعوبة فهمها، لأول وهلة حتى على إخوانهم عرب المشرق!»

وبدأ السفير يُسَكِّن أوائل بعض الأسماء والأفعال الماضية، ويتوقع من مخاطبيه أن يفعلوا، فانحلت عقدته !

وهكذا حين ينطق المغربي كلمة «دْواء الدواء» فإنك لا تُمَيز بينها وبين كلمة «دوا Doit» الفرنسية التي تعني الاصبع أو فعل «وجب» وكذلك الأمر في «شْواء» : الشواء التي تعني «الاختيار» بالفرنسية : «Choix» و «سوا» أي سواء، وتعني الحرير «Soie» بالفرنسية. وكلمة «فوار» التي تعني «البخار» بالعامية، و «سوق عام»، أو المهرجان التجاري Foire بالفرنسية.

وهناك كلمة (طوى : Toi)، وتعني بالعامية طوى الشيء، و «أنت» بالفرنسية أو السقف حين تكتب «Toit». كما في القولة المغربية : «اللي طْوى شيء طْواه»، وتعني «فات الأوان !»

وكلمة «رْوى» من الرَّيّ تعني الملك في الفرنسية «Roi» وكلمة «الرَّيّ» القريبة من «الرأي» تعني «الملك» كذلك في الاسبانية Rey. فحين يقول أهل الشمال المغربي : «ما أنت شي الرَّيّ !» فإنهم قد يقصدون الاثنين : صاحب الرأي، والملك ! أي «لست الحاكم بأمرك !»

وكلمة «كْوى : Quoi» تعني «الكَّيّ» بالعامية، و«ماذا ؟» بالفرنسية. وكلمة «لوى : Loi» عندنا تعني «لوى» الشيء ثناه، وعندهم تعني — وليس بدون مفارقة ساخرة — «القانون !» وكلمة «طري : Très» تعني طازجا عندنا، وعندهم تعني «جدا أو كثيرا.»

وكلمة «دير dire» تعني «افعل» أو «اعمل» بالدارجة أو «دير» الرهبنة. وبالفرنسية تعني «قال»

ولاننسى القروى الذي قال له الفرنسي «دوز» وتعني «جُزْ» من جاز

يجوز، فجاز، فأمسك به الفرنسي، ومد إليه يده : «دوز douze» أي «إثنى عشر» فرنكا !

وتعني كلمة «magnifique» رائع أو هائل !» وبالدارجة المغربية «ماني فيك !» أي «لست الآن في شأنك !» أي «دعني وشأني !»

(سيــر)

وتعني كلمة «سير» عند الفرنسيين سيدي أو مولاي ولكنها لا تعني عندنا إلا حزام مطحنة ــ ومنها جاءت القولة المشجعة على الرشوة «ادهن السير يسير!»

وكلمة «شي chez» المستعملة على واجهات المطاعم والمقاهي، التي تعني «مكان» أو «دار»، تعني بالعامية «شيء» أو «شيء ما»، كما في «شي فرح !»، أي «فرح ما !» أو «محل فرح» الخياطة.

(لهجـات العاميـة)

وقد تتعدد اللهجات وتختلف في عامية واحدة باختلاف المناطق، وتحدثُ نفسُ المفارقات العجيبة المضحكة حين تتقاطع اللهجات ..

سمعت مرَّة فتاة تُغني في أحد أزقة طنجة : «فؤادي في حبّك مجروح..» وتنطق كلمة «فؤادي» «فقادي» بالقاف. فحاولت تصحيح نطقها، فأصرت على أن نطقها هو الأصح، لأنها ليست طنجاويـة، وأهل طنجة هم الذين ينطقون القاف ألفا ! وهي لاتنوي أن تنجرف في تيارهم المائع !

أردنــي

وفي حديث بين سيدتين إحداهما رباطية والثانية بيضاوية، ذكرت الأولى

أن زوجها «أردني»، فسألت الثانية باستغراب : «كيف تزوجت بأردني ؟ هل ذهبت إلى الأردن؟» فشرحت لها الرباطية ضاحكة أن زوجها إسكافي، أي Cordonier بالفرنسية !

ذلك أن بعض الرباطيين يحولون الكاف ألفا، والخاء حاء. وكثيرا ما يضعهم ذلك في مواقف حرجة مع غير الرباطيين !

(الذاهبة إلى إيران)

ومثل ذلك ما حصل للشاب الخالي الذهن الذي سألته سيدة عن كيف تصل إلى «إيران»، فاستغرب لمظهرها الشعبي الذي لا يوحي بأنها مسافرة دولية، وأخذ يشرح لها أن عليها أولا أن تذهب إلى السفارة الايرانية للحصول على تأشيرة الذهاب، إذا كان لها جواز سفر، ثم تذهب إلى شركة الطيران لتقطع التذكرة، فاستوقفته السيدة التي فتحت فمها دهشة لكلامه، وقالت : «أنا أريد فقط موقف (الأيران) التي تذهب إلى الدارالبيضاء !»

وحينئذ تبين أن المرأة الرباطية كانت تعني «الكيران» أي جمع «كار» وهوالحافلة بالفرنسية التي تبناها العوام.

(السياســة)

ولايمكن أن نترك هذا الموضوع دون ذكر قصة «السياسة» العجيبة ! وهي نموذج مثالي لسوء التفاهم الذي يمكن أن يحدث عند تقاطع اللغات، بل وحتى اللهجات في لغة واحدة !

يحكى أن رجلا من أهل (مكناس) كان معروفا بالسُكر والعربدة لدرجة أن الشرطة لم تكن تقبض عليه إلا عندما يأتي عامل جديد ويأمر بجمع

سكارى المدينة في فترة حماسه الأولى. وكان كلما جاؤوا به إلى عامل سأله هذا السؤال التقليدي : «هل سبق لك أن سجنت ؟» فكان يجيب «بنعم» وحين يسأله لماذا يقول له : «بسبب السياسة في عهد الفرنسيين»، فيُطلق العامل سراحه، اعتقادا منه أنه قبض من أجل الوطنية ! إلى أن جاء عامل مهتمٌّ بفترة المقاومة التي أدّت إلى الاستقلال، فسأله : «وكيف كان ذلك ؟» فقال المكناسي : «كنت ياسيدي، أبيع الشواء في السوق، فجاء عسكري وأكل حتى شبع، ورفض أن يدفع، فنزلت فيه ضربا بالسياسة الشياشة — أي المروحة — التي أزندبها النار! فجاءت الشرطة وذهبوا بي إلى السجن !»

وهكذا أفلت االسكير من العقاب مدة طويلة بسبب لثغته المكناسية الخاصة، التي تتحول فيها الشين إلى سين !

(بين العامية والانجليزية)

وفي اللغة الانجليزية كذلك كلمات كثيرة تشبه كلمات عامية مغربية، مثل «آش Ash» التي تعنى عندهم «الرماد»، و «آش كاين ؟».

وكلمة «سْلام Slam» تعني عندهم «صفق» شيئا كالباب مثلا وتعني السلام والتحية عندنا، كما في «خير وسلام» التي يقولها لك الواحد حين تريد أن تحكي له حلماً.

وكلمة «مون Moon» تعني القمر عندهم، والميناء عندنا. وكلمة «شريك Shriek» تعني عندهم الصرخة، وعندنا «الشريك» في تجارة أو مشروع ما — وهي الأخرى لاتخلو من مفارقة ساخرة، كما في حكاية الشريكين اللذين ركبا الطائرة، فالتفت الأول للثاني فزعا : «أتعرف ؟ نسيت أن أقفل الخزنة !» فرد

الثاني : «اطمئن ! فكلانا هنا !» ويعني ذلك أنه ليس أخطر على الشريك من شريكه !

وهناك كلمة «دريري Dreary» التي سمعتها القروية من سائحة انجليزية وقفت تنظر إلى السماء الكالحة وتقول : «It's a dreary day !» تعني «إنه يوم كئيب» فالتفتت لصديقتها تشرح لها : «النصرانية تطلب من الله أن يعطيها «ذُريري.» و«ذريري» تعني بالعامية تصغير «ذري» أي الطفل (من ذرية).

وكلمة «كلام» : Clam» تعني المحارة بالانجليزية. ويقال عن الشخص الذي رفض «الكلام» :«He shut up like a clam !» أقفل كالمحارة ! ومن هذا التعبير قد تتسرب طرفة أو مفارقة.

وكلمة «بْرَاوْ»، وتعني «برئوا وشُفُوا» من وعكة أو مرض، لها نفس صوت : Brow أي الحاجب. و«كرط» تعني «حجرا» بالعامية، و «عربة : Carte» بالانجليزية، وبطاقة بالفرنسية.

(خروشيف في القاهرة)

وكلمة «شرط Charte» تعني الميثاق بالفرنسية، وأحد الشروط بالعربية. وتذكرني بالكلمة التي قالها رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي الأسبق (نيكيتا خروشيف)، في مسرح جامعة القاهرة، عند زيارته لمصر، في أواخر الخمسينات، ليوقع اتفاق بناء (السد العالي) الذي كانت أمريكا اشترطت لبنائه مصالحة مصر (لاسرائيل)، فرفض الرئيس عبد الناصر، وتوجه نحو (روسيا) التي استقبلته بالاحضان.

وكانت كلمة «المساعدة المشروطة» حينئذ كلمة قذرة .. فخطب (خروشيف) في طلبة الجامعة عبر ترجمان محنك. وتعلقت أنفاس الجماهير المزدحمة

تحت قبة الجامعة حين قال : «ليس لمساعدة الشعب السوفييتي للشعب المصري إلا شرط واحد !» وترجم الترجمان وسكت فانخلعت القلوب .. وعاد (خروشيف) ليقول : «وهو ألا يكون لها شرط !!»

وكادت قبة القاعة تسقط من هول التصفيق !

وعلى ذكر (روسيا)، فإن إسمها بالانجليزية Russia، وتنطق «رشا» مثل غزال في البيت الأندلسي :

«يانسيم الروض خبر بالرشا لم يزدني الورد إلا عطشا»

أو «رشا» من «رشوة !»

وإذا سمعت الفرنسي يقول : «ديني ديبا Diner Debat» فإنه لايتكلم عن دينه، ولا عن (فرح ديبا) زوجة الشاه الراحل؛ ولكنه يتحدث عن «عشاء ومناظرة.»

وهناك كلمات أقرب ما تكون إلى العربية في لفظها ومعناها، مثل Cut بالانجليزية، ومعناها قطع، أي (قط) مثل (فقط). وكذلك Cat أي (القط) الحيوان الأليف وتنطق «كات» مثل «القات» الذي يمضغه أهل اليمن. وكلمة (Falta) بالاسبانية تعني بالضبط (فلتة) في العربية أو (خطأً).

وكلمة (بلد : Balad) تعني أغنية بالانجليزية، وتنطق مثل (بلد) بالضبط. فهل كانت الأغنية في البداية حنين الغريب «للبلد» ؟

وهناك سيارة سويدية تسمى (صعب Saab) هل يكون صاحبها من أصل عربي هاجر إلى «السويد» في قديم الزمن مقتفيا طريق السفير العربي « أحمد ابن فضلان» الذي أخذه السكاند ينافيون معهم إلى أصقاع الشمال قبل ألف عام، في عهد الخليفة المقتدر العباسي؟

وحين يقول الثري الأميركي لزوجته أو خطيبته الشابة الجميلة : «سأشتري لك منك !» فإنه لا يتفلسف، ولا يشطح شطحات الصوفية .. ذلك أن كلمة «منك Mink» بالانجليزية تعني حيوانا شبيها بالثعلب أو ابن آوى، له فروة جميلة وغالية جدا ! والأثرياء يستعملونها مفتاحا لقلوب الحسان !

وهناك كلمة (Toe) وتعني أصبع القدم، و (Tow) وتعني جرُّ الحبل مثلا، بالانجليزية تنطق تماما مثل (Tot) الفرنسية التي تعني مبكراً. ويمكنك أن تتخيَّل كيف يلعب بعض الماكرين بهذه الكلمات !

(تـو ــ تـو ــ تـو !)

وقد يتعرض الانجليزي أو الأميركي إلى بعض الحرج من الذين لايتقنون الانجليزية؛ وحدث فعلا أن سمعت طالبا عربيا خاماً يقول لزميله : «هؤلاء الأميركان مجانين .. وخصوصا هنا في (نيويورك) حيث تقول الاحصائيات الرسمية أنه يوجد من بين كل خمسة أشخاص اثنان مخبولان ! تصور أنني سألت أحدهم عن الساعة، فبدأ يغني لي «تو تو تو !» ولكن صديقه الذي كان أعلم منه قليلا باللغة صَحَّحَ تصوره قائلا : «الرجل لم يكن مجنونا. وقد قال لك الساعة فعلا.. فكلمة «تو ــ تو ــ تو» تعني «دقيقتين إلى الثانية» أي «Two to two».

ونادى ألماني أعرابيا بكلمة «هرّ» فغضب العربي، وردَّ عليه : «إذا كنت هِراً ــ قطاً ــ فأنت كلب !» وعاد يعتذر للألماني حين علم أن كلمة (هرّ) تعني «سيد».

(كفريسات)

وفي بداية القرن كان الفقهاء من محدودي الذكاء يُجادلون في أن كل

اختراع جديد قد تنبأ به القرآن الكريم، بل وذكره بالحرف، مثل «السيارة» في قوله «وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم» من سورة (يونس) والطائرة، في «قالوا : طائركم معكم» من سورة (يس)، والآلة (المكينة) في قوله : «في قرار مكين»

وشنّع عليهم بعض الظرفاء بقولهم : وكذلك (الكوكا كولا) في قوله — تعالى علوا كبيرا — «وتركوك قائما».

(في اللغة الاسبانية)

توجد، كما هو معلوم، في اللغة الاسبانية القديمة حوالي أربعين بالمائة من الكلمات العربية. ومن الباحثين من يرفع الرقم إلى سبعين.

وتتسبب هذه الظاهرة في كثير من المفارقات والمواقف المضحكة أحيانا. حكي لي السيد مولاي أحمد اللحياني، وهو من أعيان مدينة (سلا)، أنه أثناء زيارة له إلى إسبانيا ذهب إلى دكان ليشتري زيتا. وبما أن الاسبانية والفرنسية مُشْتَقَّتَان من نفس الأصل، وهو اللاتينية، فقد طلب من صاحب الدكان أن يعطيه .. «الويل Huile». فلم يفهم الرجل، وظل يحاول أن يتفاهم معه، وهم يقلبون الكلمة على أوجهها من «ويل» إلى «أويل» إلى «أوليو»، والرجل يحرك كتفيه، ويبتسم عاجزا عن الفهم.

والتفت مولاي أحمد إلى زوجته يائسا، وقال لها : «ياترى ما ذا يسمي هؤلاء الزيت ؟!»

وساعتها ابتسم البائع فاهما، وقال «أسيتي Aseite» وأعطاهم الزيت.

وهذه الكلمات لا تهمنا هنا، فبعضها قد فسد نطقه بحيث أصبح لا يفهم من جانب العرب، مثل «الموادة Almoada» المخدة، و «Almolacinazgo» أي

«المحتسب»، و «الطوب Adobe»، و «القميص : Camisa» التي لعب بها العرب كرة الصاولة مع الاسبان، فأرسلوها إليهم «قميصا»، فأعادوها «كميسة : Camisa»، وأخذها المغاربة منهم فحولوها إلى «قميجة !» فمن أين جاءت تلك «الجيم» التي حولت كلمة لطيفة إلى صوت بشع قريب من كلمة «فجٌ يفجُّ» الدارجة التي تعني «خنق». فهل معنى هذا أن القميص بالشكل الأوروبي الحديث «يفج» لابسه !؟

ليس هذا موضوعنا ..

ما يهمنا هنا هو الكلمات التي يتشابه نطقها في اللغتين، وإن اختلفت معناهما. مثل «دودة Duda» التي تعني الشك عند الاسبان. وما أشبه الشك بدودة تحفر في يقين الشخص وتنخره !

(بطــون)

وهناك كلمة «بطون Boton» وتعني عندهم غير ما تعني عندنا ـ وقد تسبب الاختلاف في حادث طفيف كاد يودي بوظيف شاب إسباني يعمل في فندق فخم يقصده أثرياء العرب. فقد دخل جماعة من هؤلاء إلى قاعة الفندق، وكان من بينهم ثري ضخم الجثة ذو بطن بارزة لا تكاد السترة تنعقد عليها، فتقدم منه الخادم الشاب على استحياء، وعلى مرأى ومسمع من بقية الأثرياء والحريم، أشار إلى كرشه قائلا : «سينيور البطون !» فقهقه الجميع ضاحكين إلا صاحب البطن الذي كان حساسا من ضخامة حجمه، وخصوصا وأن المشنع عليه عامل صغير لا يرق إلى مقامه العالي، وأن النكتة التي قالها عن بطنه بوصفها بالجمع «بطون !» ستنتقل بين الأثرياء العرب الذين يملأون أندية قمار الأندلس، ونوادي دعارتها بسرعة نار الغابة الجافة... فصفق حالا «للميتر» الذي جاء يقدم

السمع والطاعة «لخزنة الدولارات الحية» التي وقفت أمامه على قدمين مثل بشر حقيقي، واشتكى له من وقاحة الخادم الذي وقف يرتعد غير عارف أيَّ جريمة ارتكب..

وبعد استنطاقه تبين أنه كان فقط يود تقديم خدمة للضيف الكبير بالاشارة إلى الزر : Boton الذي كاد يسقط من سترته ونظر الثري إلى الزِّرِّ فأدرك أنه أخطأ في حق الخادم، فأخرج من جيبه دولارات وضعها في يده، وطبطب على ظهره بيد ضخمة أشبه ما تكون بفخذ خروف.

(فطـــال وطبلـــة)

ومن الكلمات المشتركة في الصوت كلمة «فطال : Fatal» كما في الآية: «فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم .» وتعني عندهم «قاتل» وإذا اقترن الطول بـالانتظار وضياع العمر، كان قاتلا فعلا !

وكلمة «طبلة : Tabla» كما في طبلة الأذن، وطبلة العزف. وتعني عندهم الخشبة مثل السبورة. وكلمة «خيرة Jira» وهي إسم امرأة في المغرب، وتعني عندهم «يدور أو تدور.» و «ميا : Mia» التي تعني عندنا رقم مائة وعندهم «لي» للمؤنث. وكلمة «خرُّوا : Jarro» كما في الآية الكريمة «خروا سجدا وبكيا» أي هووا إلى الأرض، تعني عندهم ذورق.

(خـــــويا)

وكلمة «خويا» التي تعني أخي بالعامية تسببت في سوء فهم ظريف توقفت بسببه عملية مغازلة شاب عربي لايعرف الاسبانية لفتاة جميلة جدا ــ فقد سمع شابا إسبانيا يناديها بـ «خويا» فظن بها الظنون ! فالشواذ في أوروبا كثيرون، ويتقنون تقليد النساء لدرجة الكمال ــ وابتعد الشاب عنها ليدرك بعد فوات الأوان، أن كلمة «خويا Jolla» تعني عندهم «جوهرة !»

وهناك كلمة «ندر Nadar» وتعني عندهم «سبح» في الماء، و «أمر Amar» أي أحب والحب لايأمر بل يؤمر ! و«كسر Casar» وتعني عندهم «تزوج» .. وإذا كان الزواج عندهم هو «الكسر» فماذا يكون الطلاق ؟!

(تقاطـع دولي)

وكما تتقاطع العربية مع جميع لغات العالم، تتقاطع هذه اللغات مع بعضها البعض، وتنتج عن ذلك بعض الطرائف والمفارقات الفكرية.

(كارنـي وكارنيـه)

حكى لي صديق زار إسبانيا في عهد الجنرال (فرانكو) الذي كان معروفا بالديكتاتورية وذهب إلى جزار لشراء اللحم، فسأله هذا : «كارنيه ؟» فقال في نفسه : «هذه هي الديكتاتورية، وإلا فلا ! حتى شراء اللحم يحتاج إلى «كارنيه» أي بطاقة التعريف !» إلا أنه عرف فيما بعد أن Carne تعني اللحم عند الاسبان، وليست Carnet التي هي بطاقة عند الفرنسيين.

وكلمة «طار» تعني أشياء مختلفة في ثلاث لغات. ولثلاث أجناس؛ فهي الطيران عند العربي، والتأخر عن الموعد Tard عند الفرنسي، والقطران أو الزفت عند الانجليزي، Tar.

وكلمتا Prophet و Profit أي النبي، والربح، قد تتسببان في بعض سوء الفهم في بعض المواقف فلا فرق بينهما في النطق بالنسبة للناطقين بالانجليزية.

وكلمة «Bark» تعني النبح أو قشر الشجر والحاءه في الانجليزية، و «Barque» تعني المركب أو القارب في الفرنسية.

وكلمة «Red» تعني أحمر بالانجليزي، وشبكة بالاسباني. وكم تحول

الأحمر في شفاه الحسان وخدودهن إلى شباك وقع فيها العشاق !

وهناك «Dark» وتعني قاتم بالانجليزي، و «D'arc» نسبة إلى القوس بالفرنسي كما في «Jeanne D'arc» المناضلة الفرنسية ضد الانجليز.

(كـــاخا !)

هذه كلمة ينبغي التوقف عندها لحظة .. وهي عبرية، وتعني نوعا من التّحدّي والاستهانة مثل «هوكذلك !» التي ردَّ بها رئيس وزراء الدولة الصهيونية «إسحاق شامير» على صحافي أمريكي حين سأله عن مقتلة بيروت قائلا : «ألم تفعلوا في بيروت نفس ما تشتكون من أن النازين فعلوه بكم ؟» فرد عليه بـ «كاخا !» أي «هو كذلك !» يعني «اشرب البحر !»

وللجيش الاسباني شعار مشهور هو «فاخا أو كاخا: «Faja o Caja ومعناه :«حمالة أو تابوت !» حمالة الشرف عند الانتصار، أو تابوت يحمل فيه قبره بعد السقوط في الميدان.

ونحن نتمنى «لشامير» وأمثاله من قُطّاع الطريق، هذه «الكاخا» الاسبانية !

(جزيمـات أوهايـو)

ومن أطرف ما سمعته في هذا المجال، ما روي عن طالب مصري في الولايات المتحدة كان يقيم في البيت الدولي بنيويورك، فسمع بعض اليابانيين يتحدثون، واستطاع أن يلتقط هذه العبارة : «أوهايو جزيمات»، فذهب إلى شلة من أصدقائه ليعلق على ما سمع :

«عجيب أمر هؤلاء اليابانيين؛ بمجرد ما وصلوا إلى أمريكا للدراسة أخذوا يتاجرون في «جزم» أحذية الأطفال التي تصنع في ولاية (أوهايو)!»

وحين سألوه كيف عرف ذلك، قال : سمعتهم يرددون : «أوهايو جزيمات» بجيم مصرية — فضحك طالب قديم في أمريكا وصحّح بلدياته بقوله :

«إنهم لم يكونوا يتحدثون عن جزم، ولا عن أوهايو — كانوا فقط يقولون لبعضهم البعض «صباح الخير !».

(صبينا)

وسمع طالب سعودي طالبا بلجيكيا يقول : «صبينا» فعلق : «وهل تحتاج هذه إلى اعتراف ؟ لقد صبئتم فعلا حين كفرتم بدين الله !» لم يدر أن البلجيكي كان يعني شركة الطيران البلجيكية «صبينا : Sabena».

وعلى ذكر هذه الشركة، فإن أحد الظرفاء الأمريكيين أو الانجليز، أخذ حروفها، وجعل منها أحرفا أولى لجملة تحط من سمعة الشركة، وهي : «Such a Bloody Experience, Never Again !» وتعني «يالها من تجربة دموية ! لن أكررها أبدا !»

(جورب وسخ !)

ولاننسى الكلمة التي تدغدغ الفرنسيين كثيرا فيتضاحكون عند سماعها لأول مرة، وهي إسم الولاية الأمريكية :

«ماساتشوسيتس Masachussets» لأنه يشبه كلمات «Ma sale chaussettes» أي «جوربي الوسخ!».

وإذا كانت كلمة «شط» تعني عندنا شط النهر، كما في «شط العرب»؛ و «Chatte» تعني قطة عند الفرنسيين، و «Shut» تعني مغلق أو مقفل عند الانجليز. فكلمة «شاط» العامية المغربية القريبة منها تعني : «فضل وتبقى أو زاد عن الحاجة» وهي شبيهة بكلمة «Shot» أي «رمى بالرصاص» عند الناطقين بالانجليزية.

ولن أقاوم إغراء حكاية سمعتها من ممثل انجليزي بقاعة (كارنيغي) (نيويورك) في سنة 1959، حين أعطى عرضا انفراديا لمدة ساعتين شد به الحاضرين إليه بقوة مغناطيسية هائلة فحكى عن زيارته لولاية (تكساس) وضخامة أهلها، وغناهم الفاحش، وجهلهم الأفحش، فقال :
«دعيت إلى الحديث عن (شيكسبير) بأحد نوادي «هيوستون»، وأثناء المحاضرة التي كان سيعقبها عشاء كبير في بيت أحد الأثرياء، سألني أحد الحاضرين، وكان قاعدا بالصف الأول يصغي باعجاب شديد إلى أشعار الشاعر الانجليزي القديم : «هل عندك عنوانه ؟ ينبغي أن نستدعيه للعشاء معنا الليلة !» فقلت متأسفا : «أخشى أنه مات.» فرد الرجل : «حقا ؟ ومن أطلق عليه الرصاص ؟»

فالناس في (تكساس) لايموتون إلا بالرصاص !

(الامضــــاء)

وحتى إسم كاتب هذا المقال لم يسلم من التحريف المضحك فقد كان يكتبه بعض الأميريكيين «Back Alley» وتعني عندهم الممر الخلفي !

(وبعــــد ..)

وختاما، فقد اخترت لهذا الموضوع من الكلمات والتعابير ما طفا على السطح، وتداوله الناس في حديثهم اليومي. أما إذا أراد الباحث الغوص فيه فهو بحر لاقعر له ..

فإذا لم أكن أفدت، فأرجو أن أكون قد سلّيت ـــ ونِعْمَ لهو البال المكدود.

والله ولي التوفيق.

أحمد عبد السلام البقالي

خُدعة المزاج

عبد العلي الوزاني

خدعة المزاج هي أن يعجب شخص بالكذبة الجميلة.. فتنسيه البحث عن الحقيقة.. أن يسيل دمه وهو تهب للمتعة.. أن يعبث بحسابه على مرأى منه، فيشوقه العبث، ولا يذكر الا أنه جد سعيد.. أن يقدم اليه اللؤلؤ الزائف فيراه حجرا كريما ويضعه موضع الأعلاق والنفائس.. أن يركب فيلا ويحسبه غزالا.. ويرى القفا فيطالع فيها وجها.. ويعد الحصى ويظنه ثروة.. وينام على الشوك فيحسبه بساطا من ريش النعام..

خدعة المزاج هي أن يدفع شخص ما ويشعر بلذة الأخذ.. ويخسر مع انتشائه بمتعة الربح.. وينحدر بينما يتوهم عزة الصعود.. هو في كل هذه الحالات ومثيلاتها ضحية خدعة المزاج.. نقطة ضعف في الطبائع البشرية.. المزاج هو مؤامرة الانفعالات على العقل.. إذ بينهما تنافس على السلطة.. العقل يتسلح بالمنطق.. والانفعالات تتسلح بالغريزة.. والغريزة أعمق جذورا في نفس الانسان

.. سلطة العقل تحتاج الى اليقظة الكاملة.. فأقل دوخة أو سنة من نوم أو شرود أو استرخاء قد ينتهزها المزاج وشيعته من الانفعالات لاستلام زمام الحكم وسرقة الأضواء.. ولحظة يستقيظ العقل، ويحاول طرد الدخيل واستعادة مقاليد السلطة، يجد كل شيء تم قلبه راسا على عقب.. فيشرع في التصحيح.. لكن بعد أن يكون المزاج قد حقق أهدافه بنجاح تام..

في لحظة المزاج قبل سيف الدولة من المتنبي ان يمدحه وهو جالس.. وهم يوسف بزليخة وهمت به لولا ان رأى برهان ربه.. والبرهان أحد أسلحة العقل.. وفيها باح شمشون لد ليلة بسرقوته.. وقال نابوليون لجو زفين أول كلمة حب.. واستأذن عبد الرحمان القس من تقواه ليحب سلامة..

خدعة المزاج هي شبهة الضعف عند الأقوياء.. وعند الأتقياء.. ومظنة القوة لدى الضعفاء ولدى البسطاء.. اذا حكمت فتحت الثغرات في أسوار الفولاذ.. وسحبت الصخور من تحت الاطواد.. والقت في اليقين بذرة الشك.. وجردت العزائم من ارادة التصميم.. واصابت رأس الحكمة في الصميم.. بسببها قد تباع مملكة بقدم جارية.. وتغرق مشاريع في كأس خمر.. ويبتلع السم في قطعة حلوى.. وتضيع حقوق في رمشة عين.. ويصير مقطع الحقيقة بين بين.. هي خطر السهو بعد التذكر.. والتساهل اثر التشدد.. والتورط عقب الحذر.. والانقياد بعد المقاومة.. بدغدغة قد تصرف جيشا عن معركة.. وتلهي طالبا عن مستقبل.. وتقعد بمظلوم عن طلب حق.. وتشغل طموحا عن مراقي الكمال.. وتعمي عن فضيحة بمتعة الوصال.. مدخلها الى نفس الانسان خفي.. تحتال على الحراسة المشددة.. وتراوغ أجهزة الانذار المبكر.. لها في طبع الانسان أشياع كثيرون : حب الاسترخاء حين يرهق التصلب.. تمشق الهزل اذا تواصل

الجد.. استلطاف الغموض متى تمادى الوضوح.. الضيق بالحقيقة اذا امتنع الخيال.. طالما حاولوا سد مداخلها بموانع المنطق.. وابعاد خطرها برواسي التركيز.. وسد خداعها بوضوح الرؤية.. وابطال مفعولها بتبديد الشبهات.. فكانوا كمن يلغي الكبوة من حافر الفرس.. ويمنع النوم عن مقلة الأسد.. ويبعد الاضراس عن امكان التسوس.. محاولات فاشلة، لانها تقاوم الطبيعة بأسلحة من خارجها.. فتضرب في الفراغ، وتحارب خصما لا يعرف له موقع محدد.. ربما ظنك بها ــ أي خدعة المزاج ــ وهي امكان الفتور في البصر الحاد.. والغفلة في الطبع الجاد.. والهفوة في اللسان القاطع.. والتنمل في الساعد القوي.. والسهولة في الخلق العصي.. يوم ركبت هذه العناصر دخلت في طبيعتها.. في صميم تكوينها.. فلم تكن كاللون يضاف الى الماء.. والعطر يفشى في الهواء.. والمنظار يوضع امام عدسة العين.. وانما كانت كالسكر في طبيعة الفاكهة.. والملح في تركيب مياه البحر.. والكبريت في بعض السوائل المعدنية.. قد تأخذ الجندي في المعركة فيهرب طالبا النجاة.. والأستاذ اثناء الدرس فيخرج عن البرنامج المقرر.. والفارس خلال السباق فينسحب عند ظهور أول منعطف.. والعالم لدى البحث فيخطفه هاجس حب.. واللاعب عند احتدام المقابلة فيخون روح الفريق..

خدعة المزاج حركة بهلوانية داخل تصميم هندسي.. سرقة قبلة ضمن معادلة صعبة.. ترك العجلات تكمل المسافة وحدها والنوم على المقود.. وضع مسدس في يد طفل بعد حشوه بالرصاص واعداده لاطلاق الرصاصة الأولى.. استدلال على قضية عقلية بدليل عاطفي.. بناء هيكل من قطع الحلوى والورق الملون والريش المزوق والعهن المنفوش.. وفوق الجميع قباب من هباب.. لكنها قد تسعف وقت الشدائد.. فتفرز شعرا في زنزانة.. وتطلق ضحكة في مأتم.. وتلهم حيلة في مأزق.. وتبدع نكتة في حشل.. وتوهم نصرا في هزيمة.. بفضلها

تحمل بعضهم الوقوع بين مخلب وناب.. والوقوف بين المطرقة والسندان.. والسباحة في بحيرة من الزيت.. والركض خلال غابة تحترق.. والابحار على سفين محطم الاضلاع.. وشرب الماء القراح بعد جري المسافات الطويلة.. في هذه الحالات تكون خدعة المزاج علاجا لعسر الهضم.. وترياقا لسم المعاناة.. وتلوينا لمشاعر اليأس.. تشغل سهام الكوارث عن اصابة الهدف.. وتلهي شياطين الخطيئة عن تدمير الضحية.. وتؤخر جحافل الشر عن ارتكاب الجريمة .. وتعطل موقوتات القنابل عن الانفجار الماحق..

الواقعون تحت تأثير خدعة المزاج يمشون على رؤوسهم.. دون ان تمس هذه الأخيرة الارض.. نوع من السباحة ضد قانون الجاذبية.. ما في جيوبهم أو ما في مخابئهم الشخصية يتزلق ويصير تحت أقدام المارة.. الأوراق المزيفة مثلا.. صورة العشيقة المتوارية عن الزوجة.. قصيدة الهجاء المنظومة في صديق لدود.. المنشور السياسي المطارد من طرف البوليس.. الاسلحة النارية الممنوعة قانونا.. العنوان السري للمحرمات والمواد المحظورة.. الرقم الحقيقي لغرفة العمليات غير النظيفة.. الاقنعة الخاصة ذات المادة المطاطية الخداعة.. خريطة المواقع المقرر الزحف عليها طبقا لخطة محكمة.. بمجرد سقوط هذه الاشياء منهم تقع في ايدي ذات اصابع ذكية تحسن الالتقاط بمهارة.. تعودت على سحب اسرار الناس بخبث.. دون إثارة ضجة اولفت انتباه أحد.. فلا يعود المخدوعون بامزجتهم الى الوضع العادي، أي ارجاع الرأس الى أعلى، حيث مركز المراقبة المشددة حتى تكون بعض اسرارهم قد تم توظيفه أو ترحيله أو ترجمته الى عدة لغات ووزعت منه نسخ كثيرة على جهات مهتمة.. فتحت لها محاضر في جلسات علنية وأخرى مغلقة.. منهم من لا يتحمل رأسه الوضع المعكوس طويلا.. اذ يصاب بدوخة مصحوبة بصداع.. وسريعا ما يصحو ليسترد رأسه موضع الرئاسة.. قبل العبث بكل الأوراق الخاصة.. لكن منهم من ابتلع كثيرا من كوكايين السعادة.. حتى

تعود عليه.. وصار الصحو عنده حالة شاذة لا تطاق الا بمعاناة.. هذا الصنف قد يسقط ليجد نفسه مجدفا في سفين للقراصنة.. أو قنا قبض النخاس ثمنه وسلمه للمشتري.. أو مسجى في قبر وعلى رأسه لحد من الوزن الثقيل.. والفرار من القراصنة كثيرا ما يكون الى الأعماق.. وثمن الحرية قد يكون اسلام الروح.. وصحوة القبر متلوة بالنوم الابدي لا محالة..

(المزاجيون) لا يصلحون للمهام الدقيقة.. ولا للمسافات المحسوبة بالسنتمتر.. المعدودة بالدقائق والثواني.. جائز أن يقطعوا مسافة يوم في شهر.. ويؤخروا عمل اللحظة الى يوم الحساب.. ويسددوا نحو الاهداف غير المقصودة.. ويخلطوا العناوين بسهولة.. فيضعوا رسالة الحب في بريد البغض.. ورسالة الحياة في بريد الموت.. وخطاب المستقبل في بريد ما قبل التاريخ.. كل شيء عندهم ممكن.. الجمع بين عملية حسابية وإنشاد الشعر.. تأمل فلسفي لحظة استلام البضاعة ودفع الثمن.. الاختفاء بالظهور في الاماكن العامة.. التستر بالتجرد عن كل الثياب.. محاولة ذبح فيل بشفرة صغيرة للحلاقة.. دخول مناقشة علمية بالبخور والتعاويذ والرقص الصوفي.. قد يتصور أحدهم امكان رفع جبل فوق أصبع.. وتحريك صخرة بريشة.. وتمرير حبل من ثقب إبرة.. وفتح الأبواب العتيدة بلمسة.. وحل معضل المشكلات بنكتة.. بعضهم يوكل اليه أمر الاهتمام بقضية فيضيع شيئا من اسرارها في متناول الخصم.. وبعضهم يجمع مبلغا هاما من المال لقضاء حاجة حيوية ملحة فيخسره على مائدة القمار.. وبعضهم ينسى فيرمي بالثمرة.. ويهم بأكل النواة.. لذلك كان جل (المزاجيين) فاشلين في اعمالهم.. فهم ينامون أثناء القيام بالعمل.. ويقسمونه بين الحقيقة والوهم.. على أن يكون للوهم الحصة الكبرى.. فإذا استيقظوا اكتشفوا أوراقا امضوها دون قراءتها.. وتعهدات التزموا بها من غير ادراك لمضامينها.. وحقوقا فوتوها عليهم مع غيبوبة شبه تامة عما حدث..

وكثيرا ما تستغل خدعة المزاج من طرف بعض الاذكياء.. فيلمع ذكاؤهم امام هذا النوع من الغباء.. يختارون لحظة الشبق الجنسي عند الأسد ليرموا عليه الشباك.. ويتصيدون البطل عندما ينبسط.. ويتجرد من سلاحه ويسترخي بتلذذ تاركا كل حذر.. ويصلون الى حافظة نقود المليونير لما يتحول تركيزه من جيبه الى قلبه وذوقه وحواسه.. ويشرع في نبذ التحفظ والخضوع لنزوة سخاء غازية هؤلاء اسلوبهم في الحصول على المال هو اسلوب الصيادين والقناصين.. يعتمدون المباغتة.. المخالسة.. نصب الاحابيل.. اخفاء الشباك.. التظاهر بالانصراف عن الضحية حين يكون التركيز كله عليها.. الرمي بالطعم.. الالتفاف حول الهدف من هذه الجهة ومن تلك.. اظهار التودد وحسن النية.. الاختفاء عند اللزوم ترقبا للحظة الانقضاض.. لا صبر لهم على أسلوب النملة تجمع رزقها حبة حبة..

وأسلوب الخرفان تتبع منابت العشب الاخضر بتؤدة ومهل.. وإنما يعجبهم أسلوب الذئاب.. تضرب الضربة الكبيرة في لحظة خاطفة.. بعد اعداد خطة الهجوم بخبث..

ليس في مستطاع المخدوعين بأمزجتهم ولا في مستطاع أحد تحديد اوقات (جذبتهم) المزاجية.. فقد تمر عدة ايام دون ان تجعلهم يضعون في السير بعض معاني الرقص.. وفي الكلام شيئا من صفات الغناء.. وفي النظر بعض طبيعة الغزل.. وفي الاصغاء لونا من ألوان التودد.. وعلى حين غفلة تأخذهم خدعة المزاج.. قد تصادفهم اثناء الصلاة فينسون ما ادوه من ركعات ليعودوا الى الركعة الاولى.. وقد تصطادهم على متن القطار فلا يتنبهون الا بعد تجاوز محطة نزولهم المقصودة.. وقد تفاجئهم في مقهى فلا يقومون الا عند جمع الكراسي والموائد استعدادا للاغلاق.. منهم من ترحل به الخدعة بعيدا التماسا لهدف يوجد على بعد خطوة أو خطوتين.. ومن تكلفه مغامرة خطرة من أجل ما ينال بمجرد

تحريك اصبع.. ومن تسلبه حياته لقاء ما لا يستحق طيفا من خاطر أو لمحة من خيال..

لا بأس بخدعة المزاج اذا جاءت تهميشا جميلا على قصيدة شعر.. أو تمويجا بديعا لتهاويل رؤيا.. أو تنسيقا مقصودا لفوضى حلم.. أو ثورة ناسفة داخل رتابة لحن.. بل قد يكون في ذلك ابداع لما لا ينال.. واستدراج لما لا يقال.. لكن خدعة المزاج تنقلب شرا اذا استوطنت داخل تصميم لبناء.. أو عربدت اثناء سياق منظم.. أو تسللت الى خطوات محسوبة بدقة.. أو أخرت موعدا غير قابل للتجديد.. أو قوضت اجتماعا مأمول النتائج.. أو حولت الاتجاه لحظة الاقتراب من رغيب الغايات..

في عصرنا صار المزاج محاصرا.. يبحث عن ثغرة في صلابة الظروف فيرتد خائبا غالبا.. وليس عند الظروف وقت تضيعه في الهواء الخارجي.. لان أمامها عملا كثيرا لا يقبل الارجاء من يوم الى اليوم التالي.. فلكل يوم برنامجه العامر المضطر الى ساعات اضافية.. تقتطع من وقت الاكل أو وقت النوم اذا لزم الأمر.. والاجارت على أوقات تالية تداخل بعضها في بعض.. وانعدمت بينها الفجوات.. فيقع التراكم.. ويركب الأعمال بعضها بعضا فيرتبك الجميع.. في هذا الجو يعتبر المزاج ترفا لا لزوم له.. وهروبا من المعركة غير مشروع.. والمزاج هو استعادة الذات.. واعطاؤها فرصة للاستراحة.. والسماح لها بأن تسترخي وتحلم.. وتكييف العالم على هواها.. وتلعب خلف خطوط المواجهة.. بعيدا عن كل الساعات والاجراس وكل المنبهات الاخرى.. وهذا امر يرفضه عصرنا.. نظرا لكونه يعمل بتوقيت الدقيقة والثانية.. الذين حطموا منطقه نبذهم.. فتحولوا الى متسكعين في شوارع الضياع وحضيض التخلف.. بعضهم صار لهم المزاج ادمانا يوميا حتى ملوه وملهم.. فتحول الى عناء وهم لا راحة منهما الا بالغيبوبة الكاملة.. هؤلاء اخطأوا لان المزاج عندما يصير إدمانا يفقد جميع

مبرراته ويتحول الى بلاهة مطلقة.. والى عبء ثقيل يصيب بالارهاق والكوابيس.. طرافة المزاج تكمن في ومضاته الذكية الخاطفة.. في زوراته المتباعدة الآتية على غير توقع.. لا تحتل كل مساحة النفس احتلالا.. وانما تمر منها مرورا عابرا تاركا نشوة مذهلة.. وأملا عذبا في فرص مقبلة.. لكن يظهر ان عصرنا مصمم على تعكير الأمزجة.. فإما اليقظة الكاملة.. أو الخروج إلى حالة انعدام الوزن.. والدخول في كوابيس النوم المغتصب؛وعصرنا من صنعنا.. وصنع من سبقونا.. وهو يطالبنا بالتزامات كثيرة.. تتناسل كل يوم.. ولاحد لخصوبتها.. على حين ان طاقتنا على التحمل محدودة.. واعصابنا مجهزة بقوة على الاحتمال محدودة.. وويل لمن نسى أو تناسى امضاءاته على أوراق رسمية أو شبه رسمية.. أو أخل بشيء من شروط العمل.. أو ترك لمزاجه مهمة التوقيت بدل الساعة.. أو اسقط من حسابه أمر الآلة التي وكل اليها بعض شؤونه.. لتكون اداته في التعامل والضبط.. والآلة لا تعرف ضعف الذاكرة.. أو فقدانها.. العصر يضعنا جميعا في قفص الاتهام.. ويشدد علينا المراقبة.. ليس له ثقة فينا.. يتوقع منا دائما ان نغش ونخون التزاماتنا.. فيزيد في أثقالنا بالقيود.. منعا لاي هروب محتمل.. ونحن بدورنا نكيل له التهم.. ونحمله جريرة عنائنا.

ومع ذلك فلحظات المزاج الخاطفة لا يمكن ان تنعدم.. لكونها جزءا من طبيعة النفس الانسانية.. ولو اضطرت الى الانبثاق من بين النطق بحكم الاعدام وتنفيذ الحكم.. أو بين جملتين في النظام المنطقي لارسطو.. أو بين دقات الساعة في ساعة الشروع في العمل.. في مدينة صناعية.. أو بين حصتين أو عمليتين متواليتين لاستاذ في الرياضيات.. لكنها حينئذ لا تنبثق الا وسط أصعب الظروف.. فتتعرض للمطاردة والملاحقة.. وتشعر بأنها معتدة.. غير طبيعية.. تسكنها عقدة الخوف.. وتوقع المكروه.. دون ان يمنعها ذلك من العودة.. ولو تحركت فوق الالغام.. أو بين الاسلاك الشائكة المكهربة.. ولو كانت عودتها

عملية انتحارية مؤكدة.. تتكشف عن خسارة فادحة.. اذ بدونها ــ أي لحظة المزاج ــ تبدو الحياة لا تحتمل.. والحلم في حياة الانسان النفسية ليس زائدا على قوانينها.. ولا خرقا لنظامها.. وانما هو كالنوم.. حاجة طبيعية لا غنى عنها.. لابد من اغفاءة العين لتعود الى التحديق المركز.. لابد من بعض الغيبوبة عن بعض الاشياء لنقوى على مواجهتها بصحو كامل بعد ذلك.. لابد من اعطاء اجازة موقتة للعقل.. ليسترد شيئا من ذكريات الطفولة وعاداتها.. قبل أن يعاد اليه النظام الصارم الذي لا هوادة فيه.. وعندما تمنعنا الظروف من الحلم.. وتشد انتباهنا باستمرار تتعب اعصابنا.. وقد نصاب من جراء ذلك بانهيار في القوى العامة.. بنوع من السيدا المعنوية.. فنتهاوى تحت ثقل الصحو الكامل المفروض دون انقطاع.. حينئذ قد نقوم برد الفعل.. فنسرح أنفسنا من كل قيد.. ونتقل إلى المزاج كل مقاليدنا.. وهنا تكمن المأساة المروعة.. لأن المزاج قائد سيء القيادة.. كثيرا ما تستبد به روح المغامرة فيفقد التوازن.. الزمن عنده قد يكون معزولا في نقطة متجمدة.. أو خاضعا لما يشبه نظام السنة الضوئية.. ولا يوجد في حالة صحو كامل ابدا.. هو دائما في حالة سكر.. تبدأ بدوخة خفيفة اشبه بالدعابة اللذيذة.. وقد تنتهي الى عربدة أو تخدير تام.. من خلاله تبدو الاشياء اجمل مما هي.. أو اسوء مما هي.. ولا تبدو على حقيقتها قط.. اذ الحقيقة تصل الى منطقة ظله فتبدأ في التخلي عن شروطها.. آخذة في التنازل.. وقد تتحول من حقيقة موضوعية الى حقيقة شعرية في احسن الاحتمالات.. وربما تجاوزت المزاج متحررة من قبضته لتجد نفسها في امس الحاجة الى تحقيق الهوية واثبات الذات.. المزاج يدخل الحقائق في دورة تجميلية.. أو يسلبها حيادها ويزج بها في نوع من الانحياز.. في الوقت الذي يجردها فيه من اقوى اسلحتها.. ويزيل عنها الصلابة والتماسك..

وليست خدعة المزاج حالة اضطرارية دائما.. فربما جرى الاعداد

لاستحضارها مسبقا.. وهناك اشخاص ينفقون الأموال الطائلة من أجل أمزجتهم.. قصد ارضائها وامتاعها واعطائها الجو المناسب.. ومع ذلك قد تتركهم في حالة انتظار تبدو وكأن لا نهاية لها.. وربما راق المزاج بمجرد باقة ورد فوق المائدة.. أو انبعاث موسيقى هادئة تدوخ اليقظة وتوقظ النوم.. أو قصيدة شعر ترهف الحس وتعيد التناسق الى العواطف.. لكن المزاج كثيرا ما يستعصي على كل ألوان الاغراء.. وهو بطبيعته لا يخضع للمواعيد المحددة.. ويفضل ان يشرف دون برنامج معد سلفا.. من غير تدخل مباشر لتقديم مجيئه أو تأخيره.. بناء على الرغبة والطلب.. أو بناء على أوامر صادرة.. التفكير فيه قد يضايقه.. ويزرع فيه عقدة.. ويفقده الطواعية والتلقائية.. هو كالنوم كل محاولة جبرية لاستحضاره خطوة نحو ابعاده..

وكل الناس لهم أمزجة.. أجهزة للتكييف النفسي تعمل دون انقطاع.. من خلالها يحددون مواقفهم مع الناس والأشياء.. لها دخل في صياغة الآراء واتخاذ القرارات.. وتحديد يوم البؤس ويوم النعيم.. حتى لو كان العقل هو (ماكس) مصفحا ضد الضربات والصدمات والاصابات.. في جولة سريعة يعيد الامن والهيبة والنظام.. وقف له المزاج بالمرصاد.. والعقل هنا يتعامل مع شيطان.. المكر والدهاء أبسط أسلحته في العمل.. ويتحدث لغة رمزية معقدة.. وله مائة جواز مرور.. بارع في كل أدوار التمثيل.. ماهر في أسلوب اللف والدوران.. ضعه خلف عشرة أبواب محكمة الاغلاق تجده يخترقها بسهولة.. وقيده بسلاسل من فولاذ ينسل منها كأنه الطيف.. وارم به في بئر عميقة واردمها بالصخور تلقه بعد حين يأكل من شجرة تفاح ليتمدد بعد قليل فوق الاعشاب الخضراء.. صحيح ان الامزجة تتعرض اليوم لأنواع من الكبت.. كجزء من ضغوط العصر ومحاصرتها للذات الفردية.. وصحيح ان الوقت قلما يسمح للمزاج باستلام السلطة.. لان الوقت محسوبة خطواته على مسافة أربع وعشرين ساعة.. وصحيح

ان لحظة المزاج الغنية.. العميقة.. المنعزلة في جزيرة نائية أصبحت نادرة.. وسط مدينة تقبض على البشر بكماشات من حديد.. وتطلعهم من فرش نومهم بملاقط ورافعات.. لكن مع ذلك فالمزاج لابد ان يبدع وسيلة للعمل.. والكذب من أقوى وسائله الجميلة.. مع أنه مفتقر الى كل أدوات الاقناع.. مجرد من أي مبرر معقول.. إلا أنه كثيرا ما يحقق أهدافه.. لالشيء إلا لأنه كذب جميل وحسب.. وعندما يكذب الانسان على نفسه كي يهرب من الحقيقة يكون المزاج في أوج سلطانه.. حاضرا بكل قدرته على الخداع والايهام.. حين تكون الحقيقة تبحث عن وسيلة لرد الاعتبار.. لاستعادة الامساك بخيوط الاهتمام.. في ضلالها وجريها وراء الخيوط المبعثرة يجد المزاج فرصته للعربدة وسرقة الاضواء.. وحين تمسك الحقيقة بأول خاطر شارد يبدأ المزاج في الانضباط وترك اللعب والتخلي عن تضخيم الأشياء أكثر مما ينبغي.. أو تصغيرها أكثر مما ينبغي..

ان لحظة ميلاد المزاج هي نفسها لحظة ميلاد الخديعة.. فالمزاج غير المخدوع لا وجود له.. لان طبيعته مزيج من (دوخة) العقل و (تلوين) الرؤية.. و (تكييف) الحالة النفسية بمكيف مُركوز في الاعماق.. وما ظنك به ـــ أي المزاج ـــ حين يدفع الى منازلة اسد بقوة حمامة.. أو اذا ة جبل من الثلوج بعود ثقاب.. أو اطفاء حريق غابة بقطرة ماء.. أو فتح امنع الابواب بكلمة سر نصفها يموت بين الشفتين.. لو تصورنا المزاج دون خديعة لامكن تصور خمر دون نشوة.. وحب من غير قشعريرة.. ورقص لا تصحبه هزة في الاعطاف..

بعض الناس عرفوا حدود عقولهم وحدود أمزجتهم.. فلم يخلطوا بين خفقة القلب ولمعة الذكاء.. أو بين اختلاجة جفن وتبلور فكرة.. أو بين الخطو على أرض صلبة والضياع في سديم الشاعرية .. اذا تحركت عقولهم كانت قلوبهم تحت المراقبة المشددة.. ومتى خفقت قلوبهم لزمت عقولهم جانب الحذر عن

بعد.. لكن اناسا آخرين لم يقيموا بين عقولهم وقلوبهم هذا الضرب من التوازن.. فاختلطت لديهم جوانب الرؤيا.. واستوت عندهم بهارج الالوان وجسم الحقيقة.. وشغلهم ما طار عما وقع.. وترددوا بين اليقظة والنوم.. وعاقبوا بين النظام والفوضى.. وتحولوا من الحديث بلغة الفلاسفة الى الحديث بلغة العصافير.. فنقلوك من توقيرهم الى الزراية بهم.. تارة تضعهم في مركز الثقل.. وأخرى تنقلهم الى درجة انعدام الوزن.. وقد يكون بين الوضعين بضع كلمات لا أكثر..

فاس　　　　　　　　　　　　　　　　عبد العلي الوزاني

امتــــداد

المهدي الدليرو

خاطت جلباب بلادي فضفاض
أصابع أوربة وقريش
فنما الإنسان سخيّ النفس... كريم العيش
حتى فاض
فعلا... بالخير وفيرا
يجوب الآفاق سفيرا
على مرّ التاريخ المنبسط... المطوىّ
بتشكّله المرئىّ... المروىّ
يستظهر موروث العلم المنقول،
ويمنطق معرفة المعقول.
وجوهرَ صحتها... الملّه
يجنّبها عرض العلّة.
وينحت في صخر العُدوه
بإزميل موهوب... ماهر
صقل الباطن والظاهر
حضارة مجتمع قدوه.

وحمل الفتح رسالة حق
أخي المغلوبَ الغالب
كحال الموجب والسالب
فالدين برأب الصدع أحق
أولا يُجزَى موسى/طارق
ثواب الانجاز الخارق ؟
وحين الخُلف تفشّى فيه
تمكّن منه... فمن يشفيه ؟
لكن... شريان حياته
— بتمرس خبره
وتمثّل عبره —
مازال مبارك آياته
فينا... ممتدّا
بخصوصية معتدّا

المَقامة المشرقيّة في الأندلُس

د. حسَن الوراكلي

تقديـم :

لم نجد أحداً، فيمن نعرف من الأندلسيين الذين عنوا بتأليف مجاميع بمنتخبات من أدب بلديهم، يفرد المقامة ــ على نحو ما صنع بعضهم بالنسبة لفنون أخرى كالموشح (1) والزجل (2) ــ بكتاب مستقل، يتحدث فيه عن نشأتها وما اكتنف هذه النشأة من ظروف وأوضاع، ثم يشفع ذلك بالتأريخ لها من خلال التأريخ لكتابها وتقديم نماذج من نتاجهم المقامي. وقد اكتفى أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت 542 هـ) ــ وهو أشهر مؤلفي كتب الاختيارات الأدبية خلال القرن الخامس والنصف الأول من القرن السادس، وهي الفترة التي عرف فيها الأدب الأندلسي فن المقامة ــ بأن أورد في كتابه

---

(1) من مثل كتاب " مشاهير الوشاحين بالأندلس " لعلي بن ابراهيم البلنسي (ت 525)، وهو مفقود، ومثل " جيش التوشيح " للسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ) وقد طبع بتحقيق الأستاذ هلال ناجي. ومثل "عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس " لعلي بن بشري الغرناطي (عاش في القرن الثامن أو التاسع) ومن الكتاب نسخة مخطوطة كانت في ملك المستشرق الفرنسي جورج كولان.

(2) من مثل " مختار ما للزجالين المطبوعين " لأبي علي الحسن بن أبي نصر الدباغ. أنظر، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، 2 : 214

''الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة'' فصولا (3) من مقامات دون تعليق مفصل يسعف في تصور نشأة هذا الجنس الأدبي وإقبال الأدباء على كتابته. أما الفتح بن خاقان (ت 529 هـ) فإنه، باستثناء قطعة من مقامة لأبي عامر بن أرقم، قدمها في جملة ما قدم له من منتخبات شعرية ونثرية في ''قلائد العقيان'' (4)، قد ضرب صفحا عن ذكر المقامة حتى وهو يترجم لبعض كتابها وينتخب من آثارهم كابن أبي الخصال، وأبي اسحاق بن خفاجة. وكذلك نجد أبا القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي، وهو من عصريي ابن بسام وابن خاقان، لايلتفت في كتابه '' إحكام صنعة الكلام '' إلى مقامات الأندلسيين. على حين نراه إذ يلم بذكر بديع الزمان الهمذاني يثبت له نصوص مقامات برمتها. ولا يكتفي بذلك؛ بل يعقب عليه بما يدل على إعجابه البالغ بمقامات البديع وعدم رضاه عما سواها : (ومحاسن أبي الفضل لاتتناهى أو ينتهى عنها. وقد عارضه في هذه المقامات جماعة من الكتاب بما نزهت عن ذكره هذا الكتاب، (5). وفيما عدا قطعة صغيرة من المقامة الغزلية لأبي عبد الله محمد ابن عياض اللبلي احتفظ لنا بها ابن سعيد في '' المغرب في حلى المغرب '' (6) فإنه لم يعن، فيما ألف من مختارات أخرى كالرايات، والقدح، بإيراد نصوص أو منتخبات من مقامات أندلسية علما بأنه ترجم في '' المغرب ''، مثلا، لبعض أعلام كتابها كأبي الطاهر السرقسطي، وأبي الحسن سلام بن سلام المالقي الباهلي.

وليس فيما نعرف من مصادر أخرى للأدب الأندلسي مما يتعلق بالمقامة

---

(3) أنظر، الذخيرة، ق 1 ج 2 : 180 — 200 ، 273 — 288

(4) أنظر، القلائد : 140.

(5) أنظر، إحكام صنعة الكلام ص 79

(6) أنظر، المغرب، 1 : 344.

الأندلسية، حين ظهرت، وحين استوى عودها، شيء أكثر غناء وجدوى مما رأيناه في المصادر التي أسلفنا الاشارة إليها، وهي التي ألفها أصحابها إبان ظهور هذا الجنس الأدبي الجديد في النثر الأندلسي أو بعد ذلك بزمن غير طويل. على أنه ينبغي ألا تفوتنا الاشارة، هنا، إلى أننا لم نعدم في بعض ما ألفه الأندلسيون من كتب الفهارس والبرامج من مثل فهرسة ابن خير الاشبيلي (ت 575 هـ) وبرنامج شيوخ الرعيني (ت 666 هـ) تلميحات بانتشار المقامة الأندلسية، بجانب المقامة المشرقية في حلقات الدرس، وبين أوساط المتأدبين، مما يسعف في تصور المكانة التي سرعان ما ظفرت بها في نفوس طلاب الأدب ودارسيه، فغدت، بذلك، في عداد ما كانوا يحرصون على تقييده، وتدوينه، وروايته، من الآثار الأدبية، شعرية ونثرية.

وإزاء هذا الصمت الذي لاذت به المصادر فيما يتصل بنشأة المقامة في الأدب الأندلسي والبواعث التي كانت وراء تلك النشأة، والظروف التي واكبتها، رأينا لزاما علينا أن نجتهد، وسع الطاقة، في محاولة لإزاحة الغموض الذي أحاط بذلك كله، مستهدفين الكشف عن البواعث المؤثرة، والظروف الفاعلة في ظهور تلك المقامة ونضجها.

واذا كان من غير الميسور لدينا، إلى الآن، تسمية أول مقامة عرفها الأدب الأندلسي فإننا نستطيع القول بأن أقدم ما وصل إلينا من نماذج المقامة الأندلسية يرجع تاريخه إلى منتصف القرن الخامس أو قبل ذلك بقليل، وهي تلك التي كتبها أمثال ابن فتوح (7)، وابن شرف (8)، وابن الشهيد (9)، وابن مالك

---

(7) الذخيرة، ق 1 ج 2 : 273 — 288

(8) نفسه، ق 4 ج 1 : 196 وما بعدها، 212 وما بعدها.

(9) نفسه، ق 1 ج 2 : 180 — 200

القرطبي (10)، وابن المعلم، (11) واحتفظ لنا ابن بسام بنصوص بعضها، وبمنتخبات من بعضها الآخر. وليس من المستبعد أن يكون غيرهم سبق إلى كتابة المقامة، ولكن شيئا من ذلك لم ينته إلينا على أية حال، ولهذا فإن لنا أن نعتبر تلك النماذج من بواكير ما أنتجه الأندلسيون في هذا الفن من القول.

وإذن، فظهور المقامة الأندلسية قد أتى، من نحو، بعد نشأة المقامة في الأدب المشرقي بعقود من السنين، وأتى، من نحو آخر، في أعقاب هزة عنيفة، اضطرب لها كيان الأندلس السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، هي تلك التي يسميها المؤرخون، تارة، بالفتنة البربرية، وأخرى، بالفتنة القرطبية، والتي كان من أبرز ما تمخضت عنه من نتائج — كما هو معلوم — تفكك وحدة البلاد في الحكم، والسياسة، وانقسامها الى دويلات متطاحنة فيما بينها. وكان من أثر هذا ما عرفته الأندلس، يومئذ، من فساد اجتماعي، واختلال اقتصادي، أدى إلى ظهور طبقتين في المجتمع الأندلسي، إحداهما مترفة، مفرطة في الترف، وهي طبقة الحكام ومن إليهم من وزراء وقواد وغيرهم، وثانيتهما معوزة، مغرقة في العوز، وهي طبقة عامة الشعب، ومنها بعض الأدباء المحرومين الذين كانوا يعيشون على الكفاف؛ لأنه لم يتح لهم أن ينتهوا إلى هذا البلاط أو ذاك حيث يكون من المتوقع أن يبتسم لهم الحظ، أو أنهم انتهوا، فعلا، إلى أكثر من بلاط، ولكن دونما جدوى (12). فإذا تذكرنا أن الحركة اللغوية والأدبية كانت تشهد في الأندلس يومئذ، بل طوال القرن الخامس، أخصب فتراتها وأزهرها، اتضح لنا جليا أن المقامة الأندلسية نشأت، ودرجت، واستوفت حظها من الاستواء والنضج، متأثرة بعاملين اثنين : أحدهما خارجي، نتمثله في وفود المقامة المشرقية على

---

(10) نفسه. ق 1 ج 2 ص 741

(11) نفسه، ق 2 ج 1 ص 113 وما بعدها.

(12) انظر كتابنا ابن صارة الشنتريني — حياته وشعره. ص : 57.

الأندلس وما أثارته من إعجاب بها لدى الأدباء والكتاب. وثانيهما داخلي، يمت إلى الأول ويتصل به اتصالا وثيقا، ذلك أن الأندلسيين حين فتنوا بالمقامة المشرقية كانوا على درجة من النضج اللغوي، والبراعة الأدبية، مكنتهم من النسج على منوالها من حيث الشكل والوشاح، فضلا عن أن ظروف مجتمعهم كانت تشبه إلى حد بعيد ظروف المجتمع الذي صورته المقامة المشرقية، فأفرغوا في بعض ما أنشأوا من مقامات صورا ومشاهد من مجتمعهم وبيئتهم. وهنا موضع التوجه لدراسة هذين العاملين. وتفصيل القول فيهما.

المقامة المشرقية في الأندلس.

كان تراث المشارقة العلمي والأدبي يستهوي الأندلسيين ويستأثر بإعجابهم وتقديرهم، وكان هذا هو ما يحمل كثيرا منهم على التوجه إلى حواضر الشرق في طلب العلم، ودراسة الأدب، واستنساخ الكتب والدواوين وروايتها عن الشيوخ كما أنه كان هو الباعث لبعض المشارقة على شد الرحلة نحو الأندلس، محملين بالتآليف والتصانيف في الأدب والشعر، وفي غير الأدب والشعر من ألوان المعارف وفنونها، ينشدون بذلك الجاه العلمي حينا، والربح المادي حينا آخر، أو يطلبونهما معا حينا ثالثا، والأخبار بذلك مستفيضة، ولا حاجة بنا إلى إيرادها، وفي الجرد الذي قدمه المقري في " النفح " بأسماء من رحل من الأندلسيين إلى المشرق ومن وفد من المشارقة على الأندلس (13) ما يعطي صورة واضحة على تعلق الأندلس بنتاج علماء المشرق وأدبائه وشغفها به. وهكذا ظلت الأندلس، مدى قرون طويلة، على اتصال وثيق بتراث المشرق الأدبي، ترويه، وتمثله، وتحاكيه، ومن ثم لم تكن لتظهر نزعة في شعر المشرق، أو اتجاه في

(13) أنظر. نفح الطيب ج 2 ص 5 وما بعدها.

نثره دون أن ينتهي إلى الأندلس ويتردد صداه في نتاج شعرائها وكتابها. وفي مجال النثر الفني بالخصوص يدل ما وصلنا من نثر الأندلسيين أنهم عرفوا ترسل الطبقة الأولى من الكتاب المشارقة كابن المقفع وعبد الحميد الكاتب، كما عرفوا الجيل الذي تلا تلك الطبقة وهو جيل سهل ابن هارون وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، حتى إذا ظهر ابن العميد، وأبو إسحاق الصابي، والصاحب بن عباد، وبديع الزمان الهمذاني، وغيرهم من كتاب القرن الرابع، لم تلبث آثارهم أن انتقلت إلى الأندلس فإذا بالكتاب يقبلون عليها في شغف وإعجاب، يضربون على طريقتها، وينسجون على منوالها. وكان مما أخذ بألباب الأندلسيين من نتاج كتاب القرن الرابع مقامات بديع الزمان الهمذاني، فقد ظلت موضع إعجاب وتقدير لديهم طوال القرن الخامس الهجري. وحقا أن وفود مقامات الحريري

على الأندلس، (14) مطالع القرن السادس، صرف كثيرا منهم عن المقامة البديعية إلى المقامة الحريرية؛ إلا أنه يمكن القول بأن المقامة المشرقية بعامة، بديعية وحريرية، أو غير بديعية وحريرية مما عرفته الأندلس من مقامات مشرقية أخرى، ظلت بحظوظ متفاوتة، محل اعجاب الكتاب الأندلسيين، وهو اعجاب كان ينتهي ببعضهم إلى معارضتها على نحو لا يخلو من سمة التحدي والرغبة في الكشف عن المقدرة اللغوية والبيانية. ونقترح، هنا، أن نقف عند البديع لنرصد تأثيره في ظهور المقامة الأندلسية وفي نتاج كتابها.

---

(14) نفسه. ج 3 ص 5 وما بعدها.

مقامات الهمذاني.

أنشأ بديع الزمان الهمذاني (15) مقاماته (16) أواخر القرن الرابع الهجري. ومن المؤكد أن هذه المقامات سرعان ما لفتت إليها أنظار الكتاب واسترعت

---

(15) هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد. كانت ولادته سنة 358 هـ بمدينة همذان في فارس وفيها نشأ ويفع. ولعل هذا هو ما جعل البعض يظن أنه فارسي الأصل. والحقيقة أنه ذو نسب عربي ينحدر به من قبيلة " تغلب " المضرية. وقد صرح هو نفسه بذلك في إحدى رسائله إلى الشيخ أحمد أبي العباس الفضل بن أحمد الاسفرائيني. فقال : " .. إني عبد الشيخ، واسمي أحمد، وهمذان المولد، وتغلب المورد. ومضر المحتد..) أنظر، الشيخ ابراهيم أفندي الأحدب الطرابلسي، كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان ص 8. ومع أن العمر لم يمتد به إذ توفي عام 398 هـ وقد أربى على الأربعين فإنه قد خلف آثارا غير قليلة في الرسائل والشعر فضلا عن مقاماته التي أذاعت شهرته. أنظر ترجمته وأخباره في : الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد. ج 4 ص 256 وما بعدها، وابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق الدكتور احسان عباس ج 1 ص 127 وما بعدها، وياقوت، معجم الأدباء ج 2 ص 161، وبرو كلمان، تاريخ الأدب العربي ج 2 ص 112.

(16) اختلف الباحثون فيما إذا كان البديع هو مبتكر المقامة في الأدب العربي أم أن غيره سبقه إلى ذلك، فذهبت طائفة إلى القول بابتكار البديع لهذا الجنس الأدبي، ومن أشهر القائلين بهذا الحريري والقلقشندي. فقد اعترف الأول بابتداع البديع للمقامة في المقدمة التي كتبها بين يدي مقاماته حيث قال : (وبعد فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه، وخبت مصابيحه ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همذان، وعزا إلى أبي الفتح الاسكندري نشأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها...) مقامات الحريري ص 5. وأكد القلقشندي ذلك في (صبح الأعشى) حيث قال : (إن أول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر، وإمام الأدب، البديع الهمذاني فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه). وذهبت طائفة أخرى إلى عزو فضل ابتداع المقامة إلى ابن دريد (ت 321 هـ)، وكان الحصري (ت 453 هـ)، فيما هو معروف، أول من قال بهذا الرأي، فقد نص في كتابه " زهر الآداب " (ج 1. ص 307) حين ذكر البديع أنه (لما رأى أبا بكر بن دريد الازدي أغرب بأربعين حديثا، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، واستنتجها من معادن فكره وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، في معارض عجيبة، وألفاظ حوشية، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبها الأسماع، وتوسع فيها إذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة، وضروب متصرفة، عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية، تذوب ظرفا، وتقطر حسنا). ومع أن الحصري ينفرد بهذا الرأي من بين المؤلفين القدامى فإن بعض المحدثين ومنهم الدكتور زكي مبارك قد اعتمده واعتبر رأيه حجة على خطأ القائلين بأسبقية البديع وريادته في كتابة المقامة. ومهما يكن من أمر فالذي لاشك فيه أن بين

اهتمامهم، فلم تكد تمضي على ظهورها فترة يسيرة حتى وجدنا بعض أولئك الكتاب يتصدى لاحتذائها ومحاكاتها. واشتهر بذلك من المشارقة أبو نصر عبد العزيز بن عمر المعروف بابن نباتة السعدي (ت 405 هـ) وأبو القاسم عبد الله بن محمد بن الحسين ابن داود بن ناقيا (ت 485 هـ).

على أننا لا نعرف على وجه التحديد اسم من نقل مقامات البديع إلى الأندلس، أكان أندلسيا ذهب إلى المشرق بغية أداء الفريضة وسماع الشيوخ واستنساخ الكتب والدواوين، ثم عاد إلى وطنه يحمل مقامات البديع فيما يحمل من تراث المشارقة الأدبي، أم كان مشرقيا وفد على الأندلس فيمن كان يفد عليها من علماء المشرق وأدبائه، وكانت مقامات البديع وكذلك رسائله وأشعاره مما حمله من كتب ودواوين معه إلى الأندلس، كما أننا لانعرف في أي سنة بالضبط تم ذلك، والمصادر التي بين أيدينا تسكت عن هذا وذاك؛ غير أن فيما نقع عليه عند ابن شهيد في «التوابع والزوابع» من ذكر لبديع الزمان وتسمية لبعض أوصافه المشهورة (17) وحرص على إحتذائه في ذلك فضلا عن التأثر الظاهر بمقاماته، كما سنبين بعد، ما يدل على إطلاع ابن شهيد ومعرفته برسائل البديع ومقاماته. ولما كانت وفاة ابن شهيد في سنة 426 هـ فإننا نستطيع أن نجزم بأن أدب

أحاديث ابن دريد وبين المقامات البديعية مشابه كثيرة، تتمثل، أسلوبا، في اعتماد الرجلين على السجع وإن لم يلتزماه، وتتمثل، مضمونا، في عنايتهما بسوق النادرة والخطبة والنكتة الأدبية واللغوية؛ لكن وجوه الاختلاف بينهما غير قليلة كذلك، أظهرها أن الأحاديث معرض للاشادة والتنويه بشمائل العرب ومناقبهم ورسوخ قدمهم في الفصاحة والبلاغة، في حين أن المقامات برغم تعدد أغراضها فهي تدور جميعها على الكدية والاحتيال؛ غير أننا مع ذلك لا نستبعد أن يكون البديع أفاد، وهو ينشيء «مقاماته»، من أحاديث ابن دريد كما أفاد من أدباء آخرين تقدموه، من أشهرهم الجاحظ في أحاديثه عن أهل الكدية والتي روى طرفا منها البيهقي في كتابه " المحاسن والمساوىء "؛ غير أنه مع هذا كله فلا سبيل إلى إنكار أن المقامة بوصفها جنسا أدبيا لم تستو بنيتها الفنية إلا على يد البديع، ومن هنا فهو مبتدع هذا الجنس الأدبي ومنشئه في الآداب العربية.

(17) الذخيرة. ق 1 م 2 ص 674 وما بعدها

البديع كان متداولا بين الأندلسيين في العقد الثالث من القرن الخامس أو ربما قبل ذلك. وقد اشتهر من أدباء تلك الفترة ممن عنوا بمعارضة البديع أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم، وفي «الذخيرة» أنه عرضت عليه (18) رسالة لبديع الزمان في الغلام الذي خطب إليه وده بعد أن عذر، فعارضها بأخرى.

وأياً ما كان الأمر فقد ظفرت آثار البديع ومقاماته على الخصوص بإعجاب الأندلسيين وتقديرهم منذ أن وقعت بين أيديهم في العقود الأولى من القرن الخامس للهجرة. وإنا لنلمح ذاك الاعجاب وهذا التقدير متمثلين فيما نقرؤه من عبارات الاشادة بأدب البديع في بعض ما وصلنا من كتابات بعض مشاهير أدباء الأندلس في القرن الخامس وفيما بعده. وربما يكون أقدم مثال نعرفه من هذا القبيل هو ما نجده عند أبي محمد ابن حزم في كتابه ''التقريب لحد المنطق''، فهو بعد أن يحكم على المتأخرين من الكتاب الذين جاءوا بعد الجاحظ والحسن البصري وسهل ابن هارون ب (أنهم بعيدون عن البلاغة ومقربون من الصلف والتزيد) (19) يستثني الحاتمي وبديع الزمان مما يدل على تقدير كان يخص به ابن حزم البديع على تأخره. ويظهر أن طائفة من أدباء الأندلس في القرن الخامس وجدت في طريقة البديع الأسلوبية ما بهرها واستأثر بألبابها، فإذا بها، وقد اتخذته كاتبها المفضل الأثير، تتقلد مذهبه وتنتهج طريقته، وتحتج له، وتدافع عنه. تكشف لنا عن ذلك رسالة كتبها أبو محمد بن القاسم (20) استجابة لرغبة أحد أدباء

---

(18) نفسه ق 1 ج 2 : 117.

(19) أنظر، ابن حزم، التقريب لحد المنطق ص 37

(20) ترجم به الفتح بن خاقان في (القلائد) وحلاه بالوزير الكاتب، وأثنى على براعته في النثر، وأورد له نماذج من رسائل بعث بها إليه وإلى أبي الفضل القاضي عياض وإلى الوزير أبي بكر ابن عبد العزيز.

أنظر، القلائد : 132. والمغرب في حلى المغرب، I : 396 ـــ 398.

العصر في الترجيح بين الصابي (21) والبديع. ومع أن ابن القاسم يبدأ رسالته (22) بوصف الكاتبيين بأنهما فرسا رهان إلا أنه لا يلبث أن يصرح بتفضيله البديع وترجيحه أسلوبه، فالبديع (يبلغ شأوه عفوا) (23) والصابي (يجهد إليه عدوا) (24) والبديع أديب طبع، على حين أن الصابي أديب صنعة : (البديع إذا وصف رصف، والصابي إذا رام مرامه دلف إليه ورسف، وشتان بين الكلام المطبوع والمنمق المصنوع، وإن أحقهما عندي بالتقديم وأحذقهما بفري الأديم من سلمت مباني كلامه عن التكلف، وكرمت معاني نظامه عن التعجرف. والأعدل في الحكم عن الاقرار بالفضل لأبي الفضل في سجاحة الطبع ورجاحة الوضع) (25). ويعود ابن القاسم في ختام الرسالة ليؤكد مرة أخرى بأن الكاتبين (فرسا الحلبة بالاجتماع، وإماما القوم في حسن الاختراع) (26)، لكن البديع يظل عنده (أعرق نزعا وأفصح) (27). وقد أثارت هذه الرسالة أحد مرموقي الكتاب بالأندلس يومئذ وهو أبو عبد الله بن أبي الخصال فكتب رسالة يرد فيها على ابن القاسم. وبالرغم من أن رسالة ابن أبي الخصال تدور أساسا على التعصب للصابي ومهاجمة البديع إلا أننا نستخلص من ثناياها ما يصور لنا شغف الأندلسيين بتراث البديع وحرصهم البالغ على احتذائه ومحاكاته. وهاهو

---

(21) هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الحراني الصابيء (ت 384 هـ)، أحد أئمة الكتاب والبلغاء في القرن الرابع للهجرة. روى له الثعالبي في (اليتيمة) فصولا من نثره ومختارات من شعره، ونوه ببلاغته وكتابته، وأثنى ابن خلكان على شعره ونثره. أنظر، يتيمة الدهر، 2 : 241 — 312، وفيات الأعيان، 1 : 52 — 54.

(22) الرسالة ضمن مجموع مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (4650 أدب)

(23) رسالة ابن القاسم. المجموع. ورقة 39.

(24) نفسه، ورقة 39.

(25) نفسه، ورقة 39

(26) نفسه، ورقة 39

(27) نفسه، ورقة 39

ذا ابن أبي الخصال بعد أن ينفي عن الصابي تهمة التكلف. يقول : (... وهل نفس التكلف إلا ما دفع البديع إليه وتبعناه معشر الضعفاء عليه حين عدلنا عن المنهج، ودخلنا تحت الحرج، ولوشاء الله بنا يسرا، لوضع عنا من هذه المشقة إصرا، فالصابي ينسق أعلاقا ونحن نلفق أخلاقا... وعمدة إحساننا حين نعزم، إنما هي لزوم ما لا يلزم، ومقابلات يبدأ بها الكلام ويختم، يعثر فيها القلم، ولا يكاد يقيمها اللسان والفم...) (28). وكتب في فقرة أخرى من رسالته : (أجل، لو وقت للبلغاء يوم لا يعدونه، ونصب لهم حوض على قدر الاحسان يردونه، لورد أبو إسحاق أول وارد، وأخذتنا مع البديع عصى الذائد...) (29) ولا مرية في أهمية هذه الرسالة من حيث دلالتها على تمكن أسلوب البديع وظهوره على غيره من الأساليب في أوساط كتاب الأندلس بما فيهم ابن أبي الخصال نفسه الذي نراه من خلال رسالته (منقادا في أسلوب عصره، غارقا فيما يهاجمه) (30).

على أن تهجم ابن أبي الخصال على البديع وإنكاره على عصريه من الكتاب تقليدهم لطريقته لم يكن ليصرف هؤلاء عن أدب البديع أو ينقص من شأنه لديهم. فهذا أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي (31)، وهو أحد مشاهير الكتاب الذين أعجبوا بمقامات البديع وتأثروا بها فاحتذوها فيما أنشأوا من قليل من الاشادة والثناء في مواضع متفرقة من كتابه ''إحكام صنعة الكلام''

فقد سلكه، أولا، فيمن انتهت إليهم، في رأيه، رئاسة البيان. قال حين ذكر اسم البديع : وهو أحمد، (وهذا الاسم غريب الشأن، ألا تراه قد اختص به

---

(28) نفسه، ورقة 42

(29) نفسه، ورقة 42

(30) أنظر، د. محمد رضوان الداية، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : 345.

(31) من أسرة الكلاعيين التي اشتهرت بالعلم والأدب، واشتغل أبناؤها بالكتابة والوزارة عند بني عباد ثم المرابطين. وقد ألف أبو القاسم آثارا لم يصلنا منها إلا كتابه '' إحكام صنعة الكلام ''.

رؤساء البيان كأحمد الجعفي، وأحمد الهمذاني، وأحمد المعري. ثلاثة كهقعة الجولاء) (32). ثم عقب على هذا بنقل كلام أبي إسحاق إبراهيم الحصري القيرواني الذي قرظ به نثر البديع ووصف مقاماته (33)، وأثبت في إثر ذلك مقتطفات من فصول للهمذاني (34)، هي في نظره، بدائع (يهتز لها اهتزاز النصل) (35). وحين ذكر (المبتدع) (36) من طرائق الترسيل في نظره سارع فاعترف للبديع بفضل السبق فيه : (وأول من جرى في هذا الباب بديع الزمان) (37). ثم عاد، بعد الاشارة إلى ما كتبه أبو محمد عبد المجيد بن عبدون (ت 529 هـ) (38) وما كتبه هو كذلك في هذا الباب، ليؤكد اعترافه بسبق البديع مرة أخرى : (وقد أغرب الحافظ أيضا بمثل هذه الحروف، ونظمناها كهذا النظم المسطور الموصوف، ولكن لا ينحط بذاك أبو الفضل من درجة السبق والفضل، بل له التقدم والاحسان، ولغيره الزج من هذه الصنعة وله السنان) (39). وفضلا عن هذا فإن الكلاعي أورد في «فصل المقامات والحكايات» النصوص الكاملة لبعض المقامات البديعية (40). وقدم لها بقوله : (وقد أجرينا ذكر المقامات في

---

(32) إحكام صنعة الكلام : 118.
(33) نفسه : 120 — 121. وأنظر، زهر الآداب، ج 1 ص 305.
(34) إحكام صنعة الكلام : 121 — 124. هذا وتجدر الاشارة إلى أن أبا القاسم الكلاعي بالاضافة إلى ما أورده من فصول ومقامات للهمذاني، استشهد بكلامه في فصول من " الاحكام " مثل فصل الدعاء (ص 79). وفصل المفصل (ص 151) وغيرهما.
(35) نفسه : 121.
(36) نفسه : 121.
(37) نفسه : 157.
(38) أحد المبرزين في كتاب الأندلس وشعرائها على عصر الطوائف والمرابطين. أنظر عنه، القلائد : 164؛ الصلة، 1 : 369 — 370؛ الذخيرة، ق 1 ج 2 : 313.
(39) إحكام صنعة الكلام : 159.
(40) هي المقامة الأصفهانية، والمقامة الكوفية، والمقامة الجاحظية، والمقامة البغدادية. أنظر، إحكام صنعة الكلام : 199 — 208.

ذكر بديع مرسلته، وتنبيها على ما له فيها من الابداع والاحسان، وأن له أربع مئة مقامة في غاية الجودة والفخامة، والذي وصل الي منها نحو الأربعين) (41).

إذا ذكرنا أن الكلاعي ألف كتابه «إحكام صنعة الكلام» في غضون النصف الأول من القرن السادس، أي في وقت كانت المقامة الحريرية وفدت فيه على الأندلس — كما سنبين — فبهرت كتابها وأخذت بألبابهم، فإنا لنرى في عبارات الاعجاب والتنويه التي خص بها الكلاعي مقامات البديع، وفي حرصه على رواية نصوص جملة منها في كتابه، ما يدل، بوضوح وجلاء، على أن هذه المقامات ظلت بعد القرن الخامس تستهوي طائفة من كتاب الأندلس وتروعهم فلا يعدلون بها غيرها حتى ولو كانت مقامات الحريري؛ يقوي هذا الرأي ويؤكده ما نقع عليه من مثل ذاك التنويه والتقدير لنتاج البديع وأسلوبه عند مؤلفين أندلسيين آخرين ممن عاصروا الكلاعي أو جاءوا بعده من مثل ابن المواعيني الاشبيلي (ت 564 هـ) في كتابه «ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب» (42). وأحمد بن محمد ... (ت 564 هـ) في كتابه «العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل» (43). ... ابن سعيد (ت 685 هـ) في كتابه «عنوان المرقصات والمطربات» (44).

وليس ذلك هو كل ما يبرز لنا مكانة البديع في نظر كتاب الأندلس ونقادها ومؤرخي أدبها، فقد نستدل على تلك المكانة أيضا بأنهم كانوا، أحيانا، إذا أرادوا الاشادة بكاتب من كتابهم والتنويه بمقدرته على صوغ الكلام الجميل ... ه بالبديع وضاهوه به. فهذا أبو عبد الرحمن ابن طاهر، من أعلام الرؤساء

---

(41) ... نفسه، 198 — 199.
(42) ... ظر ورقة 43 و — ظ، مخطوط المكتبة ... .
(43) ... ظر ورقة 2 و، 26 ظ، 57 و.
(44) ... ص 14.

الكتاب في القرن الخامس، إن ذكرت (الكتابة فبديع همذان) (45). وإن هذا الوصف ليس ضربا من إطلاق القول وإرساله جزافا، فالمعروف أن ابن بسام عني بجمع منشآت أبي الطاهر النثرية، ولعله لمس فيها أثر البديع، فضاهى ذاك بهذا تأسيسا على ذلك. أو ربما جعلوا البديع، أحيانا، دون من يصفون من كتابهم بالبراعة في الكتابة والانشاء؛ ومن الأمثلة في هذا الصدد ما كتب به أبو محمد، ابن القاسم إلى القاضي أبي الفضل عياض السبتي (ت 544 هـ) : لمثل نباهتك سارت الأخبار، وفي بداهتك اعتبار... وبرزت فأين من شأوك الصاحب والبديع، جلساء بيان، في خفاء معان... (46). وقلما نجدهم يجعلون من يصفون من كتابهم في مرتبة ثانية بعد البديع من مثل ما ورد في وصف ابن عميرة المخزومي (ت 658 هـ) أنه (ثاني بديع الزمان، في شكوى الحرفة، وسوء الحظ، ورونق الكلام، ولطف المأخذ، وتبريز النثر على النظم، والقصور في السلطانيات) (47). وبوسعنا أن نسترسل في ذكر الأمثلة، وسوق الشواهد؛ ولكن ذلك لن يضيف جديدا إلى ما قدمنا، وإنما الجديد الذي يستوجب تفصيل القول فيه هو ما كان لمقامات البديع من أثر في نشأة المقامة الأندلسية.

لقد نص ابن عبد الغفور الكلاعي على أن جماعة من الكتاب عارضت مقامات البديع (48)، لكنه، للأسف، لم يثبت نصوص هذه المعارضات أو منتخبات منها؛ بل ولم يسم أصحابها، وبذلك أضاع علينا نصا هاما كنا سنتعرف

---

(45) أنظر، الذخيرة، ق 3. لوحة 11 و (مخطوط مكتبة الرباط د 1324) وهو ليس في المطبوعة.

(46) أنظر، العماد الاصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب والأندلس) ج 3، ص 414.

(47) أنظر، ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة. المجلد الأول. ص 180. النفح. 1 : 294. د. محمد ابن شريفة، أبو المطرف ابن عميرة المخزومي : 218.

(48) أنظر، إحكام صنعة الكلام : 208.

من خلاله على طائفة من رواد المقامة الأندلسية الذين أولعوا بكتابة هذا الجنس الأدبي مترسمين خطى بديع الزمان ومتأثرين به؛ غير أننا، مع ذلك، عرفنا بعض الكتاب الذين أعجبوا بمقامات البديع وتأثروا بها فاحتذوها فيما أنشأوا من مقامات أو رسائل هي أشبه بالمقامات، ومن هؤلاء الكتاب أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد (ت 426 هـ). ومع أننا لا نملك فيما تبقى لنا من نتاج ابن شهيد نصوص مقامات يمكن أن نحدد من خلال مضمونها، وصياغتها، وما استوعبته من أصول هذا الجنس الأدبي الجديد، وتقاليده الفنية، مبلغ سلطان مقامات البديع وتأثيرها على ابن شهيد، فإن مما لاشك فيه أنه (كان من أول المتذوقين لها، الناسجين على منوالها) (49). والظاهر أن إعجابه البالغ بموصوفات البديع في مقاماته هو ما حفزه على كتابة رسائل يعارضه بها في ذلك، ومن أشهرها رسالته في الحلواء (50) التي حاكى بها البديع في المقامة البغدادية (51)، فسخر فيها من فقيه أكول (رأى الحلوى فاستخفه الشره، واضطرب به الوله) (52) على نحو ما سخر البديع في مقاماته من البدوي الذي استفزته (حمة القرم، وعطفته عاطفة اللقم) (53)؛ بل إن '' رسالة التوابع والزوابع '' (54) برمتها ربما تكون مقتبسة في فكرتها وبنيتها من إحدى مقامات البديع وهي المقامة الابليسية (55)، فكلتاهما تدور على لقاء شياطين الشعراء والكتاب في عالم غير

(49) أنظر، د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : 303
(50) أنظر نصها في الذخيرة، ق 1 ج 1 : 230 ـــ 232. ويتيمة الدهر، 2 : 47 ـــ 49. ويلاحظ أن بين رواية ابن بسام لنص الرسالة ورواية الثعالبي فروقا كثيرة.
(51) أنظر، مقامات بديع الزمان الهمذاني، تقديم وشرح الشيخ محمد عبده. ص 59 وما بعدها.
(52) الذخيرة، ق 1 ج 1 : 230.
(53) أنظر، مقامات بديع الزمان الهمذاني : 60.
(54) روى منها ابن بسام فصولا في الذخيرة (ق 1 ج 1 : 210 وما بعدها). وقد نشر بطرس البستاني هذه الفصول في كتاب مستقل، وقدم لها بدراسة عن ابن شهيد ورسالته.
(55) أنظر، مقامات بديع الزمان الهمذاني : [illegible] ـــ 185.

عالمنا ومحاورتهم حول نتاج أصحابهم في الشعر والكتابة، كذلك ليس من المستبعد أن يكون ابن شهيد تأثر فيما أنشأه من رسائل التعريض والأهزال بروح الفكاهة والنادرة التي تشيع في بعض مقامات البديع (56) على نحو لافت للنظر. على أننا لا نشك بعد ذلك في أن ابن شهيد كان وهو يحاكي البديع ويتأثره يحرص على إظهار مقدرته البلاغية التي تثبت تفوقه وتدل على براعته، وقد صرح هو نفسه بهذا المقصد فحكى في '' التوابع والزوابع '' أنه لقي (زبدة الحقب) صاحب البديع وشيطانه فطلب منه هذا وصف جارية، على وجه الاختبار، فوصفها وصفا بارعا استحسنه (زبدة الحقب)، وسارع ابن شهيد فالتمس منه إسماعه وصف البديع للماء، وهو مما حوته المقامة المضيرية (57)، فقال له صاحب البديع في تحد ظاهر : '' ذلك من العقم ''. فأدرك ابن شهيد أنه يريد أن لا طاقة له بمعارضته، فما كان منه إلا أن تناول الماء بوصف طريف لم يكد يفرغ منه حتى رأى صاحب البديع يضرب الأرض برجله لتنشق له عن هوة يغور فيها (58).

ومن الكتاب الذين فتنوا بمقامات البديع وحاولوا مجاراته فيها أبو عبد الله محمد بن شرف القيرواني (ت 460 هـ). وقد أورد ابن بسام طرفا من أخباره وآثاره، ثم قال : (ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه، وصب فيها على قالبه) (59). وقد أودع ابن شرف نفسه مقدمته ل : (مسائل الانتقاء) التصريح بمعارضته مقامات البديع. فقال : (... وزور أيضا بديع الزمان، الحافظ الهمذاني، وهو الأستاذ أبو الفضل أحمد بن الحسين مقامات كان ينشئها بديها

---

(56) أنظر، د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي ص 324.
(57) أنظر، مقامات بديع الزمان الهمذاني : 113.
(58) أنظر، الذخيرة، ق 1 ج 1 235 — 236.
(59) نفسه، ق 4 ج 1 : 154.

في أواخر مجالسه، وينسبها إلى راوية رواها له يسميه عيسى بن هشام، وزعم أنه حدثه بها عن بليغ يسميه أبا الفتح الاسكندري وعددها فيما يزعم رواتها عشرون مقامة إلا أنها لم تصل هذه العدة إلينا. وهي متضمنة معاني مختلفة، ومبنية على مبان شتى غير مؤتلفة، لينتفع بها من الكتاب والمحاضرين من صرفها من هزل إلى جد، ومن ند إلى صد، فأقمت من هذا النحو عشرين حديثا أرجو أن يتبين فضلها، ولا تقصر عما قبلها...) (60) وسنعرض لمقامات ابن شرف في غير هذا المكان.

ولا مرية في أن الذين كتبوا المقامة من الأندلسيين في القرن الخامس من مثل عبد الرحمن بن فتوح، وابن الشهيد، وابن مالك القرطبي، وأبي عبد الله محمد بن مسلم، وغيرهم، كانوا يتأثرون مقامات البديع ويستوحونها، شأنهم في ذلك شأن أي كاتب آخر من كتاب المشرق (61) أو الغرب الاسلامي (62) ممن عنوا بإنشاء المقامة بعد البديع وقبل ظهور مقامات الحريري.

كذلك كان احتفال الأندلسيين بأدب البديع، وكذلك كان أثر مقاماته في نشأة المقامة الأندلسية. وقد ظل هذا الأثر يعمل عمله فيما يكتبه الأندلسيون من مقامات، ولم يخفف منه إلا وفود المقامة الحريرية على الأندلس.

تطوان — د. حسن الوراكلي

---

(60) أنظر، ابن شرف القيرواني، مسائل الانتقاد ص 4.

(61) مثل ابن نباتة السعدي، وعبد الله بن ناقيا.

(62) مثل أبي عبد الله محمد بن الحسين الطوبي الصقلي، كان حيا بصقلية سنة 450 هـ. وقال القفطي عن مقاماته : (وله مقامات تزري بمقامات البديع). أنظر، إنباه الرواه، 3 : 107. وانظر كذلك، عثمان الكعاك. الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط. ص 137 — 138.

مِلكية الأرض في الأندلس

خلال عصر الإمارة

إبراهيم القادري بوتشيش

تعد ملكية الأرض من بين المعضلات التي لازال مؤرخو التاريخ الاقتصادي في المجتمع الاسلامي الوسيط يعاركونها دون حسم في الأمر. واذا كانت هذه الاشكالية تتفاوت نسبة وحجما حسب مختلف البلدان الاسلامية، فإن الأندلس ــ لحسن الحظ ــ حظيت ببعض الاشارات الهامة والنصوص التاريخية التي تمكن من إزاحة الستار حول بعض الغموض الذي يلفها. ويكفي الباحث تجميع هذه النصوص المبعثرة في أمهات المصادر لتكوين فكرة محترمة حولها.

ومن الضروري القول أن اهتمامنا سيتجه ــ انطلاقا من المادة المتاحة ــ إلى التركيز على عصر الامارة (138 ــ 316 هـ)، محاولين الاحاطة بكل أشكال الملكيات المتواجدة وإبراز تطورها، وفق منهج يقوم على مراعاة التنسيق بين الروايات والنصوص المشتتة، وربط هذا التطور بطبيعة الحقبة موضوع البحث.

وقد سبق دراسة ملكية الجيش في بحث مستقل (1)، ولذلك سنحاول أن نعرض لأشكال الملكيات الأخرى وأهمها ملكية الأمراء، ملكية الدولة، ملكية الأحباس، ملكية الفقهاء بالاضافة إلى ملكية البيوتات الكبرى وكبار الموظفين والأشراف.

ونحن في غنى عن القول بأن تشكل الملكيات في الأندلس جرى عبر طرق متعددة ومتنوعة كالاقطاع والاقتناء والوراثة والهبة، ثم المصادرة أو الاستحواذ. وقد كانت مختلف هذه الملكيات تندرج في الغالب الاعم ضمن نظام الملكية الكبرى؛ ولعل كتب الجغرافيا والرحلات تؤكد هذا الطابع. فابن حوقل (2) الذي زار الأندلس في بداية القرن الرابع الهجري (337 هـ)، شاهد بالعيان الضيعات الكبرى، فأكد أنه « ليس بها مدينة غير معمورة ذات رستاق فسيح إلى كورة فيها ضياع عواد ». ونقل المقري (3) عمن سبقوه وصف الضيعات الشاسعة بطليطلة وغربي مالقة وغيرها. ولا أدل على انتشار نظام الضيعات الكبرى من وصف القلقشندي (4) لنهر ''شنيل'' بأنه يشق أربعين ميلا بين بساتين وضياع. ولاشك أن هذه الحقيقة ستتأكد بصورة أوضح من خلال رصد مختلف الملكيات المتواجدة.

ملكيـة الأمـراء.

لامراء في أن وضعية الأمراء؛ وتسنمهم قمة الهرم السياسي، جعلتهم أكثر الشرائح المؤهلة للحصول على زبد الأراضي. فمع مطلع عصر الامارة، أصبح

---

1) سينشر في الأعداد القادمة من المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع.
2) صورة الأرض : ص 111 طبعة بيروت 1973
3) نفح الطيب ج 1. طبعة بيروت، 1968. ص 162 — 163
4) صبح الأعشى. ج 5. طبعة القاهرة (دون ذكر تاريخ الطبع) ص 215

الأمراء الأمويون مع عائلتهم وأقربائهم المروانيين من أكبر الملاكين العقاريين. والنصوص التي تمتلكها حولهم تثبت نفس الطرق المذكورة سلفا في احتيازهم للأراضي.

فمنذ دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس ووصوله إلى السلطة سنة 138 هـ، شرع في توسيع أملاكه الخاصة، فحاز الأراضي التي أقطعه جده هشام من قرى الأخماس، وكانت تشمل كل الاقطاعات التي اجتمعت لولاة الأندلس منذ افتتاحها، وكان سعيد بن ليلى اليحصبي وكيلا عليها حسبما تذكره إحدى الروايات (5).

وإلى جانب الأراضي التي أقطعت له، ذهب ـــ في سبيل توسيع ملكيته الخاصة ـــ إلى مصادرة الأرستقراطية القوطية التي كانت تمثل فئة الملاك الكبار في العصر القوطي، فصادر أراضي "أرطباس" أحد أبناء الملك القوطي السابق غيطشة (6). كما تملص من المعاهدة المعقودة بين المسلمين و "تدمير" لانتزاع أملاكه المتواجدة حول مدينة مرسية (7). وكانت أراضي المستعربين في إشبيلية وقشتالة ضمن سلسلة مصادراته (8).

ولم تسلم الأرستقراطية العربية التي حازت الأراضي في عصر الولاة من سياسة المصادرة هاته. وحسبنا دليلا على ذلك أن الأمير الأموي اشترط لاقرار السلم مع يوسف الفهري والصميل تخليهما عن أملاك يحيى بن حارث وأراضي البربر الذين هاجروا إلى بلاد العدوة نتيجة المجاعة التي عصفت بالأندلس سنة

---

5) مجهول : كتاب في ذكر سبب فتح الأندلس وأمرائها (مخطوط) ص 11

6) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس. طبعة بيروت 1958 ص 60

7) مجهول : أخبار مجموعة. طبعة مدريد 1867. ص 102.

8) BARBERO : la formacion del Feudalismo en la peninsula Iberica. Barcelona. p 189

133 هـ (9). ولم يتورع عن القيام بمناورات ومضايقات ليوسف الفهري حتى تمكن من الاستحواذ على جميع أملاكه (10). بل إن مولاه بدر نفسه كان ضحية هذه السياسة حيث استولى على كل ما ملكت يداه (11).

ولا يمكن تقدير أهمية هذه الأراضي المصادرة إلا إذا علمنا أن ''ارطباس'' السالف الذكر كان يملك حوالي ألف ضيعة أقطعها له الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (12). وان أراضي مرسية المنتزعة من ''تدمير'' كانت قد أقطعت برمتها إلى هذا الأخير حسب الصلح الذي تم بينه وبين عبد العزيز بن موسى. أما الصميل الذي استحوذ الأمير على أملاكه فكان بحوزته ''عقدة الزيتون'' التي وهبه إياها ''أرطباس'' قبل مصادرته (13)؛ وهي ضيعة شاسعة اشتملت حسب ما ذكر أحد الباحثين (14) على مائة صف من أشجار الزيتون، في كل صف ألف أصل؛ ومعنى ذلك أنه استولى على أرض تضم مائة ألف شجرة، وتحتوي على أراحي كثيرة حسبما يفهم من رواية لابن الأثير (15). وهذا ما يفسر تبرم الصميل من التقسيم الذي قام به أبو الخطار والي الأندلس (16)، وهو تقسيم لم يرض رغبته بالطبع.

أما يوسف الفهري المصادر بدوره، فمن المؤكد أنه كان من الملاكين

---

(9) BARBERO : IBIDp 43

(10) ابن الأثير : الكامل في التاريخ. ج 4. طبعة بيروت 1965 ص 364

(11) ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة. ج 1 ص 453. طبعة دار المعارف بمصر (دون تاريخ).

(12) المقري. م.س. ج 1 ص 266

(13) ابن القوطية : م.س. ص 63

(14) حسين مؤنس : فجر الأندلس . طبعة القاهرة 1959. ص 632

(15) الكامل ج 4 ص 308 ويذكر في هذه الرواية أن أبا الخطار لما انهزم اختفى في احدى أراحي الصميل

(16) VIARDOT : Histoire des Arabes et des Maures d'Espagne. Paris 1851. T.I. p 106

الكبار، مصداق ذلك رواية تذكر انه ''كانت له قبل الامارة ضياع يتردد إليها'' (17). ولا يساورنا أدنى شك في أنه استغل وجوده على رأس السلطة ليوسع أملاكه. مصداق ذلك ما عرف عنه أنه استولى على كثير من الأراضي غصبا (18).

ولا نستبعد ــ استنادا على نص لابن الخطيب (19) ــ أن يكون عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) قد جعل حدا لاقطاعات الجند واحتكرها لنفسه ــ بل من المؤكد أنه ذهب إلى حد القضاء على جند مصر الذين كانوا قد أقطعوا كورة باجة في عصر الولاة (20).

وفضلا عن الاقطاع والمصادرة والاستحواذ، اتبع الأمير أسلوب الشراء، فاشترى ''الرصافة'' من أحد وجهاء البربر رزين البرنسي، وهي ضيعة استغلت لزراعة كل أنواع الغراسات بما في ذلك النخيل النادر الوجود بالأندلس (21).

وحذا حذوه ابنه الأمير هشام الرضى (172 ــ 180 هـ)، فاتبع طريقة ابتياع الضيعات. وتذكر المصادر في هذا الصدد الاغراءات التي كانت تقدم

---

(17) ابن الخطيب : م.س ج 4 ص 340.

(18) CHALMETA : Concesiones territoriales en Al Andalus. Cuadernos de Historia 1975, VI, p 43

(19) الاحاطة ج 3 ص 470 حيث يذكر نقلا عن الرازي ما يلي : «وقام بين يديه ــ يقصد عبد الرحمن الداخل، رجل من قنسرين يستنجده ويقول له : يا ابن الخلائف الراشدين والسادات الأكرمين، إليك فررنا وبك عذت من زمن ظلوم ودهر غشوم قلل المال وذهب الحال». وتدل هذه الرواية على أن جند قنسرين لم تعد لهم تلك الوضعية التي كانت لهم في عصر الولاة بفضل الأراضي التي أقطعت لهم».

(20) الحميري : صفة جزيرة الأندلس : منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار. طبعة القاهرة 1977 ص 36

(21) حجي : التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة. طبعة 1976 دمشق ــ الكويت ص 138

له للاعيان عن اقتنائها (22).

من ذلك يتضح مدى اتساع الأراضي الاميرية التي سميت بالمستخلصات. ومن المعلوم أن الأمراء لم يشرفوا عليها مباشرة، بل استأجروها لمجموعة من المزارعين مقابل نصيب من المحصول. ونظرا لكبر حجمها وما كانت تتطلبه من إدارة دقيقة ومحكمة، فقد أحدثت وظيفة خاصة بها أشرف عليها شخص يعرف ''بصاحب الضياع'' (23). وفي بعض الحالات استغلت الأراضي المستولى عليها من طرف الأمراء في إقطاع المخلصين للسلطة الأموية من موالي الأمير وأقربائه، كذا الأشراف والوجهاء القادمون من المشرق الاسلامي (24)، أو الشعراء والممتهنون لحرفة الغناء من أمثال زرياب الذي أقطعه الأمير عبد الرحمن الأوسط (206 — 238 هـ) الدور والمستغلات بقرطبة بما تشتمل عليه من بساتين وضيعات (25).

وقد ورثت الأراضي الأميرية في الأعقاب، لكن يظهر أنها تقلصت في النصف الثاني من عصر الامارة والذي يمتد من 250 إلى 316 هـ، وذلك بفعل استحواذ زعماء الامارات المستقلة على معظم مساحة الأندلس، حتى أن أملاك الأمير اقتصرت على ملكيات صغيرة عرفت باسم ''المنيات''، وانحصرت في العاصمة أو ضواحيها. ونذكر في هذا الشأن أن الأمير محمد (238 — 273

(22) أنظر : مجهول : أخبار مجموعة ص 120 — ابن الأبار : الحلة السيراء طبعة القاهرة 1963 ص 42 — 43 — ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة. طبعة القاهرة 1958 ص 41.

(23) انظر كتابي بروفنسال:

- Histoire de l'Espagne Musulmane. Tom III. Ed Paris 1950 Leiden. J Brill p 45 - 46
- L'Espagne Musulmane au xe siecle : institution et vie social. Paris 1932 p 162.

(24) ابن حيان : المقتبس من أنباء أهل الأندلس : القطعة الخاصة بعهد عبد الرحمن الأوسط : نشر محمود مكي. طبعة القاهرة 1971 ص : 229

(25) النشيا : تاريخ الفكر الأندلسي . طبعة مدريد 1945 ص. 53

هـ) كانت بحوزته منية تدعى ''كنتش'' تقع غرب قرطبة على الوادي الكبير، وهي ضيعة توجد بها حدائق ومنتزهات وأشجار (26). كما جدد بناء منية ''الرصافة'' التي « جاءت قبلة لجميع المنى، ومثلا فيما يقتاس به من جلالة الأشياء... جمال منظر، وكثرة شجر، وطيب ثمر » (27)، وهذا ماحدا به إلى جعلها منتدى نزهاته وسمره (28). كما اختص نفسه بمنية أخرى تعرف ''بالقنبانية''، وهي ضيعة ذات حقول شاسعة في « سهل جميل، مغروسة بأشجار جميلة كثيرة العدد » (29).

وأفاضت المصادر في وصف منيات الأمير عبد الله (275 ــ 300 هـ) وخاصة ''منية نصر'' المحادية لقرطبة وتعرف كذلك ''بأرحاء الحناء''. ويذكر الحميري (30) أنها من بناء الأمير نفسه، ويصف الركن الشرقي منها بقوله : « والركن الشرقي مما يلي القبلة من هذه المنية يعرف بالركين وهو على النهر، وفيه ثمرات وزيتون... »

وفضلا عن ذلك اتبع الأمير عبد الله أسلوب الشراء فاقتنى ''منية الناعورة'' الواقعة جنوب قرطبة على الوادي الكبير بما حولها من الحقول، لقضاء أوقات فراغه فيها، واستغلالها في نزهاته الخاصة (31).

---

26) ابن حيان : المقتبس من أخبار أهل الأندلس. القطعة الخاصة بآخر عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ومعظم عهد الأمير محمد. تحقيق محمود مكي. طبعة بيروت 1973 ص 236.
أنظر كذلك : سالم السيد : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ج 1. طبعة بيروت 1971 ص 255. عنان : دولة الاسلام في الأندلس . طبعة القاهرة 1960 ص 310.

27) ابن حيان : م.س ص 227

28) ابن عبد ربه : العقد الفريد. ج 4 طبعة القاهرة 1965 ص 495.

29) الرازي : جغرافية الرازي. نشرها بروفنسال ص 65

30) صفة جزيرة الأندلس ص 187

31) سالم السيد : م.س.ص 204 ــ 205

ولم تكن ملكية إخوة الأمراء وأبنائهم أقل أهمية. ذكر ابن حيان (32) أن أول أمر نظر فيه الأمير محمد هو قضية إخوته « فتقدم في ابتياع الدور الفخمة، والضياع المغلة... وضم إلى كل منهم ما ابتاعه من ضيعة وغلة، وأجرى على سراتهم القطائع الواسعة ». وأقطع الولد مسلمة ابن الأمير عبد الله ضياعا شاسعة جعل عليها وكيلا خاصا (33). ولعل اتساع ملكية العائلة الأميرية كان وراء إنشاء ''خطة مواريث البيت الأموي'' التي أشرف عليها في عهد الأمير محمد موظف يدعى خلف بن فرج كما ينص على ذلك ابن الأبار (34).

والجدير بالذكر أن أراضي الأمراء آلت إليهم بمن عليها من مزارعين وعبيد وإماء ودواب وكراع (35)، وهو ما يشبه من بعض الوجوه صورة بعض الملاكين الاقطاعيين في أوروبا خلال العصر الوسيط.

وإذا كان المرء يلاحظ بوضوح مدى اتساع الأراضي الأميرية، فهل كان ذلك على حساب أراضي الدولة ؟

ملكية الدولة :

تتسم معلوماتنا حول ملكية الدولة في الأندلس خلال عصر الامارة بالشحة، ذلك أنها تدخل مبدئيا ضمن الملكية العامة، ولذلك لم تحظ باهتمام المؤرخين الذين أولوا عنايتهم للأراضي الأميرية. ومع ذلك يمكن إعطاء فكرة

---

(32) المقتبس : القطعة الخاصة بالأمير محمد ص 194 — 195

(33) نفسه ص 172

(34) التكملة ج 1 ص 292

(35) ذكر ابن حيان أن الأمير محمد عندما أقطع إخوته، أقطعهم من الأراضي « كل ما يحتاجون إليه من عيال وإماء وعبيد ودواب » أنظر ابن حيان : م.س ص 194 — 195.

حول الأراضي التي كانت تكون ملكية الدولة وعلى رأسها أرض الخمس وأراضي الصوافي.

أما أراضي الخمس فقد سبق أن عرضنا له في دراسة سابقة (30)، واستخلصنا أن عملية تخميس أرض الأندلس ظلت غامضة ولم تتم بصورة نهائية. والراجح أنه زادت تقلصا في عصر الامارة حتى كادت أن تختفي. فمن هذا الخمس المبتور، أقطع جنود والي الأندلس السمح بن مالك الخولاني، وبنو سراج القضاعيين. ومن هذا الخمس نفسه حاز عبد الرحمن الداخل الاقطاعات التي تجمعت لأجداده منذ افتتاح الأندلس. وإذا افترضنا صحة رأي ''دوزي'' القائل بأن قسما من الجند الشامي كان يعيش من موارد الخمس، أمكن ملاحظة النقص الخطير الذي عرفته أراضي الدولة في عصر الامارة.

وفي الفترة الأخيرة من هذا العصر، أصبحت ملكية الدولة غامضة جدا لأن الأندلس عرفت خلال هذه الحقبة تمزقا سياسيا خطيرا، بحيث أصبحت السلطة السياسية موزعة بين عدد من الكيانات القزمية، وبالتالي أصبح مفهوم الملكية العامة في حد ذاته لا يستند على أي أساس شرعي.

بينما تحولت أراضي الصوافي التي كانت موقوفة في عصر الولاة على بيت المال إلى إقطاعات وهبات لأفراد الأسرة الحاكمة أو الفقهاء أو الشعراء أو بعض المروانيين القادمين من المشرق (37).

---

36) أنظر المقال الذي كتبه صاحب هذا البحث في مجلة البحث العلمي. العدد 36

37) اعتبرت الأراضي التي أقطعت لأبناء غيطشة من أراضي الصوافي، وعندما صادر عبد الرحمن الداخل أراضيهم أقطع منها المروانيين القادمين من الشرق مثل إقطاع أبو القاسم بكار بن عبد الواحد وابن أخيه أبو سعيد مسلمة بن عبد الملك وأصبغ بن محمد. أنظر المقتبس القطعة الخاصة بالأمير عبد الرحمن الأوسط. ص 229.

والثابت أن بعض الأراضي التي ضرب عليها الخراج كانت تغذي بيت المال، وكان يقوم بهذه الوظيفة بعض الجباة كما يفهم ذلك من خلال رواية ابن قتيبة (38) إلا أن ذلك اقتصر على عصر الولاة. والراجح أن هذه الأراضي تحولت إلى ملكية فردية، وانتقلت من الحق العام إلى الحق الخاص. وفي هذا الصدد ذكر أبو الأصبغ القرشي ما يلي : « أدركت أهل الفقه والورع في بلاد الأندلس يشترون الأرض فيها ويبيعون، ونحن متبعون لهم » (39) وهذا يعني أن أرض الخراج صارت تفوت وتباع، ومن ثم أصبحت موضوع تملك فردي، أي أنها انتقلت من ملكية الدولة إلى ملكية خاصة نتيجة انعدام قانون ثابت، وتعدد أساليب الحيازة الفردية. ويؤيد هذا الزعم ما ذكره ابن خلدون (40) عن قلة الخراج خلال هذه الحقبة وخاصة في المرحلة الأخيرة من عصر الامارة.

أما الكنائس فنحن نعلم أنها كانت لديها أملاك وأنها إما صودرت فآلت ملكيتها إلى الدولة منذ الفتح الاسلامي (41)،أوظلت في أيدي أصحابها مقابل أداء ضريبة الخراج (42). فهل بقيت في ملكية الدولة إبان عصر الامارة ؟

بالرغم من عدم توفر نصوص واضحة تجيب إجابة شافية، فإن ذلك لا

---

38) الامامة والسياسة ج 2 طبعة مؤسسة الحلبي (دون تاريخ) ص 76 — 77. وهناك نص الرواية وفيها يذكر قولة موسى مخاطبا الخليفة الأموي : « الآن طابت نفسك يا أمير المومنين فأعطني أربعة خصال ولك ما دعوتني إليه من هذا المال فقال : وماهن : قال لا تعزل عبد الله بن موسى عن افريقية وجميع عمله سنتين، وأن ما جبال عبد الله بإفريقية فهو لي وعبد العزيز في الأندلس فهو لي».

39) ابن إبراهيم : الامتاع في أحكام الاقطاع (مخطوط) ورقة 5

40) كتاب العبر، ج 4 طبعة بيروت 1979 ص 133

41) Ensayo sobre la historia de la propriedad territorial : F. De Cadernas : En Espagna. TOMI. Madrid 1873, p 188

42) Historia de los Mozarabes. Madrid 1897 - 1903. p : 64 : SIMONET
أنظر أيضا : مؤنس : م.س.ص 501

يحول دون افتراض أن سيطرة الدولة على أراضي الكنيسة استمرت خلال المرحلة الأولى من عصر الامارة بفضل قوة الحكم المركزي. غير أنه ابتداء من أواخر عهد الأمير محمد، بدأت السلطة المركزية في الانحطاط، وفقدت نتيجة لذلك سيطرتها على أملاك الكنيسة. ذلك أن المسيحيين وأصحاب الكنائس استغلوا ظروف التجزئة السياسية التي بدأت تشهدها الأندلس وذهاب هيبة الحكم المركزي، وتناحر الكيانات الانفصالية، فأخذوا يتملصون من أداء الضرائب. بل إن النصارى في ببشتر انضموا إلى ثورة ابن حفصون وأعلنوا انسلاخهم الكلي عن حكومة قرطبة، كذا الحال بالنسبة لمختلف الامارات المستقلة الأخرى، ولم تبق بالتالي سوى أراضي الكنيسة في قرطبة ضمن أملاك الدولة.

وإذا كانت أراضي اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين قد اعتبرت من الأراضي المهجورة التي تؤول ملكيتها قانونيا إلى الدولة (43)، فإن المصادر تلوذ بالصمت التام عن ذكرها خلال هذه الفترة، مما يعكس فكرة فقدان الدولة لسيطرتها عليها وبالتالي تحولها إلى ملكية خاصة.

يستخلص من هذه الاشارات إلى أن ملكية الدولة تقلصت كثيرا في أواخر عصر الامارة (44) وهذا ما يفسر العجز الذي أصيب به بيت المال في هذه الحقبة بالذات فماذا يمكن قوله عن أراضي الأحباس ؟

أراضي الأحباس

وتعتبر أراضي الأحباس كذلك ضمن أنواع الملكيات في الأندلس.

---

(43) Loc.op.cit. p 291 : F. De CADENAS

(44) انظر ابن حيان الذي يتحدث عن «قلوص الأموال» و « قصور مقدور الجباية » في هذه الحقبة ابن حيان . المقتبس : القطعة الخاصة بالأمير عبد الله. نشرها ملشور انطونيا طبعة باريس 1937 ص 39 و 132

والمصادر التاريخية لا تجود عادة سوى بإشارات طفيفة عن هذا النوع من الملكية. في حين نجدها مشتتة في ثنايا كتب النوازل التي من خلالها نعلم أن ''صاحب الأحباس'' كان هو المشرف الاداري على هذا النوع من الأراضي. ويتردد اسم ''ابن يحيى'' ضمن هؤلاء المشرفين. ولا تخلو هذه الكتب من ذكر ما اعتراها من مشاكل (45). ويظهر أن هذه المشاكل برز معظمها في أواخر عصر الامارة حينما ضعفت السلطة المركزية وأفلتت قبضتها على الأراضي بسبب التجزئة والحركات الانفصالية والفوضى التي ذرت قرنها في طول بلاد الأندلس وعرضها.

والنصوص التي بين أيدينا تؤكد غلبة التحبيس لصالح الأفراد، واستفادة الأمراء من ذلك. فقد حبس عبد الرحمن بن معاوية بعض الأراضي على ابنتيه (46). ويخبرنا ابن خاقان (47) أن عبد الرحمن الناصر ركب يوما لحيازة أرض محبسة في ركب من وجوه الفقهاء، وهي رواية يمكن أن تفسر على وجهين : إما أنها حبست عليه في عهد الأمير عبد الله، فحازها لنفسه بمجرد ما آلت إليه الخلافة، وإما أن الأمير أخذ يسترد الأملاك المحبسة على الأفراد ليجعلها ضمن أملاك الدولة في إطار السياسة الاصلاحية التي نهجها تجاه الأرض. كما لا تعدم إشارات عن استفادة بعض اليهود من أراضي الأحباس (48)

ووقعت بعض الأراضي المحبسة تحت طائلة نظام القبالة إذ كانت الدولة تعهد بها إلى متقبلين لاستغلالها مقابل دفع الضرائب، وهؤلاء بدورهم كانوا

45) وردت في نوازل ابن سهل نازلة لابن لبابة الفقيه المعاصر لهذه الفترة تشير إلى مشاكل من هذا القبيل. عن هذه المشكلة وغيرها أنظر : ابن سهل : نوازل الأحكام ص 179، 205، 278، 293

46) مخطوط مجهول المؤلف والعنوان ص 161 ضمن مجموع 198 D2 في الخزانة العامة بالرباط

47) مطمح الأنفس. طبعة القسطنطينية 1302 هـ. ص 44.

48) مخطوط مجهول المؤلف السالف الذكر ص 161

يتعاقدون مع مزارعين قصد العمل فيها. وأشرف على هذه الأراضي ديوان القضاة بقرطبة الذي تمثلت مهمته في مقاومة الجوائح التي تضر بها (49).

باستثناء هذه الشذرات الطفيفة، لا نجد معلومات كثيرة تخص هذه المرحلة مما يجعلنا نستنتج تقلص أراضي الأحباس، وهو شيء طبيعي بالنسبة لحقبة كانت تعج بالفوضى وتجاوز قانون الملكية العقارية.

ملكية الفقهاء

منذ أن دخل المذهب المالكي الأندلس في عهد الأمير هشام الرضى (ت سنة 180 هـ)، بدأ نجم الفقهاء في الظهور، حظوا بعطفه فوسع عليهم الأرزاق، وأقطعهم الضياع (50). كما وحظوا برعاية الحكم الربضي الذي بسط لهم يده كل البسط، وخصهم بالهبات والانعامات (51). غير أن تزايد نفوذهم نتيجة نمو ثرواتهم العقارية جعلهم يتطلعون إلى السلطة، مما حدا بالحكم إلى البطش بهم دون رحمة في وقعة الربض سنة 202 هـ. وحاول ابنه عبد الرحمن الأوسط أن يوازن بين نفوذهم وتطلعاتهم، فكان يسميهم ''سلسلة السوء''(52)، ومع ذلك لم يتورع عن منحهم الأراضي والاقطاعات الواسعة (53).

غير أن هذا التوازن سرعان ما عرف تحولا لصالحهم في الفترة الأخيرة

(49) ابن سهل : م.س. ص 25 القسم المنشور في مجلة هسبريس. المجلد 14 سنة 1973
(50) ابن الأبار : التكملة ج 1 ص 201 ويذكر أنه أقطع الفقيه جعفر بن سليمان
(51) عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك ج 2. طبعة بيروت (دون تاريخ) ص 493 ويذكر أنه أقطع الفقيه أبو عبد الله بن حارث ضياعا بمدينة باجة
(52) ابن حيان : المقتبس. القطعة الخاصة بالأمير عبد الرحمن الأوسط. ص 202
(53) عن إقطاعاته أنظر : عياض : م.س. ج 3 ص 132 — مجهول : طبقات المالكية (مخطوط) ص 86 — ابن عجيبة : أزهار البستان (مخطوط) ص 24

من عصر الامارة حيث برزوا على مسرح الأحداث كقوة ذات نفوذ كبير. فالأمراء أصبحوا في أمس الحاجة إليهم لتبرير شرعية أعمالهم. ولذلك أغدقوا عليهم بالانعامات والاقطاعات حتى صاروا أكبر الملاكين.

وبالرغم من أن المصادر تلوذ بالصمت أحيانا عن ذكر كيفية أيلولة الأراضي إليهم، فإننا لا نستبعد أن تكون قد تمت عن طريق الاقطاع.

وأول ما يلاحظ بالنسبة لملكية الفقهاء هو كبر حجمها. ولدينا من النصوص ما يقيم الدليل على ذلك. فالفقيه يوسف بن مطروح الذي عاش في عهد الأمير محمد كان يمتلك ضيعات شاسعة بالقرب من قرطبة (54). بينما كان بحوزة فقيه آخر هو إبراهيم ابن قزار فدادين كثيرة كون فيها مدرسة أخذ يتقاطر عليها الطلبة من كل ناحية (55). بل إن الفقيهين علي بن عيسى (56)، وإبراهيم بن مزين (57)، أقطعوا قرى بكاملها. وهذا راجع إلى نفوذهم الروحي، فضلا عن توليهم مهنة القضاء، وهذا ما يفسر امتلاك القاضي عمر بن عبد الله ضياعا واسعة هو وأبناؤه (58).

وثمة فقهاء لم يحوزوا على ملكيات في مثل هذا الحجم، ولكن مع ذلك كان لكل فقيه ضيعة على الأقل. ونسوق في هذا الصدد مثال الغمر بن فهد الذي امتلك ضيعة بناحية قبرة (59)، وابن وهب الذي كان بحوزته بستان واسع بالقرب من مقبرة قريش (60).

---

(54) ابن حيان : المقتبس، القطعة الخاصة بالأمير محمد، ص 190 — 191
(55) مجهول : طبقات المالكية (مخطوط) ص 97
(56) ابن فرحون : الديباج المذهب طبعة مصر 1351 هـ ص 197
(57) الخشني : أخبار الفقهاء والمحدثين (مخطوط) ورقة 174 — الوجه الأول
(58) ابن القوطية : م.س ص 94
(59) الخشني : قضاة قرطبة وعلماء افريقية طبعة 1372 هـ ص 47
(60) عياض : م.س ج 3 ص 140

ومع أن الأمير المنذر (273 ــ 275 هـ) رغب في مصادرتهم، فإنهم حافظوا على أملاكهم، و لم يمتد به العمر حتى ينتزعها منهم كما فعل مع قادة الجند.

أما في عهد الأمير عبد الله (275 ــ 300 هـ) فقد بلغ إقطاع الفقهاء الأراضي ذروته. وحسبنا أنه أقطع أملاكا شاسعة للفقيه عزيز بن محمد، فكانت له ضياع بقرية شريس وأخرى بقرية بلجيش (61). وتدل إقامتهم في ''المنيات'' التي تحدثنا عنها آنفا على علاقتهم بالأرض. فداود بن هذيل سكن في الرصافة (62)، بينما أقام يوسف بن عمروس في منية العجب التي نسبت إليه. (63)

ومع أن النصوص المتوفرة لا تسمح برسم صورة متكاملة عن كل الملاكين من الفقهاء الذين عاشوا في عصر الامارة، فمن الممكن استخلاص فكرة أنهم كانوا يشكلون شريحة هامة من الملاك الكبار، خاصة إذا علمنا أنهم كانوا يتصدرون قمة الهرم السياسي.

ملكية البيوتات الكبرى

تحتل ملكية البيوتات الكبرى في الأندلس حيزا هاما في خارطة الملكية العقارية. وقد جاء أغلبها عن طريق الوراثة. فبشرق إشبيلية كان بحوزة بيت بني غافق قرية بكاملها منذ عصر الولاة، واستمر أفرادها يتوارثونها إلى غاية عصر الامارة حيث عرفت قريتهم باسم « مرنانة الغافقيين » نسبة إليهم (64). وبفضلها اكتسبوا ثروة هائلة وأصبح لهم وزن سياسي هام.

61) ابن عسكر : فقهاء مالقه وأدباؤهم (مخطوط) ص 161 ــ 162
62) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس طبعة القاهرة 1966 ص 163
63) ياقوت : معجم البلدان ج II طبعة بيروت (دون تاريخ) ص 218
64) ابن القوطية : م.س ص 96

وأقطع بيت بني رزين بلاد السهلة بأسرها منذ عصر الولاة. وكان رزين البرنسي قد حازها ضمن القطائع التي استفاد منها الفاتحون، واورث ذلك عقبه من بني رزين، فصاروا في عصر الامارة بدون منازع «امراء السهلة» وأصبحت لهم ثروة كبيرة (65). وتنسب إليهم أيضا الجنان التي تجاور عين قبش (66).

أما بيت بني الأفلح فقد ورثوا عن جدهم عدي بن خذيمة فحص البلوط (67) وهي منطقة سهلية زراعية، عاشوا في أريافها متمتعين بما تدره عليهم من ريع.

واشتهر بيت بني الزجالي بثروته العقارية. ولا غرو فقد نسب إليهم حير الزجالي وهو من أجمل المنتزهات وأبدعها في قرطبة ويتجلى ذلك في وصف ابن خاقان (68) بقوله « وهذا الحير من أبدع المواضع وأجملها، وأتمها حسنا وأكملها، مرمرا صافي البياض، له جوانبه وأرجاؤه... ».

ويعد بيت بني السعيدي من البيوتات الملاكة أيضا. وقد ورثوا أراضيهم من جدهم أصبغ بن محمد بن هشام (69).

واستفادت بعض البيوتات من وزنها السياسي مقابل ضعف السلطة المركزية في أواخر عصر الامارة، فاستغلت ذلك للمزيد من الاستحواذ على الأراضي مثل بيت بني حجاج الذي أقطعت له الامارة أراضي إشبيلية، فوسع

(65) مجهول : مفاخر البربر. طبعة الرباط 1934 ص 79
(66) حجي : م.س. ص 138
(67) ابن الفرضي : م.س. ق 1 ص 153
(68) نقلا عن سالم : قرطبة في عصر الخلافة ج 1 ص 212
(69) ابن حيان : المقتبس. القطعة الخاصة بعبد الرحمن الأوسط. ص 229

زعماؤه أملاكهم، وأقاموا فيها منازلهم الريفية، واستفادوا من أعشابها في تربية مواشيهم (70).

ونفس القول ينسحب على بيت بني خلدون الذي كانت بحوزته ضياع شاسعة في منطقة الجرف بتينها وزيتونها، وسخر المزارعين في خدمتها ورعي ماشيتها إضافة إلى تقديم السخرات (71). هذا فضلا عن بيت بني الليث الذي أقطع ضياعا كثيرة شملت الربض الغربي من قرطبة بكامله (72).

كما استفادت بعض البيوتات من ظروف الصراع الداخلي الذي شهدته الأندلس في أواخر عصر الامارة لاحتياز حصون تضم أراضي خصبة مثل قلعة بني سعيد (73). ولعل اتساع ملكيات بعض البيوتات الكبرى كان وراء تسمية بعض المناطق بأسماء مالكيها كما هو الحال بالنسبة لمنزل همذان بالقرب من غرناطة، ومنزل طيني قبلي قرطبة (74)، ثم دار بلي شمال نفس المدينة (75).

ملكية كبار الموظفين والأشراف

أما بالنسبة لملكية كبار الموظفين والأشراف، فإنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالسلطة السياسية وعلاقات الولاء والقرابة. فحاجة الأمراء لموظفي الدولة «الاداريين» جعلتهم لا يبخلون بإقطاعهم الأراضي الشاسعة. وتبرز في هذا الشأن

(70) Provençal : loc.op.cit . p 375

(71) Ibid :

(72) العذري : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار. طبعة مدريد 1965 ص 106

(73) مؤنس : م.س ص 376

(74) سالم السيد : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص 122. طبعة دار المعارف بمصر 1962

(75) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب. طبعة القاهرة 1971 ص 443

أسماء ابن غانم وابن وانسوس وعيسى بن شهيد وابن حدير، بالاضافة إلى بعض أهل الذمة من أمثال قومس بن إنتيان (76).

وقد تمكن هؤلاء من جمع ثروات هائلة عن طريق استثمار أراضيهم التي جعلوا عليها وكلاء ينوبون عنهم مؤثرين الدعة في الحواضر. وبفضل هذه الثروة العقارية، أصبح لهم نفوذ اجتماعي كبير، بل كثيرا ما تطلع بعض الأمراء إليهم لتقديم المساعدة لهم في حالة عجز بيت المال كما هو الحال بالنسبة للأمير عبد الله الذي تلقى منهم إعانات هامة.

وكانت ملكية « الجهاز الاداري » أحسن حظا وأكثر ديمومة إذ لم يؤثر فيها تغير الأمراء ومصادراتهم لاعتمادهم الكامل عليهم، وهذا ما يفسر تعاظم دورهم السياسي في عصر الامارة.

وعلى غرار موظفي الامارة، حضي الأشراف وزعماء القبائل العربية الوافدة من المشرق الاسلامي بإقطاعات واسعة من جانب السلطة المركزية مكونين بذلك ملكيات شاسعة. ومنهم من أقطع في عصر الولاة فأورث أراضيه لعقبه. ونسوق في هذا الصدد مثال مغيث الرومي الذي بعثته الخلافة الاسلامية في دمشق لايقاف توغل موسى في شمال الأندلس فتحول من مبعوث إلى مالك أرض كبيرة عرفت ببلاط مغيث (77)، وهي «أرض شريفة ذات سقي وزيتون» (78). واستمر هذا البلاط حتى عصر الامارة حيث أقطع لبعض الفقهاء لاقامة منازلهم ودورهم.

---

(76) الخشني : قضاة قرطبة ص 112

(77) الغساني : رحلة الوزير في افتكاك الأسير. طبعة طنجة 1940 ص 115

(78) مجهول : أخبار مجموعة : ص 21

ومن الأشراف الذين حازوا على إقطاعات أيضا أبو عثمن وعبد الله بن خالد اللذان أقطعا قريتين، فحاز الأول على قرية ''طرش''، بينما أقطع الثاني قرية ''القنتين''. ووهب أرطباس لميمون العابد مجموعة من الضياع بما فيها من بقر وغنم وعبيد (79)، ويذكر أنه ورثها لعقبه (80). كما أن أحد أشراف بني عبد الدار كان يملك منية واسعة (81).

ولا يمكن فصل إقطاع هؤلاء الأشراف عن العلاقة الحميمة التي تجمعهم مع الأمراء. ويتجلى ذلك فيما ذكره ابن الأبار (82) من أن أحد أشراف اشبيلية روى حديثا عن حنش الصنعاني فحواه أن ملك بني أمية سيظل قائما إلى خروج الدجال (!)، فأقطعه عبد الرحمن الداخل إقطاعا واسعا.

وتستعمل المصادر مصطلح ''إنزال'' لنعت إقطاع الأشراف القادمين من المشرق. ويذكر في هذا الصدد إقطاع عبد الرحمن الأوسط لأبي القاسم بكار بن عبد الواحد وابن أخيه أصبغ بن محمد بن هشام (83).

وفي عهد الأمير محمد جرى اقطاع الأشراف على نطاق واسع حيث أقطع الحسن بن حارث أرضا في ريُه (84). كما وفدت موجة من الوجهاء من بني طريف من اليمانية وبني شاهد من المضرية. ويظهر تعلقهم بالأراضي من خلال ما ذكره العذري (85) من أن أول ما سألوا عنه هو فحص لورقة وأهميته

79) ابن القوطية : م.س ص 63
80) المقري : م.س ج 1 ص 268
81) مؤنس : م.س ص 632
82) التكملة. ج 1 ص 153
83) ابن حيان : م.س ص 229
84) المقري : م.س. ج 3 ص 143
85) ترصيع الأخبار ص 2 و 3

الزراعية، فذكر لهم فضله وخصوبة أرضه ونمو زرعه.

صفوة القول، هو أن ملكية الأرض في الأندلس خلال عصر الامارة عرفت أشكالا متباينة حسب الأصناف السالفة الذكر. وما من شك في أن تواجد هذه الأصناف راجع إلى طبيعة الحقبة التي انصبت حولها الدراسة. وهذا يعني أنها ستعرف تحولا إبان عصر الخلافة سيفضي إلى خلخلة الأشكال القديمة بفضل السياسة الاصلاحية التي نهجها عبد الرحمن الناصر، وهو موضوع جدير بالدراسة سنعرض له ــ بحول الله ــ في بحث مستقل (86).

مكناس **إبراهيم القادري بوتشيش**

المصادر والمراجع المستعملة في البحث

أولا : المخطوطات :

1 ــ ابن عجيبة (عاش في القرن الثالث عشر الهجري) :
أزهار البستان في طبقات الأعيان . الخزانة الحسنية رقم **417**

2 ــ ابن عسكر، محمد بن علي بن خضر بن هارون الغساني (توفي سنة 636 هـ) :
فقهاء مالقة وأدباؤهم . الخزانة الحسنية رقم **11055**

(86) سبق للأستاذ شالميطا أن درس هذا الموضوع، ولكننا سنحاول تناوله من وجهة نظر مختلفة. أنظر :
CHALMETA (P) : Concessions territoriales dans Al Andalus au Xe siecle
Actes Congres U.E.A.I. leiden 1981. pp 48-96.

3 ــ ابن سهل، عيسى بن أصبغ عبد الله الأسدي (توفي بغرناطة سنة 486 هـ)
نوازل الأحكام . الخزانة العامة بالرباط رقم ق 370

4 ــ الخشني، محمد بن حارث (توفي بقرطبة عام 361 هـ) :
أخبار الفقهاء والمحدثين . الخزانة الحسنية رقم 6916

5 ــ عباس بن إبراهيم (عاش في القرن الرابع عشر الهجري)
الامتاع في أحكام الاقطاع . الخزانة العامة بالرباط رقم د. 13

6 ــ مجهول (توفي ما بعد عام 1025 هـ) :
كتاب طبقات المالكية . الخزانة العامة بالرباط رقم د 3928

7 ــ مجهول (عاش في أوائل القرن السادس الهجري):
كتاب في ذكر سبب فتح الأندلس وأمرائها . الخزانة الحسنية رقم 7531

8 ــ مخطوطة مجهولة العنوان والمؤلف
بالخزانة العامة بالرباط رقم د. 2198.

ثانيا : المصادر المنشورة

9 ــ ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (بلنسية 595 ــ تونس 658 هـ) :
التكملة لكتاب الصلة . الجزء الأول
نشر وتحقيق السيد عزت العطار الحسيني . طبعة القاهرة 1955

10 ــ ابن الأبار : كتاب الحلة السيراء . الجزء الأول
تحقيق وتعليق حسين مؤنس . طبعة القاهرة 1963

11 ــ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (ولد في جزيرة ابن عمر في 4 جمادى الأولى عام 555 هـ وتوفي بالموصل في شعبان عام 630 هـ).
الكامل في التاريخ . الجزء الرابع . طبعة بيروت 1978

12 ــ ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (قرطبة رمضان 384 هـ ــ ليلة شعبان 456 هـ)
جمهرة أنساب العرب
تحقيق فؤاد سيد . طبعة القاهرة 1955

13 ــ ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل الموصلي (توفي عام 367 هـ) :
صورة الأرض
نشر مكتبة دار الحياة . طبعة بيروت 1979

14 ــ ابن حيان، أبو مروان خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان. (قرطبة 377 هـ ــ قرطبة 27 ربيع الأول 469 هـ) : المقتبس من أنباء أهل الأندلس. القطعة الخاصة بعهد الأمير عبد الرحمن الأوسط. نشرها محمود مكي. طبعة القاهرة 1971

15 ــ ابن حيان : المقتبس من أخبار أهل الأندلس. القطعة الخاصة بأواخر عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ومعظم عهد الأمير محمد. نشرها وحققها وعلق عليها محمود مكي. طبعة بيروت 1973

16 ــ ابن حيان : المقتبس . القطعة الخاصة بعهد الأمير عبد الله
نشرها ملشورانطونيا . طبعة باريس 1937

17 ــ ابن خاقان، أبو نصر الفتح (توفي ما بعد سنة 528 هـ)
مطمح الأنفس، ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس
طبعة القسطنطينية 1302 هـ

18 ــ ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد.
(لوشة 25 رجب 713 هـ، فاس أحد الربيعين 776 هـ) : الاحاطة
في أخبار غرناطة. الأجزاء 1 و 3.
تحقيق محمد عبد الله عنان . طبعة دار المعارف بمصر (دون تاريخ).

19 ــ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (تونس 732 هـ ــ القاهرة 808هـ):
كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوي السلطان الأكبر . الجزء الرابع . طبعة بيروت 1979

20 ــ ابن عبد ربه، أبو عمر بن محمد الأندلسي (توفي عام 327 هـ) :
كتاب العقد الفريد . الجزء الرابع
شرح وتصحيح أحمد أمين وإبراهيم الابياري . طبعة القاهرة 1965

21 ــ ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي اليعمري (توفي عام 799 هـ) :
الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب
طبعة الفحامين بمصر سنة 1351 هـ

22 ــ ابن الفرضي، الحافظ أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر
الأزدي.
(قرطبة 351 هـ ــ قرطبة 403 هـ) : تاريخ علماء الأندلس.
طبعة القاهرة 1966

23 ــ ابن القوطية، أبو بكر بن محمد (توفي بقرطبة سنة 367 هـ)
تاريخ افتتاح الأندلس
تحقيق وتعليق عبد الله أنيس الطباع . طبعة بيروت 1958

24 ــ ابن قتيبة الدينوري (توفي سنة 276 هـ)
الامامة والسياسة . الجزء الثاني
تحقيق الدكتور طه الزين (دون تاريخ ومكان الطبع) : نشر مؤسسة الحلبي.

25 ــ الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (توفي بسبتة حوالي 710 هـ)
صفة جزيرة الأندلس . منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار.
نشر وتصحيح وتعليق بروفنسال . طبعة القاهرة 1977.

26 ــ الخشني، محمد بن حارث (توفي سنة 361 هـ)
قضاة قرطبة وعلماء افريقية
نشر السيد عزت العطار الحسيني . طبعة ذو الحجة 1372.

27 ــ العذري، أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس بن الدلائي (المرية 4 ذي القعدة 393 هـ ــ آخر شعبان 478 هـ) : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك.
تحقيق . عبد العزيز الأهواني . طبعة مدريد 1965

28 ــ عياض (القاضي عياض بن موسى بن عياض) (سبتة 476 ــ سبتة 544 هـ)
ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك . الجزء الثاني.
تحقيق أحمد بكير محمود . طبعة بيروت (دون تاريخ).

29 ـــ الغساني، محمد بن عبد الوهاب (عاش في القرن الحادي عشر الهجري) :
رحلة الوزير في افتكاك الأسير.
نشر الأستاذ الفريد البستاني . طبعة طنجة 1940

30 ـــ القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (توفي سنة 821 هـ).
صبح الأعشى في صناعة الانشا . الجزء الخامس.
نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف . طبعة القاهرة (دون تاريخ)

31 ـــ مجهول : (عاش في القرن الرابع الهجري) :
أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب
الواقعة بينهم . نشرهALCANTARA، LAFUNTE. طبعة مدريد 1867

32 ـــ مجهول : (عاش في القرن السابع الهجري) :
كتاب مفاخر البربر
نشر وتصحيح . ل. برو نسال . طبعة الرباط 1934.

33 ـــ المقري، أحمد بن محمد التلمساني (تلمسان 986 هـ ـــ مصر 1040 هـ)
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب
الأجزاء 1 و 3 . تحقيق إحسان عباس . طبعة بيروت 1968.

34 ـــ ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله الرومي (توفي بحلب عام 626 هـ).
معجم البلدان . الجزء الخامس
نشر دار الكتاب العربي . بيروت (دون تاريخ).

ثالثا : المراجع والدراسات الحديثة بالعربية :

35 ــ باليثيا، آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسي.
طبعة بيروت 1978 . دار النهضة العربية

36 ــ حجي، عبد الرحمن (دكتور) : التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة.
طبعة 1976 دار القلم دمشق، بيروت، دار القلم الكويت . الرياض

37 ــ سالم السيد عبد العزيز (دكتور) : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس. الجزء الأول
طبعة بيروت 1969 (الأولى). دار النهضة العربية.

38 ــ سالم السيد عبد العزيز (دكتور) : تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس من الفتح العربي حتى سقوط غرناطة
طبعة دار المعارف بمصر 1962.

39 ــ عنان محمد عبد الله (دكتور) : دولة الاسلام في الأندلس . طبعة القاهرة 1960 (الثالثة)

40 ــ مؤنس، حسين (دكتور) : فجر الأندلس . طبعة القاهرة 1959.

رابعا : مراجع أجنبية :

41 - BARBERO (Abilio) y MERCEL (vigil) : La formacion delFeudalismo en la peninsula Iberica . Ed Barcelona.

42 - CHALMETA (Pedra) : Concesiones territoriales en Al Andalus in Cuadernos de Historia, 1975, VI pp. 1 - 90.

43 - FRANSISCO DE CADERNAS : Ensayo sobre la historia de la propriedad

territorial en Espagna. Tom I . Ed Madrid 1873.

44 - Provençal (Levi - E), Histoire de l'Espagne Musulmane. Tom III.

Ed. Paris (maisonneuve) leiden j Brill 1950.

45 - Provençal (Levi - E) : L'Espagne Musulmane au xe siecle : institution et vie sociale. Ed. Paris 1932.

46 - Provençal (Levi - E) : La description de l'Espagne d'Ahmed Al - Razi

in Al Andalus. V. XV. III. (1ere partie) 1953.

47 - SIMONET (Fransisco) : Historia de los Hozarabes.

Ed. Madrid 1897 - 1903.

48 - VIARDOT (louis) : Histoire des Arabes et des Maures d'Espagne.

TOM I Ed. Paris 1851

حركة عمر بن حفصون في الشّعر الأندلسي

علي لغزيوي

يتناول هذا الموضوع واحدة من ابرز قضايا الصراع السياسي والاجتماعي في الأدب الأندلسي، تلك هي حركة الثائر عمر بن حفصون زعيم المولدين في الأندلس، وهي حركة ذات صبغة اجتماعية وسياسية في الوقت ذاته. هددت الوجود الاسلامي سنوات متواليات، وأقلقت راحة أمراء الأمويين بقرطبة، كما اتخذت موقفا عنصريا من العنصر العربي، ولاسيما في البيرة أو غرناطة، ثم اشبيلية. فغدا الصراع سجالا بين الطرفين في مختلف الواجهات، وبذلك كانت هذه الحركة تستفز الحكام الرسميين والفئات الشعبية على السواء.

وانطلاقا من طبيعة هذا الموضوع، فقد كان من الأفضل القاء نظرة تاريخية على حركة عمر بن حفصون التمردية، وإبراز خطورتها بين الحركات التمردية العديدة التي عاصرتها، ثم تلمس صورة هذه الحركة وزعيمها في الشعر

الأندلسي، ولاسيما عند شعراء البلاط الأموي الذين كانوا يضطلعون بوصف معارك الجيش الأندلسي والتغني بانتصاراته، والاشادة بقوته وبطولة قادته، علما بأن هذه الحركة قد أثارت عددا من الرسائل الديوانية التي أصدرها الأمراء الأمويون الى الرعية والولاة في شأن المراحل والأطوار التي مرت بها تلك الثورة، كما أثارت شعرا لدى الفئات الشعبية أيضا، وقد نعود الى ذلك في مناسبة قادمة بإذن الله (1)، ونكتفي الآن بتناول الموضوع في قسميه الأول الذي حددناه، في التعريف بابن حفصون وحركته الثورية، ثم دراسة جملة من النصوص الشعرية التي واكبت جهود الأمويين في سبيل إخمادها وإطفاء نارها، وهي جهود جبارة متوالية، منذ السنوات الأخيرة من حكم الأمير محمد (238 ــ 273 هـ) ثم في عهد الأمير عبد الله (275 ــ 300 هـ) الذي عمت الفتن والاضطرابات الأندلس خلاله، ثم خلال السنوات الأولى من حكم عبد الرحمن الناصر (300 ــ 350 هـ) ولاشك أن تعدد الفتن والثورات التي زامنت ثورة ابن حفصون قد ساهمت في إضعاف قوة الدولة الأموية وتوزيعها، وإنهاك جيشها، واستنزاف مواردها، ولولا ذلك، لما استمرت ما يقرب من نصف قرن.

فماهي أبرز الأسباب التي ساعدت على تعدد الثورات حينذاك ؟ ثم كيف ظهر ابن حفصون وتقوى إلى أن أصبح يهدد قرطبة قاعدة الأمويين ؟ وما طبيعة حركته ؟ وما أهدافها. وما وسائلها ؟ وأخيرا كيف انتهت ؟

الثورات وحركات التمرد وأسباب قيامها :

عانت الأندلس من وطأة كثير من القلاقل والاضطرابات في مختلف العهود والمراحل، لسبب من الأسباب المختلفة، كالعصبية القبلية، أو الدينية. أو

---

(1) وقد تناولنا ذلك كله بالدراسة في رسالتنا الجامعية : أدب السياسة والحرب في الأندلس. (تحت الطبع).

العرقية أو الجنسية، أو لأهداف سياسية، وإذا كان بعضها لا يعدو أن يكون محاولات عشوائية، فإن بعضها الآخر كان أخطر، ولاسيما تلك التي يكون دافعها التمرد، وغايتها خلع طاعة الحكام الشرعيين، بل كان بعضها يهدف إلى محاولة قلب الاوضاع، والقضاء على الحكم الاسلامي ووجوده، وتهديد الكيان السياسي للدولة بشكل حاد، غير أن ردود الفعل كانت تفلح في الغالب في كبح جماح هذه المحاولات أو معظمها، ولكن الدولة تكبدت الكثير من الضحايا والخسائر، حين يتطلب الأمر لقاءات دموية كوسيلة ناجحة في هذا المجال، مما جعل الحكم في وضع يفرض الأهبة والاستعداد باستمرار لدرء أي خطر مفاجيء، والحيلولة دون تمادي أي ثورة تمردية، فأصبح الجهاد فرضا على الأندلسيين في الداخل والخارج على السواء.

والحقيقة أن الأندلس عرفت ثورات لم يعرف بلد مثلها، على الأقل من حيث العدد، فقد كان الثوار في دولة بني أمية متعددين، شقيت بهم الملوك، وتنغصت بهم الخلفاء على حد تعبير ابن الخطيب (2)، أما الأسباب المحركة لهذه الثورات فكثيرة ومتنوعة، يرجعها ابن الخطيب إلى ثلاثة أسباب رئيسية، يجملها كما يلي :

الأول : منعة البلاد وحصانة المعاقل، وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين.

الثاني : علو الهمم وشموخ الأنوف، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة، إذ كان من تحصل بالاندلس من العرب والبرابرة أشرافا يأنف بعضهم من الاذعان لبعض.

(2) أعمال الاعلام : ص 35، وانظر : دولة الاسلام في الأندلس : 318 وما بعدها

الثالث : الاستناد عند الضيقة والاضطرار الى الجبل الأشم والمعقل الاعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض (3).

ثورة ابن حفصون : طبيعتها وأسباب ظهورها :

ولعل أخطر هذه الثورات التي عرفتها الأندلس، ما كان يهدف إلى إزالة سلطان الحكم الاموي، والقضاء على سلطان العرب، وإحلال سلطان المولدين محله، ولو على المدى البعيد، بدءا بتمزيق وحدة أرضهم وتقسيمها، واستنزاف قواتهم، ومن أخطرها الثورة التي قادها عمر بن حفصون (4)، وتعتبر أطول حركة تمردية متواصلة من شخص واحد عرفتها الأندلس، على امتداد حوالي نصف قرن، منذ عهد الأمير محمد ــ أواخره ــ (238 ــ 273 هـ) إلى أوائل عهد عبد الرحمن الناصر (300 ــ 350 هـ)، ويرتبط قيام حركة ابن حفصون في الواقع، بالأوضاع العامة في البلاد، ففي السنوات الأخيرة من حكم الأمير محمد.

ظهرت حركات تمردية عديدة، واستفحل أمرها على عهد الأمير عبد الله، وكان بعضها بمثابة حركة للعصابات في بدء أمرها، وخير نموذج لذلك ظهور ابن حفصون بين زعماء العصابات سنة 267 هـ، ثم أصبح زعيم ثورة هائلة

---

(3) أعمال الاعلام ص : 136.

(4) هو من المولدين، وأصله من مسالمة الذمة، ونسبه : عمر بن حفصون ابن عمر بن جعفر بن شتيل بن ذبيان بن فرغلوس بن اذفونش، وكان الذي أسلم منهم جعفر بن شتيم، ومع كون ابن حفصون ثائرا متمردا، فقد وصفه ابن عذاري بالتحبب لأصحابه، وبالتواضع، ومع شره وفسقه، كان شديد الغيرة، حافظا للحرمة، انظر : البيان المغرب : 2 / 114 ــ 115، و ص : 106. وقد أبرز ابن حيان كثيرا من جوانب حركته في القسم الثالث من المقتبس (انطونيا) في صفحات متفرقة.

تعتبر من أخطر الثورات التي عرفتها الأندلس، سواء في طول أمدها، أم في اتساع رقعتها (5)، أم في ما نتج عنها من تهييء الجو لانتشار ثورات أخرى (6).

أما الظروف التي ساعدته على الظهور، فمن جملتها أنه ''اتفق له زمان هرج وقلوب قاسية فاسدة، ونفوس خبيثة متطلعة إلى الشر، مشرئبة الى الفتنة، فلما ثار وجد من الناس انقيادا وقبولا للمشاكلة والموافقة، فتألبت له الدنيا، ودخل الى الناس من جهة الالفة'' (7).

وإلى جانب ما سبق، هيأت ظروف سياسية واقتصادية ساعدته على تحقيق بعض النجاح في حركته، أهمها — فضلا من اتخاذه قاعدة منيعة تمثلت في حصن بوبشتر (8)، ومهارته في جمع الناس حوله — ذلك التبدل السريع في الأمراء خلال مدة تمرده، وتمزق سلطان الامارة وسوء الأحوال الاقتصادية على عهد الأمير عبد الله بصفة خاصة (9).

---

(5) استطاع ان يستولي على كثير من الحصون المنيعة بدءا بحصن بوبشتر الذي اتخذه مقره الرئيسي، ثم (بلاي)، ووصل نفوذه الى (قبره) وأحواز كل من (البيرة) و (جيان)، وأطاعه أكثر بلاد الموسطة بين (رية) و (الخضراء) و (البيرة)، وهدد أحيانا احواز قرطبة. البيان المغرب : 2 / 115.

(6) ومنها ثورات الثغور، كتمرد بني المهاجر في سرقسطة قاعدة الثغر الاعلى، وبني ذي النون في شنت ياقب، وغيرهما، واستغلها المولدون وتعاطفوا مع زعمائها، كما استغل نصارى الشمال هذه الأوضاع للقيام بغارات متواليات على الاراضي الاسلامية.

(7) البيان المغرب : 2 / 114.

(8) وصفه القدماء بأنه كان حصنا تزل عنه الأبصار فكيف بالأقدام، وكان من أمنع قلاع الاندلس، وقد استنزله الوزير هاشم بن عبد العزيز من جبل بوبشتر سنة 270 هـ. وقدم به قرطبة فأكرمه الامير محمد، ولكنه فر في السنة الموالية، ويبدو في هذه المعاملة، استهانة الامويين بشأنه في أول الامر، وتصورهم أن حركته عادية.

(9) كثرت الثورات، وساعدت الظروف الاقتصادية السيئة على تفاقم الأوضاع، إذ ضعفت الموارد المالية للدولة، فخفضت النفقات، وانعكست على الجيش، فانتقصت أجوره، مما أدى الى انفصال الكثير من الجند. أخبار مجموعة ص : 151.

ومن جملة ما كان يعتمد عليه في تأليب الناس وإثارة نقمتهم على الامويين، أنه كان يخاطبهم بمثل قوله، معتمدا على أسلوب الاثارة والتحريض : ''طال ما عنف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحملكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب واستعبدتكم ! وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم'' (10).

وفي هذا القول، تظهر حقيقة حركة ابن حفصون القائمة على الحقد الدفين على العرب، وهو ما يطبعها بطابع شعوبي يتجلى في ضربه على وتر العصبية العرقية، كما يظهر في هذا القول ايضا أن النقمة كانت عامة في نفوس المولدين على السلطة الشرعية، وعلى العرب كافة.

وقد أثبت ابن حفصون قوته في كثير من المعارك التي دارت بين الطرفين، لعل أخطرها هي معركة (بلاي) (11) في عهد الامير عبد الله سنة 278 هـ بعد ان اجتمعت له الجيوش، وتعاظمت قوته، بينما تدهورت الحالة العامة في البلاد، مما قوى طمعه، فبدأ بوضع الترتيبات ليتجاوز مرتبة صاحب دعوة المولدين ويصبح صاحب الاندلس كلها، ورفض أي اتفاق مع الأمير عبد الله. ورغبة منه في جعل سلطته مقبولة من الاندلسيين — من غير أتباعه المولدين — حاول أن يكسوها بثوب من الشرعية بالحصول على موافقة العباسيين، وسعى

(10) البيان المغرب : 2 / 114.

(11) نسبة الى حصن منيع من حصون قبره جنوبي شرقي قرطبة، انظر عن موقعه واسمه : دولة الاسلام في الأندلس ص : 320 هامش 2. وعن المعركة المذكورة انظر : البيان المغرب : 2 / 132. وهو يذكر أن جيش الامير عبد الله بلغ زهاء أربعة عشر ألفا، بينما كان جيش ابن حفصون في حوالي الثلاثين ألفا، ولكن الدائرة دارت على الثوار.

في سبيل ذلك إلى مكاتبة ابن الاغلب بالعدوة الذي يعتبر من ناحية رسمية أمير إفريقة لبني العباس (12).

ولعل أخطر إجراء اتخذه ابن حفصون هو إظهاره النصرانية سنة 286 هـ، وكان قبل ذلك يسرها (13). غير أن ذلك ــ وان أدى الى اكتساب بعض الأنصار من المشركين أعداء الاسلام ــ كان سببا في انفضاض كثير من أتباعه من حوله ونبذهم إياه وتبرئهم منه، وانحاز بعضهم الى الأمير الاموي، ورأى جميع المسلمين حينذاك أن حربه جهاد، فتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواتي (14).

ونعتقد أن هزيمته في معركة بلاي، ثم إعلانه النصرانية، كان من أهم العوامل التي دفعت به الى التقهقر التدريجي، أو هي على الاقل عوامل حملت بذور النهاية، وهو رأي ذهب اليه عدد من الدارسين (15)، ومع ذلك فقد توالت ثورته واستمرت الى السنوات الاولى من حكم عبد الرحمان الثالث، بل انها لم تتوقف برغم وفاته سنة 305 هـ، إذ تابع أبناؤه رفع راية العصيان بعده، إلى أن قضى عليهم عبد الرحمن قبيل إعلانه الخلافة.

ثورات الثغور ودورها في تقوية حركة ابن حفصون :

تفاقمت ثورات الثغور طيلة القرن الثالث، بحيث نستطيع أن نطلق على هذه الفترة بحق : فترة فتن الثغور، ومن هذه الثورات أو الفتن : محاولات بني

---

(12) المقتبس (انطونيا) ص : 93 وما بعدها، وانظر دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها د. احمد بدر ص : 254.

(13) البيان المغرب : 2 / 139.

(14) نفسه.

(15) منهم د. احمد بدر في كتابه : دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها.

تجيب، وبني قسي وغيرهم بسرقسطة بالثغر الأعلى (16)، وفتن المولدين بطليطلة قاعدة الثغر الأوسط، وفي غيرها من مدن هذا الثغر (17)، ومما زاد حركاتهم خطورة تحالفهم مع نصارى الشمال، كما قام المولدون والمستعربون بحركات تمردية في ماردة بالثغر الأدنى، متحالفين مع نصارى الشمال وبعض البربر (18). ولعل أخطر فتن الثغر الأدنى ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقي (19) التي كلفت الكثير من الحملات للقضاء عليه وإخضاعه، فقد تمرد بقلعة الحنش (20) ثم ببطليوس، منذ أيام الامير محمد، واستقل بها، وأقره الامير عبد الله على ذلك.

---

(16) عن الثوار بسرقسطة انظر : نصوص العذري : 25، وتاريخ ابن خلدون : 4 / 134. وعن بني قسي (أو بني القسوي) وثورتهم انظر : المقتبس (انطونيا) : 87، و (د. مكي) ص : 331، وتعاليق المحقق : 30، 547، 549 ـــ جمهرة أنساب العرب ص : 502 ـــ 503 ـــ نصوص العذري : 31 وما بعدها ـــ البيان المغرب : ج : 2 / 101 ـــ الكامل في التاريخ : 5 / 269.

(17) أسفرت ثورات المولدين بطليطلة عن اصطدامات دموية كثيرة أخطرها : موقعة الحفرة سنة 191 هـ، انظر عنها : تاريخ افتتاح الأندلس : 68 / ـــ تاريخ ابن خلدون : 4 / 126 ـــ 127. الكامل : 5 / 124. وموقعة وادي سليط في عهد الأمير محمد الذي توالت ثوارتهم في عهده.

(18) منها الثورة التي بدأت سنة 213 هـ بزعامة محمود بن عبد الجبار البربري، واستمرت سنوات إذ أنها لم تنته إلا سنة 219 هـ، انظر : المغرب في حلى المغرب : 1 / 48.

(19) أنظر عنه وعن ثورته : المقتبس (د. مكي) : 343 وما بعدها. تاريخ ابن خلدون : 4 / 133 ـــ 134.

(20) تقع جنوبي ماردة الى الشرق. انظر مقتبس (د. مكي) تعليق رقم : 578. وكان الجليقي يعتصم أول الامر بقلعة الحنش ثم انتقل الى بطليوس عقب هدنة بينه وبين الأمير محمد سنة 261 هـ، غير أنه أدرك نية الأمير التي كانت تهدف الى تسهيل محاصرته هناك، فانتقل الى منطقة جبليه قريبة منها ليتحصن بها، انظر : البيان المغرب : 2 / 102.

وحالفه بعض الثوار الآخرين (21)، واستمر أولاده يتوارثون سيادة بطليوس بعد وفاته، إلى أن انتزعها منهم عبد الرحمان الناصر سنة 317 هـ وقضى على حركتهم.

وما يلاحظ عن هذه الثورات، أن عددا منها، من ثورات المولدين الحاقدين، وأن كثيرا منها آثر المناطق البعيدة عن قرطبة مسرحا لها، لتكون قريبة من النصارى وإمداداتهم، وقد استفاد ابن حفصون كثيرا من ذلك كله.

صورة حركة ابن حفصون التمردية في الشعر الأندلسي :

كانت حركة ابن حفصون التمردية من أخطر ما عرفته الاندلس في هذه الحقبة، كما أشرنا الى ذلك، وقد أثارت **كوامن النفوس** عند الشعراء **الأندلسيين** الذين واكبوا المعارك التي دارت بين الجيش الاسلامي والثوار في مختلف الجهات، وكان ابن عبد ربه (ت 328 هـ) من أكثر الشعراء الأندلسيين تعبيرا عن الأحداث التي عرفها الصراع بين أمراء قرطبة وابن حفصون، سواء من حيث الكم أم من حيث الكيف. ومن أبرز نماذجه في هذا المجال قصيدته الجيمية التي هنأ فيها الامير عبد الله (275 — 300 هـ) بانتصاره على ابن حفصون وفتح حصن (بلاي) سنة 278 هـ، في معركة انتصر فيها المسلمون برغم تفوق القوة العددية لجيش ابن حفصون، ومطلعها (22).

---

(21) مثل يحيى بن بكر الثائر بمدينة شنترية الغرب بولاية اكشبونة، وعبد الملك ابن ابي الجواد الثائر بمدينة باجة... انظر : البيان المغرب : 2 / 137.

(22) أورد ابن حيان بعضها في : المقتبس (أنطونيا) ص : 102، كما أورد ابن عذاري أبياتا منها في : البيان المغرب : 2 / 132 — 133. وانظر مجموع شعره ص : 21 — 22، وديوانه (د. الداية) ص : 39 — 42.

الحق أبلـــــج واضح المنهاج　　والبدر يشرق في الظلام الداجي

ويعتبر الشاعر هذه المعركة وما حققته من انتصار ساحق، إظهارا للحق وفاصلا بينه وبين الباطل، وبين النور والظلام، ويبارك مبدأ القوة الذي اعتمد عليه الامير لتأديب المخالفين وفتح حصونهم :

والسيف يعدل ميل كل مخالف　　عميت بصيرته عن المنهـــاج
وإذا المعاقـــل ارتجت أبـــوابها　　فالسيف يفتح قفل كل رتاج (23)

ويصف منظر الجيش الجرار تغطيه الاسلحة، والخيول التي تقشعر جلودها لمرآها، خوفا وهلعا، فيقول في صورة تقوم على التهويل اعتمادا على التشخيص وبعض الوسائل البلاغية :

جيش يلف كتائبا بكتـــائب　　ويضم أفواجـــا إلى أفـــواج
وتراه يأفـــر بالقنابـــل والقنـــا　　كالبحر عند تلاطم الأمواج (24)
من كل لاحقة الأياطل شدف　　رحب الصدور أمينة الأثباج (25)
وترى الحديد فتقشعر جلودهـــا　　خوف الطعان غداة كل نهاج (26)
دهم كأسدفة الظلام وبعضهـــا　　صنر المناظر كاصفرار العـــاج
من كل سامي الأخدعين كأنما　　نيطت شكائمه بجذع الســـاج

---

(23) رتاج : باب عظيم ــ أرتج ورتج : أغلق.

(24) القنابل : م. قنبلة : الطائفة من الناس ومن الخيل، والقنبل : الرجل الغليظ الشديد. وأفر البعير، نشط، وأفرت القدر : اشتد غليانها.

(25) الأياطل : م. أيطل : خاصرة ــ لاحقة : ضامرة، شدف، في الخيل والابل : إمالة الرأس من النشاط، وجواد أشدف : عظيم الشخص. ثبج : ما بين الكاهل الى الظهر.

(26) نهاج : نهج الدابة : أجهدها فتلاحقت أنفاسها وانبهرت.

ولكنه لا يصور لقاء الجيشين ومشاهد المعركة، بل يكتفي بنتائجها، متمثلة في هزيمة الثوار، مبرزا خراب الحصن وخلوه من أهله الذين يسميهم بالأعلاج، وتدل آثار الهزيمة على قوة المنتصرين الذين يشبههم بأسد العرين التي خلت بسرب نعاج :

لما جفلن إلى بلاي عشية أقوت معاهدها من الأعلاج
فكأنما جاست خلال ديارهم (27) أسد العرين خلت بسرب نعاج

ويخص بالذكر فرار زعيمهم ابن حفصون في ليلة ساد فيها الرعب، يشبهها بليلة الاسراء والمعراج بالنسبة للثائر الذي اختفى، على اختلاف بين حالتي وموقفي المشبه والمشبه به، ولكن أنى له الفرار وسيف الأمير يطلبه إن عاجلا أو آجلا، وفي ذلك مبالغة في وصف سرعة فراره :

ونجا ابن حفصون ومن يكن الردى والسيف طالبه فليس بناج
في ليلة أسرت به فكأنما خيلت لديه ليلة المعراج

أما من بقي في الحصن فقد سدت عليهم المنافذ وانغلقت أمامهم سبل النجاة، وأصابهم الهلع، فعاد عليهم كفرهم وتمردهم بالخسران، وبدوا أذلاء أمام الأمير خاضعين مقهورين :

وبقية في الحصن أرتج دونهم باب السلامة أيما إرتاج
سدت فجاج الخافقين عليهم فكأنما خلقا بغير فجاج (28)

---

(27) ينظر الى قوله تعالى : "بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار" الاسراء / 5.

(28) الخافقان : م. خافق (هنا) : الأفق، وهما : أفق المشرق، وأفق المغرب.

نكصت ضلالتهم على أعقـابها   وانصاع كفرهـم على الادراج
ركبوا على باب الأمير صوافنا   غنيت عـن الالجام والأسراج

ويحمل الشاعر ابن حفصون مسؤولية كل ذلك لتمرده وتماديه في النكث والعصيان، فجنى هو وأصحابه ثمار ما زرعه من شر، وشبه دوره في إذكاء الحروب بمن يلقح أنثى فتلد، ولكنه هذه المرة أنتجها شر نتاج، مشيرا إلى أن الدائرة دارت عليهم، فيقول، مستفيدا من صورة الحرب وما تحمله من شرور عند الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى (29) :

مازال يلقح كل حرب حامل   فالآن أنتجها بشر نتاج (30)

وقد أثارت هذه المعركة شاعرية الشاعر العكي الذي اهتم بوصف جيش الأمير عبد الله في مسيرته لمعركة بلاي، فقد شعر بالزهو وهو يراه يملأ السهل والجبل فيتصوره مرة بحرا طفا فوق اليابسة، ويتصوره مرة أخرى ليلا مد جنح الظلام ما بين المشرق والمُغرب، ومن ذلك قوله :

أجل لحظ طرف الناظر المتأمل   تر البحر يطفو فوق سهل وأجبل
تغص بجيش مد ما بين (مشرق (31) ومطلع شمس، جنح ليل موصل (32)

---

(29) ينم ذلك عن تأثر الشعراء الأندلسيين بالموروث الشعري القديم من جهة، وعن كثرة الحروب التي جمعت بين العرب والمولدين من جهة أخرى.

(30) ينظر في ذلك الى زهير في حديثه عن الحرب من معلقته إذ يقول : فتعرككم عرك الرحى بثفالها وتلقح كشافا ثم تحمل فتتئم

(31) كذا، وقد تكون : ما بين مغرب.

(32) المقتبس (أنطونيا) ص : 103 — 104.

وينظر الى أسلحته الكثيرة تلمع خلال النقع فيتصور المنظر ليلا، سماؤه النقع، وكواكبه الاسلحة اللامعة :

كأن سماء النقع تبدي كواكبا   بأكنافها من لمح رمح ومنصل (33)

ولاشك أنه كان يتمثل صورة بشار بن برد في وصفه لمشهد مماثل بقوله :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وانطلاقا مما يوحي به منظر الجيش الجرار وأسلحته اللامعة، من ثقة بالنصر في نفس الشاعر، ينذر الثائر ابن حفصون ويتوعده بقوله :

فقل لابن حفصون رويدك إنها   كتائب دقت قمطريرا بأكفل (34)

وبعد أن تغلب الجيش الاموي في المعركة السالفة الذكر، قصد مدينة (استجة) حيث دارت معركة أخرى بين الأمير عبد الله وابن حفصون، انتهت بانهزام المتمردين، وحين شعروا بوطأة الخناق الذي ضربه عليهم المسلمون، رفعوا أطفالهم على الايدي مستصرخين ضارعين راغبين في العفو، فعفا عنهم الامير (35). وفي ذلك قال ابن عبد ربه قصيدة مطلعها (36) :

هو الفتح منظوما على إثره الفتح   وما فيهما عهد ولا فيهما صلح

---

(33) نفسه ص : 104.

(34) نفسه. والقمطرير : من اقمطر : اجتمع وتقبض، و اليوم أو الشر : اشتد، والمقمطر : من اجتمعت عليه الأشياء وتراكمت.

(35) البيان المغرب : 2 / 123 ـ 124، وتاريخ ابن خلدون : 4 / 135.

(36) المقتبس (أنطونيا) ص : 97 ـ 99، وديوانه ص : 43 ـ 45.

وهو إن أوهمنا في المطلع بأن هذا الفتح لم يكن فيه عهد ولا صلح، فإنه بذلك يمهد لهذا النوع من العفو الذي قام على الصفح عن مقدرة، فيقول :

سوى أن صفحا كان من بعد قدرة وأحسن مقرون إلى قدرة صفح

ويعتبر هذا الانتصار الذي حققه المسلمون يوم الجمعة عيدا كان لهم فيه النجح والسلامة، بينما كان للمتمردين فيه ذبائح، ويعني قتلاهم، إذ لا عيد بدون أضحية كما يقول الشاعر :

لقد شفعت يوم العروبة عندها (37) بعيد لنا فيه السلامة والنجح
ذبائح راحت يوم عيد (لحومها)(38) وما ازدان عيد لا يكون به ذبح

ويصف الخيول المشاركة في المعركة وما يصيبها من آثار العرق والغبار والدماء فتتغير ألوانها بقوله :

ومقربة يشقر في النقع كمتها ويخضر طورا كلما بلها الرشح
تراهن في نضح الدماء كـأنما كساها عقيقا أحمرا ذلك النضح

وبعد أن وصف حركتها في حالة التقريب، وهو عدو دون الاسراع، تحدث عنها حين يثيرها منظر الدماء ويصيح بها الفرسان فتسرع وكأنها تطير، ولكن بلا ريش، وتسبح في البر حيث لا سباحة، وفي هذا الترتيب والتوالي في الحركات المذكورة وتدرجها ما يدل على واقعية الشاعر في الوصف ودقة ملاحظته برغم

---

(37) يوم العروبة : يوم الجمعة.

(38) التصويب من ديوانه، وفي المقتبس : (لحربها).

ما يطبع معانيه من مبالغات أحيانا، كما يقدم صفات مثالية لهذه الخيول التي تتكامل بطولتها مع بطولة الفرسان، ومن ذلك قوله :

تطير بلا ريش الى كل صيحة وتسبح في البر الذي ما به سبح
عليها من الأبطال كل ممارس يرى أن جد الحرب من بأسه مزح

وخلال ذلك يظهر إعجابه بهذه البطولة المزدوجة، مركزا على مدى ما يتمتع به الفرسان من شجاعة خالية، حتى إنهم يتمنون استمرار المعركة واتصال النهار، في الوقت الذي يتمنى فيه الأعداء مجيء الليل، رغبة في التستر والفرار خوفا من جيش المسلمين، وهو في مقابلته بين حالي الطرفين يستعمل ضمير الجمع للمتكلمين مما يعكس مشاركته لقومه في مشاعرهم :

يودون أن الصبح ليل عليهم ونحن نود الليل لوأنه صبح

وبعد ذلك ينتقل الى وصف هزيمة الاعداء بعد فرار زعيمهم ابن حفصون وقواده الأقربين، مصورا رعبهم، معتبرا ذلك مصيرا حتميا لكل كافر مثل هؤلاء الذين شفت الرياح غليلها من دمائهم، وتمنى قضيب البان الذي يضرب به المثل في اللين لو أنه رمح، وبذلك يصور الشاعر نقمة الانسان والطبيعة على المتمردين، ويربط بين هذه المعركة والمعركة السابقة بقوله يخاطب ابن حفصون ويذكره بمسؤوليته فيما ترتب عنها من نتائج، ومشيرا الى ما آل اليه أمر أصحابه :

تسربل ثوب الليل خامس خمسة فكلهم في كل جارحة جرح
أقادح نار كان طعم وقودها بعينيك فانظر ما أضاء لك القدح
فكم شارب منكم صحا بعد سكره وما كان لولا السيف من سكره يصحو
كأن (بلايا) والخنازير حولها مقطعة الاوصال أنيابها كلح (39)

(39) كلح : تكشر في عبوس.

ديار الذين كذبوا رسل ربهم   فلاقوا عذابا كان موعده الصبح (40)

فلو نطق السفح الذي قتلوا به   إذن لبكى من نتن قتلاهم السفح

دماء شفت منها الرياح (41) غليلها   فود قضيب البان لو انه رمح

وهكذا عبر هذا الشعر عن تصور الاندلسيين لهذه الحروب التي يخوضونها ضد المتمردين والثوار، وأهدافها، وهو تصور يصطبغ بالعاطفة الاسلامية، فإذا هي تجديد للاسلام ووسيلة للقضاء على الكفر والشرك والنفاق، ويظهر ذلك في بعض المعاني التي ينطلق منها الشعر المواكب للسياسة الاموية في صراعها ضد المتمردين، وهي ظاهرة نقف عليها في شعر الصراع الخارجي أيضا، وخير ما يتمثل ذلك نموذج للشاعر ابن عبد ربه نفسه، يكثر فيه من ذكر النفاق والكفر والشرك والمروق من الدين وما شابه ذلك من الصفات التي يضيفها على المولدين المتمردين والمتحالفين معهم من العجم وغيرهم من أعداء الاسلام، فحين تولى عبد الرحمن الثالث (300 — 350) كان ابن حفصون وغيره من الثوار لا يزالون يعيثون في الأرض فسادا، ويغيرون على المدن والحصون القريبة من قرطبة نفسها، فوجه اليهم حملات مختلفة لفتح معاقلهم وحصونهم، واستطاع أن يفتح في حملة قادها بنفسه زهاء سبعين حصنا من أمهات المعاقل الثائرة، (42) وكانت البطولة التي أظهرها (الخليفة) الشاب، وبروزه بنفسه من بواعث الحماس في نفوس جنده، وكانت غزوته المشهورة المعروفة بغزاة (المنتلون) (43) من أمهات

(40) سورة هود / 81 — 83.

(41) في ديوان ابن عبد ربه (جمع د. الداية) : الرماح : بدل الرياح، ولعلها أنسب من حيث المعنى، يؤكد ذلك ويرجحه ورود كلمة : رمح، في آخر البيت. فيكون من قبيل رد الأعجاز على الصدور.

(42) انظر تفصيل ذلك عند ابن خلدون : 4 / 139 وما بعدها، والبيان المغرب : 2 / 160 — 161، ودولة الاسلام في الاندلس : ص : 370 — 371.

(43) المنتلون أو (مونت ليون) حصن يقع قريبا من (مارتش)، ويقول المؤرخون إنه لم يكن مثل هذه الغزوة لملك من الملوك في الجاهلية والاسلام. العقد : 4 / 500.

المعارك التي قادها ضد المولدين المتنصرين وعلى رأسهم ابن حفصون، وافتتح خلال ذلك (جيان) التي كانت مسرحا لمعركة ضارية بين الطرفين. وقد تغنى ابن عبد ربه بهذا الفتح الذي اعتبره تجديدا للاسلام، أعاد الثقة لنفوس المسلمين بعد أن كانت الفتن والثورات قد عمت وهددت أمنهم واستقرارهم، وقد أضفى معالم الفرحة بهذا النصر على الطبيعة أيضا بقوله :

لقد أوضح الله للاسلام منهاجا والناس قد دخلوا في الدين أفواجا(44)
وقد تزينت الدنيا لساكنها كأنما ألبست وشيا وديباجا (45)

ويعتمد في وصف النصر الذي حققه المسلمون، وما بعثه من اطمئنان في نفوسهم، على الطريقة التقريرية التي تقوم على تتابع الافعال الماضية، فقد مات النفاق، وأعطي الكفر ذمته، بينما أصبح النصر حليف المسلمين :

مات النفاق وأعطى الكفر ذمته وذلت الخيل إلجاما واسراجا
وأصبح النصر معقودا بألوية تطوي المراحل تهجيرا وإدلاجا
أدخلت في قبة الاسلام مارقة أخرجتها من ديار الشرك إخراجا

وهكذا واكب الشعراء الاندلسيون، انطلاقا من موقف الأمويين الذين يتولون حماية المقدسات الاسلامية في الاندلس، واعتمادا على عاطفة إسلامية جياشة، مراحل حركة ابن حفصون منذ ظهورها الى إخمادها، وقد كانوا في ذلك لسان الامة وضميرها. وبذلك يظهر مدى انشغال الأندلسيين بالقضايا الكبرى في حياتهم، وتهمم شعرائهم بما يشغل أمتهم ويقلقهم، غير أن صورة هذه الحركة التمردية العنيفة، لا تكتمل الا بتتبع جزئياتها لدى شعراء الحزب

---

(44) سورة النصر / 2.

(45) العقد : 4 / 499 وانظر القصيدة في ديوانه ص : 35 — 37.

العربي الذي وقف في وجه حزب المولدين بالسيف واللسان، وكذلك في نصوص النثر الأندلسي؛ لأن من شأن تجميع مختلف النصوص، ودراستها دراسة موسعة، أن يجعلنا نقترب من هذه الصورة أكثر، من خلال منظور فني تتمثل فيه طرق الشعراء والكتاب الأندلسيين وأساليبهم وأدواتهم التي يتوسلون بها في التعبير عن تجاربهم الذاتية، وتجارب أمتهم في الوقت ذاته، في هذه الحقبة التاريخية المتميزة من تاريخ الأندلس، وقد نعود الى إكمال هذه الصورة مستقبلا إن شاء الله.

فاس **علي لغزيوي**

مصادر ومراجع البحث

ـ القرآن الكريم

ـ الاحاطة لابن الخطيب ـ تحقيق محمد عبد الله عنان ـ الشركة المصرية للطباعة والنشر ـ القاهرة

ـ أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم : مؤلف مجهول مدريد. 1867

ـ أدب السياسة والحرب في الأندلس منذ الفتح الاسلامي الى نهاية القرن الرابع الهجري.
علي لغزيوي. رسالة جامعية (تحت الطبع)

ـ أعمال الاعلام. أو تاريخ اسبانيا الاسلامية لابن الخطيب
تحقيق ليفي بروفنسال. الطبعة الثانية 1956 ـ دار المكشوف ـ بيروت.

ـ البيان المغرب لابن عذاري المراكشي
تحقيق : كولان ولفي بروفنسال. دار الثقافة ـ بيروت

ـ تاريخ ابن خلدون ـ الجزء الرابع ـ الطبعة الأولى 1391 هـ / 1971 م

ـــ جمهرة أنساب العرب لابن حزم ـــ الطبعة الثالثة 1971 ـــ دار المعارف/مصر

ـــ دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها : د. أحمد بدر
الطبعة الثانية 1972 ـــ مطابع ألف باء ـــ الأديب ـــ دمشق

ـــ دولة الاسلام في الأندلس. محمد عبد الله عنان
الطبعة الثالثة 1380 هـ / 1980 ـــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة

ـــ ديوان ابن عبد ربه جمع الدكتور محمد رضوان الداية
الطبعة الأولى 1979 ـــ مؤسسة الرسالة ـــ بيروت

ـــ العقد الفريد لابن عبد ربه
تحقيق أحمد أمين وجماعته ـــ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـــ القاهرة الطبعة الثانية 1962

ـــ الكامل في التاريخ لابن الأثير
دار الطباعة المنيرية ـــ 1357 هـ

ـــ لسان العرب لابن منظور

ـــ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد
تحقيق د. شوقي ضيف. الطبعة الثانية 1964
دار المعارف ـــ القاهرة

ـــ المقتبس لابن حيان القرطبي
القسم الثالث. تحقيق الأب ملشور. م. أنطونيا ـــ باريس 1937

ـ المقتبس لابن حيان القرطبي
قطعة بتحقيق د. محمود علي مكي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت : 1393 هـ / 1973 م

ـ نصوص عن الأندلس للعذري
تحقيق د. عبد العزيز الأهواني
مطبعة معهد الدراسات الاسلامية ـ مدريد 1965

ع.ل

إيقاعات النوبة الأندلسية
من خلال
المصادر المغربية والعربية والاستشراقية

عبد العزيز ابن عبد الجليل

ظاهرة الايقاع :

يعتبر الايقاع واحدا من أبرز عناصر اللغة الموسيقية. فهو الذي يضبط حركة الالحان، ويسكب فيها الحياة، وهو الذي يجسدها ويمنحها هيكلا معينا.

وقد اجمع الباحثون على أن الايقاع كان اسبق عناصر اللغة الموسيقية الى الوجود وانه كان في طليعة ما اهتدى الانسان البدائي الى استعماله كوسيلة من وسائل التعبير. ولعل مما يدل على أصالته أن اولى استجابات الطفل للموسيقى تكون ايقاعية وتبدو في تمايل رأسه مع الايقاعات الرتيبة المتشابهة.

أهمية الايقاع :

يلعب الايقاع دورا أساسيا في تحديد البنية الشكلية للحن الموسيقى. وقد اعتبره مؤرخو الموسيقى ومنظروها مقياسيا عدديا لتقدير أزمنة الالحان (1)،

---

1) ابن خلدون، المقدمة. الباب السادس. الفصل الثالث عشر ص. 4420. مطبعة المكتبة التجارية بمصر.

وربطوه بعلم الارتمطيقي (2). وبدونه تظل الموسيقى مجموعة غامضة لكلمات التقطت عفوا وكتبت على غير نسق معين، لا يجد لها القارىء أي معنى لان مؤلفها لم يحدد لها بدوره أي معنى (3).

الايقاع في الموسيقى الاندلسية :

يشكل الايقاع في الموسيقى الاندلسية عنصرا مستقلا بذاته، وتضطلع بابرازه آلتان خاصتان هما الطر والدربوكة. وهو لأهميته هذه اعتبر القائم به ''رئيس الموسيقى'' واعتبرت آلته ''لجامها واساسها'' (4).

وقد وقف الباحثون الاوروبيون امام الثروة الايقاعية التي تزخر بها الموسيقى الاندلسية المغربية وقفة انبهار واعجاب وراحوا يقارنون بينها وبين ما ألفوه في ايقاعاتهم الموسيقية التي لا تعدو ان تكون مجرد اثر للمصاحبة الآلية. ومن هؤلاء الباحث الفرنسي بيير فيلين الذي وقف في المؤتمر الأول للموسيقى المغربية المنعقد بفاس في ماي 1939 ليعلن دون حرج أن ''السماع الواعي للموسيقى الاوربية يكاد يوحي بأن الايقاع فيها لا يخضع بالمرة لاية قاعدة معينة، اذ غالبا ما يتولد عن المصاحبة الآلية عن طريق الضغط على بعض الازمنة، ولا يخرج عن ايقاعين اثنين هما الايقاع الثنائي والايقاع الثلاثي. اما الموسيقى المغربية فالايقاع فيها يشكل عنصرا أصيلا، ان لم نقل ظاهرة اصيلة، تتجلى في سائر الاصناف الموسيقية للشعوب الاسلامية، وتشكل عنصرا اساسيا في تحديد مفاهيمها الفنية والجمالية (5).

(2 فانسان داندي L'art de la musique Guy Bernard. édition Seghers

(3 فانسان داندي نفس المرجع ص 253

(4 التادلي : أغاني السيقا.

(5 . générale J n° 119. La revue Musicale. N° 195.21 année. 1940 Pages 36.42.

الايقاع كمصطلح :

ومن خلال تقصينا للتعريفات التي اطلقتها المصادر الشرقية القديمة على الايقاع، بدء باسحاق الموصلي المتوفى عام 285 هـ وانتهاء بعبد المومن الارموي المتوفى عام 693 هـ نستطيع ان ننسج هذا التعريف الجامع : الايقاع ''حركات متساوية الادوار'' (6)، تضبطها ''نسب زمانية (7)'' محدودة المقادير'' (8) ''على اصوات مترادفة في أزمنة تتوالى متساوية كل واحدة منها تسمى دورا'' (9)، وهو ''جماعة نقرات تتخللها أزمنة محدودة المقادير على نسب وإوضاع مخصوصة بادوار متساوية'' (10).

وفي وسعنا ان نستخلص من هذا التعريف المركب أن الايقاع في المصادر الشرقية كان واضحا ومحدودا، وانه كان من الدقة والسعة بحيث يشمل سائر المصطلحات الاخرى مما يجري تداوله عند الحديث عن الحركة في الموسيقى وضوابطها ومقاييسها.

وبالرجوع الى المصادر المغربية نجد ان لفظ ''الايقاع'' يحمل مفهوما أقل دقة ولا يبلغ من الشمولية مبلغه في المصادر الشرقية.

وقد أقر التداول والاستعمال — الى جانب ''الايقاع'' — مجموعة من المصطلحات تقاربت مفاهيمها وبلغت من التداخل في بعض الاحيان ما جعل التمييز بينها شاقا وعسيرا، ومن هذه المصطلحات الوزن والزمان، والدور والنقرة والموازين.

---

6) ابن سيدة. المخصص. ج 13. باب الملاهي والغناء.

7) الكندي. رسالة في اجزاء خبرية في الموسيقى. تحقيق زكريا يوسف.

8) الفارابي. الموسيقى الكبير. شرح = غطاس عبد الملك خشبة ص 436.

9) الحسن بن أحمد الكاتب. كمال أدب الغناء. تحقيق زكريا يوسف. مجلة المورد العراقية مجلد 2 العدد 2. 1973 ص 136.

10) الارموي. الرسالة الشرفية. تحقيق هاشم الرجب ص 198.

وفيما يميل لفظ الايقاع احيانا الى ما يعني في آن واحد العزف على الالات الوترية والهوائية، وضرب الآلات النقرية، يبدو لفظ ''الموازين'' أوسع تلك المصطلحات شمولا وأقرب الى ان يحتل في الموسيقى الأندلسية بالمغرب نفس المقام الذي احتله مصطلح الايقاع في المشرق قديما.

موازين النوبة الأندلسية :

من هنا نؤثر لهذا البحث أن يكون محوره ''موازين النوبة الأندلسية''. ونريد في البداية أن نجنب القارىء الوقوع في الالتباس الذي قد توحي به كلمتا الموازين والميازين. ولذا فاننا ندعوه الى أن يتفق معنا منذ الآن على تحديد مفهوم كل منهما على النحو التالي :

ــ الميازين : مفردها ميزان. وهي أقسام النوبة الخمسة.

ــ الموازين : جمع ميزان أيضا. ونريد بها أصناف الايقاعات التي تضبط حركة الصنعات المتعاقبة في ميازين النوبة. وستكون عمدتنا طيلة الحديث عنها مجموعة من المصطلحات الخاصة كالايقاع والزمان والدور.

ولقد تصدى الباحثون في الموسيقى الأندلسية الى تحليل موازين ''الالة'' انطلاقا من معطيات متباينة، متأثرين بنوعية المفاهيم ومستوى المعارف الفنية السائدة في عصورهم، أو بأنواع الثقافات الغالبة عليهم، أو بما هو متداول على مستوى الممارسين هواة ومحترفين.

وهكذا تبنى البعض منهم التصنيف العربي القديم لاجناس الايقاع متأثرين بابحاث فلاسفة العرب كالكندي والفارابي وابن سينا أو بعض أعلام الموسيقى العربية كالأرموي البغدادي والحسين بن زيلة، بينما تأثر البعض الآخر بأبحاث اللغويين العروضيين الذين كانوا يربطون ربطا وظيفيا بين الايقاع الشعري

والايقاع الموسيقي ويعتبرون التفعيلة بمثابة الوحدة الاساسية في الميزان الموسيقي مثلما هي ذاتها تكون الوحدة الاساسية في عروض البيت الشعري.

ولقد ترك هذان الاتجاهان بصماتهما بارزة فيما ألفه المغاربة والأندلسيون وبخاصة منذ القرن العاشر للهجرة. وسيتاح لنا من خلال استعراض نتاج ثلاثة من اعلام المغرب في هذا المجال ان نقف على وجوه تاثرهم بمقولات المشارقة القدماء كما سيتاح لنا أن نكشف عن مدى مسايرتهم لواقع النظرية الموسيقية الأندلسية وتجاوبهم مع الممارسة العملية وهؤلاء هم : العلامة عبد الرحمن الفاسي المتوفى عام 1069 هـ والفقيه محمد بن الحسين الحايك التطواني (كان حيا عام 1214) والعلامة الرباطي ابراهيم التادلي المتوفى عام 1311

ونبدأ بعبد الرحمن الفاسي فنجد انه خص العلوم الموسيقية باهتمام بليغ، حيث أفرد لها منظومة قوامها 105 أبيات اسماها ''المجموع في علم الموسيقى والطبوع''، كما أفرد لها ضمن كتابه ''الاقنوم في مبادىء العلوم'' منظومة أخرى تربو على مائة بيت (11).

وهو في مطلع حديثه عن ''علم الموسيقى'' (12) يحاول اعطاء تعريف لهذا العلم فيقول :

علم به يعرف احوال النغم ومالها من بعد أو كيف وكم
ومـا بـه يقـع نقرتـان اقلـه يـاتي مـن الزمـان

ومن خلال هذا التعريف المقتضب يذكر المؤلف المباحث التي يهتم بها علم الموسيقى، وهي عنده : احوال النغم، وابعادها، وايقاعاتها، وأوزانها الزمانية.

---

11) مخطوط بالخزانة العامة. رقم 515 ص 146 ــ 149 وآخر بالخزانة الصبيحية بسلا رقم 4223
12) الاقنوم ص 146

ثم ننتقل الى التادلي لنجد انه يرى ان علم الموسيقى يبحث في أمرين، أولهما علم التأليف، وهو ما تعلق بأحوال النغم من طول وقصر وعلو وانخفاض ونحو ذلك. وثانيهما علم الايقاع وهو ما تعلق بالازمنة (13) وضبط الميزان الذي هو ''روح الموسيقى'' (14).

وأما الحايك فقد امسك بالمرة عن اعطاء أي تعريف للايقاع، وان يكن قد عرف بالموازين وشرح ايقاعاتها.

وفيما يمسك الثلاثة عن تعريف الايقاع، تحفل مدوناتهم بمجموعة غير قليلة من المصطلحات المشرقية المحتد والتي تتصل بموضوع هذا العلم، كالموصل، والمفصل، والهزج، والثقيل وغيرها. وهذه ظاهرة تأتي لتؤكد قوة تأثر المغاربة بمقولات المشارقة التي لعلهم أن يكونوا قد اطلعوا عليها.

ويبدو العلامة عبد الرحمن الفاسي أكثر هؤلاء ايغالا في تبني المصطلحات الشرقية ومن ثم فان منظومته في ''علم الموسيقى'' لا تسعفنا في معرفة موازين الموسيقى الأندلسية، خاصة وأنها تخلو بالمرة من ذكر المصطلحات الايقاعية المتداولة بين أرباب هذه الموسيقى كالتصدرة والقنطرة وغيرهما. ومع ذلك فانها تفيد ـــ ولاريب ـــ في التعرف على الايقاع باعتباره عنصرا من عناصر اللغة الموسيقية، ومن ثم فهي تحتفظ بجدواها العلمية، ولا تتدنى عن مستوى القاعدة النظرية المجردة.

---

13) كتاب السيقا في مغاني الموسيقى. الخزانة العامة رقم 109 د. الباب الاول في حقيقة علم السماع.

14) جاء في كتاب ''فتح الانوار في بيان ما يعين على مدح النبي المختار'' لمحمد بن العربي الدلائي الرباطي المتوفى عام 1285 : أول الايقاع هو ثالث عناصر الغناء بعد الكلمات واللحن وأنه هو ''الوزن المفرغ ذلك الترنم في قالبه'' مخطوط الخزانة العامة رقم : د 3285

وحتى يتجلى أمام القارىء مدى تأثر الفاسي بمقولات المشارقة فسنعمد فيما يلي الى تحليل الفقرة الاولى من منظومته حول الايقاعات ومقارنتها بما جاء في الرسالة الشرفية لصفي الدين عبد المومن الارموي البغدادي (15).

يقول الشيخ عبد الرحمان الفاسي عن الايقاع :

منه موصل، فذا قسمان	المتساوي منه في الازمان
والمتفاضل. والاول الهزج	ما ليس يمكن به حيث خرج
من بين كل نقرتين نقره	وذا سريع الهزج، حصل أمره
ومكن النقرة سم بخفيف	الهزج، وهو في ندائه لطيف
فان يك الامكان باثنين يجز	يسمى خفيفا لثقيل الهزج
ولكن الثلاث سم بالثقيل	وذا والاول لديهم قليل

مؤدى هذا الكلام أن الايقاع الموصل ينقسم الى فرعين :

الاول : ما تتساوى فيه أزمان النقرات. ويعرف بالهزج. وهو أربعة أنواع :

الاول : سريع الهزج، وهو ما ليس يمكن به احداث نقرة بين كل نقرتين.

الثاني : خفيف الهزج، وهو ما يمكن احداث نقرة بين كل نقرتين منه.

الثالث : خفيف ثقيل الهزج، وهو ما يمكن احداث نقرتين بين كل نقرتين منه.

الرابع : ثقيل الهزج، وهو ما يمكن احداث ثلاث نقرات بين كل نقرتين منه.

ولعمري فان هذا الكلام ليس الا صورة منظومة وموجزة للتحليل المرسل

15) شرح وتحقيق الحاج هاشم الرجب العراق 1980

والمفصل الذي أورده الأرموي في كتابه ''الرسالة الشرفية'' حيث قال (16) :
''فصل : كل جماعة نقرات إن كان بينها أزمنة متساوية فانه يسميه الايقاع الموصل، وان كانت متفاضلة فانه يسميه الايقاع المفصل (17).
والموصل : ان كان بين نقرتين منها زمان لا يمكن انقسامه، أي لا يمكن أن تقع بين كل نقرتين منها نقرة، بل كانت من أقصر الازمنة التي لها قدر محسوس، فان الشيخ أبا نصر يسميه سريع الهزج... وهذا الزمان أسميه زمان (آ). (مثاله : تن تن تن تن تن).

وان كانت الأزمنة المتساوية ضعف زمان (آ)، فانه يسميه خفيف الهزج... وهذا الزمان أسميه زمان (ب). (مثاله : تن تن تن تن).

وإن كانت الأزمنة مما يمكن أن تتخللها نقرتان فانه خفيف ثقيل الهزج... وهذا الزمان أسميه زمان (ح) مثاله : (تنن تنن تنن تنن).

وإن كان بين كل نقرتين نقرتين منها مساغ لثلاث نقرات فإنه يسميه ثقيل الهزج... وهذا الزمان أسميه زمان (د) مثاله : (تننن تننن تننن).

وتتميز أعمال الحايك والتادلي عن أعمال الفاسي بكونها تجنح الى ركوب مسلك آخر، فهما في تحليلهما لموازين ''الآلة'' وإيقاعاتها يمتحان من المعجم العروضي، ويعتمدان في تشخيص نقراتها على التفعيلة بأجزائها الثلاثة، ومن ثم فقد حفلت مدوناتهما — بدورها — بمصطلحات هذا الفن. وهذا تقليد نابع من قناعة متحكمة بين ارباب فن العروض عبر عنها السيوطي في المزهر، ونقلها التادلي في كتابه ''السيقا'' وهي ان ''اهل العروض مجمعون على انه لا فرق

16) نفسه ص : 192 — 193
17) ضمير الغائب يعود على أبي نصر الفارابي في كتابه ''الموسيقي الكبير''

بين صناعة العروض وصناعة الايقاع، (أي ضرب آلات الاوتار ونحوها كالعود والرباب والطار) الا ان صناعة الايقاع تقسم الزمان بالنغم، وصناعة العروض تقسمه بالحروف المسموعة'' (18).

وليس هذا التقليد في الواقع بدعة اتاها العروضيون، ولكنه ''حقيقة علمية تؤكدها العلاقات العضوية بين علم العروض وأوزانه وأجزائه وعلمي النغم والايقاع وأوزانهما وأجزائهما. وتتضح هذه الحقيقة فيما كتبه الكندي وما ذكره اخوان الصفا في فصل ''اصول الألحان وقوانينها''، حيث يقارنون أو يوازنون موازنة تفصيلية بين أصول الالحان وأصول العروض باسلوب يوضح العلاقة الوثيقة بين الأثنين (19).

ومما يدل على متانة العلاقة بين العروض والايقاع الموسيقى وجود مصطلحات مشتركة بينهما، ومن هذه المصطلحات الرمل والهزج، فهما في العروض اسمان اطلقهما الخليل على بحرين شعريين، بينما يعنيان في الموسيقى ايقاعين من أجناس الايقاعات العربية الثمانية. ومن تلك المصطلحات أيضا أجزاء التفعيلة الثلاث : السبب والوتد والفاصلة، وهي مصطلحات اعتمدها موسيقيو الاسلام منذ الكندى وحتى ابن زيلة والأرموي في أبحاثهم الموسيقية واتخذوها بمثابة الوحدات الزمانية الأساسية التي تقوم عليها البنية الايقاعية للحن الموسيقى، مثلما اتخذها أهل العروض بمثابة الوحدات الاساسية التي تقوم عليها تفعيلات البيت الشعري.

ويكرس هذا التقليد كل من الحايك والتادلي في كتابيهما عندما يعمدان الى شرح الموازين، فيقول الأول ـــ مثلا ـــ عن ميزان البسيط : ''البسيط مبني

18) أغاني السيقا الخاتمة. ص 91 ـــ 98. والعبارة بين هلالين من زيادة التادلي للشرح.

19) د. علي الزبيدي. الخليل الموسيقار. مجلة المورد. المجلد الرابع العدد الرابع 1975/1395. العراق ص : 25.

على ست نقرات كأزمنة الاسباب من السبب الخفيف عند العروضيين''. ويقول الثاني عن الميزان الثلاثي : ''هو كالوتد في العروض''وعن الرباعي : هو ''كميزان البسيط''.

وقد ظل هذا التقليد قائما بين المهتمين بدراسة نظريات الموسيقى الاندلسية حتى العقد السابع من هذا القرن، ولذلك نرى مولاي العربي الوزاني في تحليله لشروح الحايك ينحو نفس المنحى فيقول عن البسيط : ''هو عبارة عن نقرتين منفصلتين، وثلاث نقرات متصلات، ونقرة منفردة، وسكون. مثل قولك (فاعلن مستفعلن)''. (20).

ونريد قبل الشروع في شرح وتحليل موازين الموسيقى الاندلسية على ضوء الممارسة العملية أن نعرض لذكر المصطلحات التي ورد ذكرها في كناش الحايك وكتاب التادلي، بغية معرفة ما يتداول منها في عهدنا بين ارباب الموسيقى الاندلسية، ودفعا للالتباس الذي ما يزال قائما حول موازينها.

أجزاء التفعيلة : نعني بها العناصر الثلاثة المكونة للتفعيلات بأنواعها الثمانية، وهي السبب والوتد والفاصلة، وتشكل جزء من مصطلحات المعجم العروضي التي اعتمدها المغاربة في وصف وتحديد البنيات الايقاعية لموازين الموسيقى الاندلسية.

ويجب ان نسجل ان استعمال اجزاء التفعيلات لم يعد جاريا بين ممارسي هذا الفن، وان ايرادها في بعض الابحاث والكتب الحديثة ليس الا صدى خافتا لعادة يبدو انها كانت حتى عهد قريب شديدة التمكن :

---

20) كتاب المؤتمر الثاني للموسيقى العربية بفاس. 1969 ص 125.

ـ **السبب الخفيف** : هو في العروض متحرك يليه حرف ساكن مثل هل ـ هب. أما في الموسيقى فهو عند التادلي نقرة يليها سكون كأجزاء النبض. وصفه الكندي فقال : نقرة وامساك، وهو حرفان : متحرك وساكن ويلزمه من الشعر ''فع'' ورمز لحركته بعلامة [0] ولسكونه بعلامة [ـ] (21).

ـ **السبب الثقيل** : هو في العروض حرفان متحركان مثل لك ـ بك. أما في الموسيقى فهو نقرتان متتابعتان. وقد رمز له الكندي هكذا [00] (22).

ـ **الوتد** : يتألف من ثلاثة أحرف. وهو نوعان :

ـ **الوتد المجموع** : هو في العروض حرفان متحركان وحرف ساكن. اما في الموسيقى فهو نقرتان وامساك (23) مثل فقل ـ بلى ووزنه في الشعر ''فعل''. أسماه التادلي الميزان الثلاثي، ومثل له بضرب الهداويين أصحاب سيدي هدي، فان ندفهم في اكوال ثلاث مرات يشطحون ويطربون عليه (24) ورمزه عند الكندي [00 ـ] (25).

ـ **الوتد المفروق** : هو في العروض حرفان متحركان بينهما ساكن. وفي الموسيقى نقرة وسكون ثم نقرة مثل طاب ـ غاب. ورمزه عند الكندي [0 ـ 0] (26).

ـ **الفاصلة الصغرى** : هي في العروض ثلاثة أحرف متحركة وحرف

(21) مؤلفات الكندي الموسيقية : الرسالة الثانية، جمع وتحقيق زكريا يوسف ص 80.
(22) نفس المرجع.
(23) نفس المرجع.
(24) أغاني السيقا، فصل في حد الموسيقى.
(25) مؤلفات الكندي، الرسالة الثانية ص 30.
(26) نفس المرجع.

ساكن. وفي الموسيقى ثلاث نقرات فامساك. قال التادلي : هي سكون بعد ثلاث، وتقابل الميزان الرباعي كميزان البسيط أول نوبة الموسيقى. فان ميزانه أربع ندقات : ثلاث متواليات متراخية يسيرا منها (27). يسميها الكندي : الفاصلة ـــ مطلقا ـــ مثل عِتَبَهْ. ويرمز لها هكذا [000 ـــ] (28).

ـــ **الفاصلة الكبرى** : هي في العروض أربعة أحرف متحركة وساكن. وفي الموسيقى أربع نقرات وامساك. يسميها الكندي الغاية مثل حبسهم، ورمزها عنده [0000 ـــ] (29).

النقرات وأشكالها :

يراد بالنقرات ''الاصوات التي تقع في الازمنة'' (30). ويعتمد احداثها في الموسيقى الاندلسية على الضرب باليدين أو النقر على الطار والدربوكة. وتكون ''ساذجة خالية عن النغمة كصوت الرعد والبرق'' (30)، وبذلك تتميز عن النقرات التي ''تكون منغومة كنقرات أوتار العود وصوت الانسان'' (30). وتتخذ النقرات أشكالا متعددة ومختلفة من حيث الكم والكيف. وقد انقطع أغلب أسمائها عن التداول بين ممارسي الايقاع في الاجواق الاندلسية، وتم ذلك أحيانا لفائدة المصطلحات الشرقية التي تسربت الى الأوساط الموسيقية المغربية عامة منذ مطلع القرن العشرين.

---

27) أغاني السيقا. الباب السابع فصل في حد الموسيقى.
28) المرجع السابق ص 81.
29) نفس المرجع ص 82.
30) نفس المرجع الباب الاول.
×) ترمز هذه العلامة للمصطلح الذي انقطع استعماله بين الأجواق.

ـ **التوسيد أو التوساد** : هو الضرب باليد اليمنى على راحة اليسرى. مهمته ضبط الايقاع وحساب الازمنة.

ـ **الزنج او الصنج** × : **تحريك الطار باليد اليسرى ليظهر صوت صفحات الصفر الصغار في جوانبه (31).**

ـ **الدف**× : نقر حافة الطار. وتقابله "التك" في الايقاع الشرقي.

ـ **الندف**× : النقر في وسط الطار. وتقابله "الدمة" في الايقاع الشرقي.

ـ **الفاصلة**× : الزمان الخالي من النقر في الميزان. ويقابل السكون الذي في نهاية الدور. وهي تعرض عادة في سائر الموسعات خلال التوسيد بضربة اليد معقودة الاصابع.

مكناس **عبد العزيز ابن عبد الجليل**

---

(31) نفس المرجع السابق.

الصباغ المقنع حكيم مرو

قصة : خورخي لويس بورخيس
ترجمة: إبراهيم الخطيب

مهداة إلى أنخيليكا أوكامبو

ما لم أخطيء، فإن المصادر الأصلية للأخبار المتعلقة بالمقنع، نبي خراسان، تتلخص في أربعة : أ) المقاطع التي حافظ عليها البلاذري من «تاريخ الخلفاء»، ب) « مختصر العملاق » أو « كتاب التحقيق والتنقيح » لمؤرخ العباسيين الرسمي ابن أبي طير طرفور، ج) المخطوط العربي المعنون « محق الوردة »، حيث يتم دحض البدع المستنكرة في كتاب « الوردة المظلمة » أو « الوردة الخفية » — الذي يشكل الكتاب القانوني للنبي، د) بعض القطع النقدية التي لا رسم عليها، والتي أخرجها من أرماسها المهندس أندروسوف عند إحدى عمليات فك القطار عابر القزوين؛ لقد حفظت هذه القطع النقدية في ديوان النقود بطهران، وهي تتضمن أبياتا شعرية فارسية تلخص وتصحح فقرات معينة من كتاب « المحق ». إن الوردة الأصلية ضاعت، أما المخطوط الذي عثر عليه سنة 1899، ونشرته الـ

Morgenländisches Archiv، ليس دونما تسرع، فاعتبره هورن ثم السير بيرسي سايكس ملفقا.

أما شهرة النبي في الغرب، فيعود الفضل فيها الى قصيدة مدوية لمور، طافحة باشتياقات متآمر إيرلندي وتأوهاته.

الأرجوانة القرمزية

حوالي سنة 120 للهجرة و 736 من تاريخ الصليب، ولد بتركستان الرجل حكيم الذي سيطلق عليه، فيما بعد، رجال ذلك الزمان وذلك المكان لقب المحجب. لقد كان مسقط رأسه في مدينة مرو القديمة، التي تنظر بساتينها وحقول كرمها ومراعيها إلى الصحراء بحزن. إن منتصف النهار فيها أبيض وباهر، ما لم تعمل على تعتيمه سحب من الغبار تأخذ بخناق الناس وتترك فوق العناقيد المسودة، طبقة ضاربة إلى البياض.

نشأ حكيم في هذه المدينة المتعبة. وقد بلغنا أن أحد إخوة أبيه دربه على مهنة الصباغة : فن الزنادقة، والمزورين، والمنافقين الذي أوحى إليه الجرم الأولى من سيرته الضالة. يقول في صفحة مشهورة من كتاب « الحق » : « وجهي من ذهب، بيد أني نقعت الأرجوان وغطست في الليلة الثانية الصوف الذي لم يحلج، وأشبعت في الليلة الثالثة الصوف المعد، ولا يزال أباطرة الجزر يختصمون حول هذا القميص المدمى. هكذا أثمت في سنوات الشباب وبدلت الألوان الحقيقية للخلائق. لقد حدثني الملاك بأن الأكباش لم تكن في لون النمور، وحدثني الشيطان بأن القادر أراد أن تكون كذلك فاستغل مكري وقرمزيتي. وأعلم الآن أن الملاك والشيطان ضلا عن الحق وأن جميع الألوان يعتريها الملل ».

وفي سنة 146 للهجرة، اختفى حكيم من مسقط رأسه. وقد عثر على

جرار التغطيس ودلائه محطمة، كما عثر على سيف من شيراز ومرآة من برونز.

الثـــور

عند متم شهر شعبان، من سنة 158، كان هواء الصحراء بالغ الصفاء. وكان الرجال ينظرون إلى الغسق يستجلون هلال رمضان، الذي يعلن الشروع في الصيام. كانوا عبيدا، ومتسولين، وتجار خيول، ولصوص جمال، وجزارين يقتعدون الأرض بوقار وينتظرون العلامة من بوابة محط قوافل على طريق مرو. كانوا ينظرون إلى الغروب، وكان لون الغروب شبيها بلون الرمال.

من أعماق الصحراء المدوخة (التي تصيب شمسها بالحمى، كما يثير قمرها الذهول) رأوا ثلاث هيآت تتقدم، وقد بدت بالغة الطول. كانت الهيآت بشرية، وكانت الهيآة الوسطى تحمل رأس ثور. وعندما اقترب الثلاثة، رأى الرجال بأن هذا الشخص كان يرسل على وجهه قناعا، وأن الشخصين الآخرين كانا أعميين.

وكما يحدث في حكايات ألف ليلة وليلة، استقصى أحدهم علة هذه الأعجوبة، فصرح رجل القناع : « لقد عميا، لأنهما أبصرا وجهي ».

الفهد

يروي مسجل وقائع العباسيين أن رجل الصحراء (وكان صوته فريد العذوبة أو بدا كذلك بسبب اختلافه عن خشونة قناعه) قال للرجال بأنهم ينتظرون علامة شهر التوبة، أما هو فيبشر بعلامة أفضل : علامة حياة كلها توبة، وموت لا تشوبه شائبة. وأخبرهم أنه حكيم بن عثمان، وأنه، في سنة 146 للهجرة، دخل إلى منزله رجل، فبعد أن توضأ وصلى بتر رأسه بمدية وحمله إلى السماء. وكان رأسه أمام الله محمولا على كف الرجل اليمنى (الذي كان الملاك جبريل) فكلفه بمهمة النبوءة، وعلمه كلمات بالغة القدم بحيث يحرق ترديدها

الشفاه، وسكب فيه ضياء مجيدا لا تطيقه عيون الفانين. تلك هي علة القناع. وحين يؤمن كافة رجال الأرض بالقانون الجديد، سيرفع لهم حجاب الوجه، وسيغدو بإمكانهم عبادته دون خطر ــ مثلما تتعبده الملائكة. وبعدما أعلن حكيم مهمته، استنهض الرجال إلى الجهاد وإلى الشهادة اللائقة المترتبة عنه.

ورفض العبيد، والمتسولون، وتجار الخيول، ولصوص الجمال، والجزارون دعوته، فصرخ صوت « ساحر » وصرخ آخر « دجال ».

أحضر أحدهم فهدا ــ ربما كان نسخة من تلك السلالة الهيفاء الدموية التي يتعهدها القناصون الفرس. والمؤكد أن الفهد حطم قيده فتدافع الناس طلبا للنجاة خلا النبي المقنع ومساعديه. وحينما عادوا، كان قد أعمى الحيوان المفترس. فسجد الرجال لحكيم، أمام العينين المضيئتين المميتتين، واعترفوا بفضيلته الباهرة.

النبي المحجب

يروي المؤرخ الرسمي للعباسيين، دون حماسة كبيرة، انتصارات حكيم المحجب في خراسان. فلقد اعتنق هذا الاقليم ــ المتأثر بنكبة وصلب زعيمه الذائع الصيت ــ اعتنق بحماسة يائسة مذهب الوجه المضيء وأجزاء دمه وذهبه (منذ ذلك الوقت، استبعد حكيم رسمه العنيف بحجاب من حرير أبيض، رباعي العدد، مطرز بالأحجار. وحيث أن اللون الرسمي لبني العباس كان السواد، فقد اختار حكيم اللون الأبيض ــ النقيض ــ للحجاب الساتر، والرايات، والعمامات).

بدأت الحملة بداية حسنة. صحيح أن أعلام الخليفة، حسب كتاب «التحقيق»، كان النصر حليفها في كل مكان، لكن بما أن النتيجة الغالبة لهذه الانتصارات هي عزل قواد وهجر قلاع حصينة، فإن القارىء اللبيب يدرك بماذا يعتد. في نهاية شهر رجب من سنة 161، فتحت مدينة نيسابور الشهيرة أبوابها المعدنية

للمقنع، وفعلت أسطر باد نظير ذلك سنة 162. وكان السلوك العسكري لحكيم (كما هو شأن نبي آخر أعظم حظوة) يقتصر على التضرع بصوت صادح، لكن يرتفع إلى الله من فوق ظهر ناقة شهباء، في قلب المعارك المهتاج. وكانت السهام تصفر فيما حوله، دون أن تصيبه بأذى على الاطلاق. لقد كان يبدو وكأنه يبحث عن الخطر : فذات ليلة، طاف بعض المجذوبين المهانين بقصره، فأمرهم بالمثول بين يديه، وقبل أعطافهم، ووهبهم فضة وذهبا.

فوض أعباء الحكم إلى ستة أو سبعة من تابعيه، وشرع يديم النظر في التأمل والسلام : لقد كان حريم مؤلف من 114 امرأة ضريرة يحاول إخماد حاجات جسده الرباني.

المرايا القظيعة

ما لم تكن كلماتهم ناقضة للايمان السني، فإن الاسلام كان متسامحا إزاء ظهور خلان الله المقربين، مهما كانوا متهورين أو متوعدين. وما كان للنبي، بالاحرى، أن يحتقر أفضال هذه الأنفة، غير أن أنصاره، وانتصاراته، والغضب العلني للخليفة — الذي كان محمدا المهدي —، كل ذلك دفع به الى البدعة. لقد دمره هذا الشقاق، بيد أنه أتاح له، قبل ذلك، تحديد بنود دين شخصي، لا يخلو من تأثيرات بديهية مصدرها ما قبل التاريخ الغنوصي.

في مبدإ نشأة الكون، لدى حكيم، يوجد رب شبح. وقد عدم هذا الرب الاصل الجلال، كما عدم الاسم والوجه. إنه رب لا يتزحزح عن مكانه، بيد أن صورته ألقت بسبعة ظلال زينت بلطفها السماء الأولى وقامت عليها. وصدر عن هذا الاكليل الرباني الأول إكليل ثان، ذو ملائكة وأرواح عاملة وعروش، فأسس هؤلاء سماء أخرى أشد دنوا هي المضاعف المناسب للسماء الأولى. تناسخ هذا المجمع الثاني في ثالث، وهذا في رابع أدنى، وهكذا الى غاية 999. إن سيد

سماء الأعماق، ظل ظلال أخرى، هو من يباشر الحكم، ويميل حظه من الألوهية الى الصفر.

إن الأرض التي نسكنها خطأ، ومحاكاة ساخرة لا تنم عن مهارة. والمرايا والأبوة مظهران فظيعان لكونهما يضاعفانها ويؤكدانها. والفضيلة الأساسية التقزز. وهناك مذهبان (ترك النبي للناس حرية الاختيار بينهما) يمكن أن يقودانا إليها : الزهد أو الانكباب على الشهوات، ممارسة حاجيات الجسد أو التعفف عنها.

وليست جنة حكيم ولا جحيمه بأقل من ذلك يأسا. ورد في لعنة تمت المحافظة عليها من كتاب « الوردة الخفية » : « إنني أعد الذين لا يؤمنون بالكلمة، وينكرون الوجة والحجاب الموشى بالجواهر ـــ أعدهم جحيما عجيبا، إذ سيملك كل واحد منهم على 999 إمبراطورية من نار، في كل إمبراطورية 999 جبل من نار، وفي كل جبل 999 برجا من نار، وفي كل برج 999 طابقا من نار، وفي كل طابق 999 فراشا من نار، وفي كل فراش سيكون الموعود صحبة 999 شكلا من نار (يتشكل فيها وجهه وصوته) تقوم بتعذيبه إلى ما شاء الله ». ويؤكد النبي في مكان آخر : « ستعانون في هذه الحياة داخل جسم واحد، وعند الموت والجزاء داخل أجسام لا حصر لها ».

أما الجنة فأقل وضوحا. « بها ليل دائم وأحواض من حجر. والسعادة في هذه الجنة هي السعادة المميزة للحظات الوداع، والرفض، سعادة من يعلمون أنهم نائمون ».

الوجه

في السنة 163 للهجرة، والخامسة من تاريخ الوجه المضيء، حوصر حكيم في مدينة صنم من طرف جيش الخليفة. لم يتوقف الزاد، ولا تناقص عدد الشهداء.

وكان الناس ينتظرون نجدة وشيكة من زمرة ملائكة من نور. كانوا على هذه الحال عندما طافت بالقصر إشاعة مريعة. فقد حكي أن بغيا من الحريم، قبل ان تخمد أنفاسها من طرف الخصيان، صرخت بأن اليد اليمنى للنبي ينقصها البنصر وأن الاصابع الاخرى لليد لا أظافر فيها، فانتشرت الاشاعة بين المؤمنين. وكان حكيم، في شرفة مرتفعة تحت وهج الشمس، يلتمس من الاله الأليف نصرا أو علامة، عندما جاء ضابطان منكسي الرأس، ذليلين ـــ كما لو كانا يصارعان مطرا ـــ فاقتلعا منه الحجاب المطرز بالاحجار.

في البداية حدثت رجة. ذلك أن وجه الرسول الموعود، وجهه الذي كان في السموات، كان في الحقيقة أبيض، لكن بلون ذلك البياض الخاص بالبرص المبقع. كان الوجه منتفخا انتفاخا لا يصدق، إلى حد أنه بدا للرجلين أشبه بقناع. لم تكن له حواجب، وكانت الجفن السفلى للعين اليمنى تتدلى على الخد الشائخ، وعنقود ثقيل من الصديد يلتهم شفتيه. أما الأنف اللا إنسانية والفطساء فكانت أشبه بمنخر سبع.

وحاول صوت حكيم إنجاز خدعة أخيرة، فشرع يقول : « إن إثمكم المربع يمنعكم من التملي بضيائي ....».

لم يستمع إليه الرجلان، واخترقاه بالرماح.

الرباط إبراهيم الخطيب

يومية حصار مليلة

(1774 - 1775)

تأليف : فرانسيسكو سبستيان دي ميراندا
ترجمة : حسن الفكيكي

كلما تجدد البحث في موضوع تاريخ الثغور المغربية المحتلة زاد اطلاعنا تمكينا بجملة من المحاولات العسكرية المبذولة من أجل استكمال الوحدة الترابية، وهي الوحدة التي أضحت مهددة منذ فجر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) من طرف الغزو الايبيري.

بعد المحاولة التي قام بها الجيش المغربي على عهد المولى إسماعيل لاسترجاع سبتة، اتجهت أنظار السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757 — 1790) إلى إمكان استخلاص مليلة من أسر الأجنبي، بعد أن مهد لذلك من الوجهة العسكرية والديبلوماسية (آ) ما بين سنوات 1769 و 1774م.

آ) أنظر ما كتبناه عن تلك الجهود بدعوة الحق، عدد : 263 — ص : 142 — 1987.
ب) تعددت رسائل العسكريين عن الحصار المغربي، يوجد أغلبها محفوظا بالخزانة الوطنية بمدريد، وبالأرشيف التاريخي الوطني، (A.H.N.) وبالأرشيف التاريخي العسكري بنفس المدينة وعدد من تلك اليوميات يتضمنه الأرشيف العام لسيمانكش (A.G.S) وقد أدلينا على الهوامش بما تمكنا التوصل إليه، على أمل استكمال ما تبقى من البيانات.

ورغم ما أمكن العثور عليه من أخبار هذا الحصار وأطواره في بطون المصادر المغربية، بما أمدتنا به المصادر الأجنبية خاصة (ب)، فإن ذلك لايرق إلى ما وجدناه في «يومية حصار مليلة» لصاحبها «فرانسيسكو سيستيان دي ميراندا» (Francisco Sebastian de Miranda) (ج).

ولا حاجة بنا الآن إلى الادلاء بتقييم عن هذه اليومية، فالغاية مقتصرة على تقديم النص العربي المترجم عن الأصل الاسباني، مكتفيا بعرض ما أمكن لي جمعه من لايضاحات والتعاليق على الهوامش، لترافق اليومية في رحلتها الزمنية التي ستستغرق كل أيام فصل الشتاء من سنتي 1774 و 1775.

صاحب اليومية من أصل فنزويلي، من مواليد 28 مارس 1750 «بكاراكاس» عاصمة فنزويلة. والمؤلف من الشخصيات اللامعة بتحركاته بين القارتين الأمريكية والأوربية، وبمغامراته السياسية في الذود عن الحرية. (د) ساقته الظروف الأولى إلى الالتحاق بالجيش الاسباني منذ سنة 1773، ضمن فيلق «بريتيسا» من المشاة، برتبة قبطان، وبهذه الصفة انتقل إلى مليلة في إطار الامدادات العسكرية التي توصلت بها يوم 30 ديسمبر 1774.

سجل يومياته خلال مدة الحصار، بعد أن تدرك ما فاته منها (من 9 ديسمبر إلى يوم نزوله)، وبذلك قدم لنا يوميته، لتغطي فترة الحصار من مبدئه يوم 9 ديسمبر 1774 إلى نهايته في 19 مارس 1775 م.

(ج) اعتمدت النص الذي حققه Rafael Fernandez de castro y Pedrera عضو بالأكاديمية الملكية للتاريخ طنجة 1939.

(د) انتقل "ميراندا" بعد الحصار حوالي 1792، الى فرنسا. وساهم الى جانب جيش الثورة الفرنسية، ثم انتقل الى انجلترا، حيث بدأ نشاطه لاستقلال بلاده، لينظم ثورة 1811. وأودع هناك في السجن الى أن توفي سنة 1816

يــومـيــة

الهجوم والدفاع عن حصن مليلة (1) ضد جيش المغرب
بقيادة السلطان ابتداء من 9 ديسمبر 1774

***

عــام 1774

يوم [illegible] ديسمبر (2)

جاءنا على الساعة الواحدة إلا ربعا من ليلة هذا اليوم، مخبر مسلم إسمه عمرو (3)، كان قد قضى بسجن هذا الحصن مدة طويلة، فأخبر أن ستتم خلال هذا اليوم معاينة جيش المغرب بقيادة السلطان نفسه، الأمر الذي تأكد ابتداء من الساعة الثاني عشرة زوالا. (4)

---

1) نحتفظ بالاسم المغربي الأصلي للمدينة المحتلة : مليلة ولا نرى أية ضرورة لاثباته محرفا عن أصله، إذا ما نطقنا به " مليلية " تقليدا لما يدعوه الاسبان : MELILLA

2) يوافقه يوم الخميس خامس شوال 1188 هـ.

3) AMAR.
سيظل هذا المخبر من الجواسيس الرئيسيين خلال مدة الحصار، وستكرر الاشارة اليه.

4) لاحت طلائع الجيش المغربي من ممر " تلوين "(TALAYON)المحاذي لساحل البحر الصغير، من الجهة التي يبرز منه التل المعروف بهذا الاسم لدى الاسبان، ويسميه السكان تل " سيدي علي تمكارت "

تقدم الجيش في اتجاه الحصن بنظام، وظل خارج نطاق مدفعيتنا مقسما إلى مجموعتين : ميمنة يقودها السلطان، وميسرة تحت إشراف أحد الأمراء. (5) أرسلت بطارياتنا بعض الطلقات في اتجاه فيلق حاول الدنو من الحصن. وحسب نفس المخبر أن شخصا مرموقا ذا كفاءة حربية، حل أمس بالبلد، أصيب أثناء اقترابه بفيلقه بقذيفة أودت بحياته، بعد أن بترت إحدى فخذيه وقتلت فرسه.

شاهدنا في هذا اليوم انحدار مسلمي هذه البلدة (6) الى مزارعهم قبيل ظهور المحلة، هبطوا بأعداد غفيرة، رجالا ونساء، وأقبلوا على جمع كل ما سبق أن زرعوه، ثم انصرفوا عن تلك الأماكن في المساء واختفوا منها، باستثناء العدد القليل منهم، ممن اتجه نحو محلة السلطان، دليلا على عدم مبالاتهم بقدوم الجيش. وستتم إدانتهم ولا شك، لما عرفوا به من التمرد.

يوم 10

نصب الأعداء في فجر هذا اليوم مخيما جديدا، مؤلفا من عدد كبير من الأخبية، بالمقارنة إلى العدد الذي تكون منه المخيمان السابقان. (7)، أقيم بين هذين

---

5) رافق سيدي محمد بن عبد الله في حصاره لمليلة ثلاثة من أنجاله : مولاي علي ولي عهده؛ المولى المامون : والمولى عبد السلام. حسبما سجله هذا الأخير في «درة السلوك وريحانه العلماء والملوك» مخطوط بالخزانة الحسنية ص. 229).

6) يريد خمس مزوجة المنتمي الى قبيلة قلعية، مداشره منتشرة على السفح الشرقي من جبل «أكركور».

7) يبين الرسم المسجل بتاريخ 30 ديسمبر 1774 مواقع المخيمات المغربية، وبه نتوصل الى موقع المخيمين المشار اليهما : أولهما يوافق موضع '' درع الزيات ''، المعروف لدى الاسبان ب '' تسريو ''.(TESORIO) وهو جنوبي. وثانيهما موضعه على كدية المعازيز العليا(Cabrerizas Atlas) وهو غربي. ويبدو المخيم الثالث أكبر حجما، يتألف من 40 خباء صغيرا، تتوسطه ثلاثة أخبية كبرى، أشار الرسم الى أنها خاصة بالجنرالات (القواد الكبار) وهو واقع على كدية توافق ما أطلق عليه الاسبان كدية '' الجمال ''.(Cerro de Camellos)وهو شمالي.

الأخرين وتل مشرف على الحصن يدعى «سان لورنثو» (8)، في موقع يوجد على مسافة واحدة من بطارياتنا، تقدر بنحو 2040 (طُيساس) (9) وضعوا في نفس الموقع بطارية من المهاريز من عيار 9 و 12، وبها بدأوا إطلاق النار على الحصن أول مرة، وخربت القذائف المتساقطة عددا من المباني، وفي مقدمتها منزل الحاكم (10)، وكادت القذيفة الثانية التي أصابته أن تطرح جميع جدرانه على الأرض، مما يدل على معرفتهم لاستعمال المدفعية وإجادتهم للرمي.

تقدم المسلمون في صباح هذا اليوم في اتجاه الحصن رافعين علم الهدنة فتم استقبالهم بما يليق من الحذر. ظهر على رأس الوفد أحد الباشاوات (11) ــ منصب يوازي مرتبة الجنرال عندنا ــ سارت وراءه فرقة من الحرس تتالف من نحو 500 فارس مرتدين هنداما حسنا.

طلب الوفد بإسم سلطانهم الامتثال لواحد من الأمور الثلاثة : الجلاء عن الحصن وانتقال الحامية إلى إسبانيا؛ الاستلام بشروط؛ تسليم الحصن عن طواعية، ومن أجل ذلك يقدمون المهلة الكافية. والحجة لديهم على ما يعرضونه، أن الأرض التي يطالبون بالتخلي عنها هي من أملاك السلطان، وتفوهوا بما ماثل ذلك الكلام من عبارات مفعمة بالنخوة، سرعان ما أجاب عنها الحاكم، نيابة عن الجنرال،

---

8) Cerro de san Sorenzo
وهو كدية " مزوجة " أو " تنرت "، حسبما جاء في تقاييد ابن القاضي القلعي (مخطوطة بالخزانة الحسنية)، تبعد عن أسوار مليلة بنحو 900 متر غربا اختفى أثرها بسبب امتداد العمران، بعد أن كان موضعها على الهامش الايمن من " واد المدور ".

9) TOESAS مقياس طولي يساوي ستة أقدام (القدم الاسباني يعادل 278، 0 م.) وبناء على ذلك فان القيمات السابق ذكرها تبعد عن المدينة بنحو 72، 3.402 م.

10) هو الكرونيل " خوسي كاريون "،(Jose Carrion)حاكم مليلة ما بين 1772 و 1777.

11) ربما تعلق الأمر بباشا دكالة محمد بن احمد، المكلف بتزويد الجيش المغربي بالمواد الغذائية. (رسالة 20 شتمبر 1774. ملف 4312 من A.H.N. ESTADO)

«خوان شرلوك» (12) بصفته الحاكم العام للحصن، بما تستحقه من الرد، حين أجاب بكونه خادم مخلص سبق له أن أدى اليمين للدفاع عنه إلى أن يستنفذ آخر قطرة من دمه، وانه يتوفر من أجل ذلك على مدخرات كافية، سواء الحربية منها أو الغذائية، كما توجد تحت تصرفه حامية مستعدة للذود عن الحصن بشجاعة وبما تستوجبه عزة النفس.

بادر الجنرال بالمناسبة إلى إصدار جملة من التعليمات، حث فيها على القيام بمهمة الدفاع على أفضل وجه، وأشرف بنفسه على تفقد الأبراج والبطاريات بكل عناية، وبعث في ذات الوقت من ينقل نبأ بدء الحصار على ظهر «فلوا» (13) إلى مالقة لطلب الامدادات المستعجلة (14)؛ ذلك أن عدد رجال الحامية آنذاك لم يتجاوز 700 جندي، إلى جانب ما ماثل هذا العدد من المنفيين (15). وكان الحصن في حاجة ماسة إلى المزيد من القطع المدفعية والذخائر الحربية، فالمتوفر منها كان قليلا جدا. وظلت الحامية طوال هذا اليوم محتفظة بيقظتها، متمسكة بسلاحها وبأماكنها، دون أن يلاحظ أدنى شيء على محلة العدو مما يسترعي البال.

---

(12) : Juan sherlok عين حاكما عاما لمليلة منذ 19 أكتوبر 1774، إثر الاعلان المغربي عن حصار الثغور المحتلة. (رسالة 19 أكتوبر 1774 — F 19 — L.532
A.G.S. Noticias y confidencias.

(13) : FALUA مركب صغير يستخدمه رؤساء البحر في الظروف التي تتطلب الاستعجال.

(14) تم نقل خبر زحف الجيش المغربي نحو مليلة في ليلة 9 دجنبر 1774، بمجرد أن علم به الحاكم على لسان المخبر عمرو (رسالة 9 دجنبر 1774 — F 52 — A.G.S.L.526

(15) تكونت حامية مليلة إلى جانب الجنود النظاميين من عدد من المنفيين، وهم المدانون لدى المحاكم الاسبانية، وصدر الحكم بنفيهم إلى الجيوب، أسوة بما كانوا يسلكونه مع المنفيين إلى العالم الجديد.

(16) : TARARA نسبة الى احدى جماعات سكان مليلة المعروفين قبل الاحتلال الاسباني، هاجرت الى المدينة من ترارة الجزائرية قبل القرن العاشر الهجري، واستقرت على هامش كدية صغيرة واقعة على الضفة اليمنى من واد المدور، مجاورة هناك كدية مزوجة مما يلي الشرق.

يـوم 11

أسفر صباح اليوم عن نصب العدو لأربع بطاريات مكونة من 18 قطعة من المهاريز، تم وضعها بكل من «ترارة» و «سان لورنثو» وفي «سانتياغو» (17) و «بونتيا» (18). وتشرف جميع هذه المواقع على الحصن، كانت بأيدينا قبل هذا الوقت، ولا تزال محتفظة بالأسماء التي وضعت لها يومئذ ثم فقدناها بصورة متتابعة. (19).

أطلق المسلمون النار علينا من تلك المواقع بانتظام وقوة، مما أدى إلى تخريب عدد من المباني، ولو أنهم لم يلحقوا الأضرار البليغة بالحامية، التي توجد معرضة على الدوام لتساقط القذائف، لعدم وجود العدد الكافي من الثكنات الملائمة لتلك الظروف. ردت مدفعيتنا بدورها على نيران العدو، فألحقت به خسائر جسيمة.

تعرف الأشغال الخاصة بالحصن تقدما ملموسا، وبذلك وضعت الأبراج الخارجية (20) في أحسن نظام ممكن، إذ أن شكل البناء مختلف نسبيا بالقياس إلى الهيأة

---

17) SANTIAGO : هو الموقع المعروف في تاريخ المقاومة المغربية '' برباط مليلة ''، ويوجد مترربا خلف كدية تحتل أسفل كدية المعازيز، على الهامش الأيسر من واد المدور.
(حسن الفكيكي ــ قلعية ومشكل الوجود الاسباني بمليلة. ص 119 نسخة بخزانة كلية آلاداب بالرباط)

18) Puntilla : '' الرأس الصغير '' المشرف من ساحل شمال المدينة، متصلا بالمقبرة وكدية '' مريا كريستينا ''.(Monte Maria Crestina).

19) إشارة الى المرحلة الجهادية التي قادها رجال قلعية منذ 1646 م. (1056 هـ.)، كانت غايتها هدم الأبراج الخارجة عن نطاق أسوار المدينة. (دعوة الحق. عدد 258، 1986 ــ ص. 28)

20) تشكل الأبراج الخارجية ما يسميه الاسبان بالحائط الرابع (Cuarto recinto)وتكون بما ألحق بها من الأسيجة التي تصل الأبراج بعضها ببعض الواجهة الغربية للمدينة وأهم تحصيناتها، وهي من الشمال الى الجنوب : روساريو (Rosario)، فكتوريا(Victoria)سان أنطونيو(San ANTONIO) ، سانتا لوثيا(SANTA LUCIA)، سان ماركوس(SAN MARCOS)، سان مكيل(SAN Miguel (وسانتا باربرا(SANTA barbara)مواقعها ممثلة بعدد من الرسوم الملحقة، خاصة الرسم .1.

التي يوجد بها في أوربا. وانتدب من جهة أخرى بعض الضباط، من فرقة المشاة للعمل ضمن رجال المدفعية، أختيروا جميعهم من فيلق «برنثيسا» (Princesa)، لما امتازوا به من حيوية الشباب. واتخذت تدابير أخرى، الغاية منها التغلب على النقص الذي تعاني منه فرقة المدفعيين.

يـوم 12

أثار انتباه رجال الحصن سماعهم لطلقات البارود بميدان العدو، ابتداء من منتصف الليل، لم تتوقف إلا في مطلع الفجر، وظنوا أن السبب راجع إلى قيام الفتنة بين المسلمين. ثم اقتنعنا بما جاء به أحد المخبرين المأجورين، حل بالحصن فجر ذلك اليوم، حين أخبر أن ما وصل إلى آذاننا لم يكن سوى خدعة لجأ إليها القائد عمرو، قائد المحلة (21) بقصد التأثير علينا بإظهار القوة الحربية المتوفرة لدى المسلمين. إلا أن هذا لم يجد في شيء مما كانوا يتوخونه، وعلى خلاف ذلك فإن مدفعيتنا ألحقت بهم الأضرار البليغة.

ذكر نفس المخبر أن المسلمين آسفون على ما وقعوا فيه من الخطأ حين تقديرهم مدى فعالية مدفعية الحصن، وعلى استهانتهم بالتحصينات القوية التي تحمي المدينة

---

(21) هو عمرو بن عمرو بن محمد بن مسعود القيطوني القلعي، عين قائدا لمحلة قلعية، على ما يبدو، أثناء زيارة سيدي محمد للقبيلة سنة 1770 (رسالة 8 نوفمبر 1770 — ملف A.H.N 4311 ESTADO). ينتمي الى الاسرة القلعية المعروفة بالقيادة الجهادية منذ أن عين المولى اسماعيل على رأسها محمد بن مسعود القيطوني سنة 1084 هـ.(أحمد بن محمد بن القاضي. مخطوطة بالخزانة الحسنية — حسن الفكيكي. قلعية.. ص 217).

(22)، وهو عكس زعم القائدين عمرو وسيدي بطوي (23)، أحد جنرالات الجيش المغربي، حينما أكدا للسلطان استسلام الحصن لا محالة بعد [illegible] من رميه بالقذائف المرعبة.

تمكنت بطاريات المهاريز الأربعة المذكورة آنفا من هدم عدد من مباني المدينة (24)، وسعت إلى نفس الغاية البطارية الجديدة التي نصبها الأعداء منذ صباح هذا اليوم على كدية «سنتياغو» (25)، وتتكون من ثلاثة مدافع، لم يترتب عن قصفها ضرر بليغ بالنسبة لرجال الحامية، لوجود أفرادها القليلين موزعين على محيط الأسوار والأبراج الخارجية. وكان في وسعهم أن يكونوا في حمى من القذائف لو أمكن توفير ما يكفي من الثكنات. وقابلنا العدو بدورنا بقصف قوي متواصل، وجهناه نحو بطارياته، ثم لاحظنا فتور ردهم، ففسرنا ذلك الفتور بتعدد الاصابات داخل صفوفه.

وصل في هذا اليوم مركب فرنسي قادما من ألمرية، كلف بنقل الآجر والجير

22) تعود تحصينات مليلة الى ما وفرتها لها الطبيعة في المقام الأول. فالنواة التي يمثلها الحصن، توجد على صخرة كلسية، مرتفعة بنحو 30 مترا عن سطح البحر، متوغلة في المياه على شكل شبه جزيرة صغيرة، وهذا هو القسم الأول المعروف لدى الاسبان بالمحاط الاول. ويليه غربا المحاط الثاني أو المدينة القديمة، مفصولا عن الاول بجسر متحرك مقام على خندق، وهو مجاز مائي يجعل من المحاط الأول جزيرة. وينفصل المحاط الثاني عن الثالث بخندق آخر يعلو فوقه جسر متصل بالبر الغربي، حيث جملة من الابراج المتدرجة في المحاط الثالث. ويشكل المحاط الرابع سلسلة من الابراج الخارجية التي عرفنا بها في الهامش رقم 20.

23) تسميه اليومية :Sydi BOTTEY، ويبقى الاسم الذي حاولنا رده الى أصله المغربي مجرد ترجيح، لعدم تعريف الوثائق بهذه الشخصية. ويستند الترجيح الى ما يوحي به الاسم الممثل بالحروف اللاتينية، حسب النطق الاسباني، والى ما لمسناه من انتماء الشخص الى الريف الشرقي.

24) وصل عدد مباني مليلة أثناء الحصار الى 134 مبنى، حسبما أشار اليه الرسم المؤرخ في 1774 (الرسم رقم 2).

25) هو الموقع المشار اليه في الرسم 3 برقم 4 وواقع في الهامش الأيسر من كدية رباط مليلة.

وحاجات أخرى، واحتفظنا بالحمولة الأخيرة، بينما أعيد الباقي إلى مالقة، ولم يكن لدينا سواء الوقت الكافي لافراغ الحمولة، أو عدد الرجال الذين سيتكلفون بالعملية. كانت حاجتنا الأولى وقت وصول المركب، متشوفة لترحيل الأطفال والنساء إلى إسبانيا، لأنهم كانوا مصدر قلق كبير لنا، يفوق ما نعانيه من جراء قصف العدو. غير أن الترحيل لم يتم بسبب هبوب الرياح بقوة، وأيضا لعدم ملاءمة الموقع الذي يوجد به رصيف الابحار. (26)

يـوم 13

ساد محلة العدو صمت شامل، وانقضى هذا اليوم دون أن يطلق المسلمون علينا طلقة واحدة. ولاحظنا دخول نحو 48 دابة إلى المخيمات، محملة على ما يظهر بالقذائف التي توصلوا بها هذا اليوم، وعملوا على نقلها ليلا إلى بطارياتهم، وبذلك أقلقوا راحتنا طوال ساعات هذه الليلة.

أسفر صباح هذا اليوم عن حفر العدو لخندق واقع بجهة الشاطىء (27)، شيد بالجهة المقابلة لرصيف الابحار بطريقة جيدة، ويسع لستة أو ثمانية مدافع. وساقنا التعرف على أسباب ذلك الصمت الغريب إلى توجيه «لانش» بقصد الاستطلاع من عرض البحر، بحثا عما إذا كان المسلمون حولوا مخيماتهم إلى جهة أخرى

---

26) أحدث الاسبان المرسى الواقع جنوب المدينة، مما يقابل " باب البحرية " (Puerta de la Marina) و " مانتيليتي " (Mantelete) بعد أن تخلوا عن استعمال المرسى القديم الواقع شمال الخصن (Ensenada de los Galaragos)، مستفيدين بالحماية التي توفرها الصخرة الكلسية من قوة الرياح الشرقية.

27) أختير لهذا الموضع الحربي نقطة واقعة على شاطىء جنوب المدينة. وهو الموقع الذي وضع رهن إشارة المجاهدين الجزائريين القلائل الذين التحقوا بالجيش المغربي المحاصر لمليلة بصورة تطوعية، مخالفين بذلك أوامر حاكم " معسكر ". أشار اليه الرسم 3 برقم 1، نصبت به أربع مدافع.

متوارية عن أنظارنا، إلا أنه لم يظهر أي شيء مما اعتقدناه. (28) أما مّا يخص الحصن فالأشغال جارية بحماس، وتم في هذا الصدد نصب بعض القطع المدفعية في الموضع المسمى «كونثبثيون» (29). وتوبع إنجاز أشغال أخرى في عدة أماكن ملائمة لالحاق المزيد من الخسائر في صفوف العدو.

يـوم 14

استأنف الأعداء إطلاق المهاريز بقوة، مما حتم على بطارياتنا الرد عليهم بالمثل. وتقدمت في نفس الوقت أشغالنا، فقد بدأنا في إحداث مشاريع جديدة يجري الآن تنفيذها إلا أن العدو يقلق راحتنا أثناء الليل بكثرة ما يرمينا به من القذائف التي تصيب أهدافها بمباني الحصن والأبراج الخارجية.

شوهد الأعداء وهم منهمكون في قطع الأحراش وجمعها من جهات متعددة. (30) وذكر أحد المخبرين، اتصل بنا هذا اليوم، أن غضب السلطان انصب على سيدي بطوي، لما تبين عليه من الغش، حين أكد له استسلام الحصن بمجرد الشروع في رميه، وبسبب ذلك أمر بقطع رأسه ويديه. وشاركه في هذا المصير ذلك الجندي الذي كلف بإرسال أولى القذائف نحو الحصن، بدعوى عدم اتقانه

---

28) كان الاستطلاع موجها لاكتشاف مواقع مخيمات الجيش، ومن بينها مخيم السلطان الذي احتل منذ بداية الحصار كدية «إوهْزانن» ، بينما استقر مولاي علي على كدية أولاد العربي، حسبما يمكن استنتاجه من ثلاثة رسوم : إثنان منها أنجزا في ديسمبر 1774، وثالثها يعود الى 15 يناير 1775.

29) Concepcion: برج واقع على الزاوية الشمالية من الحصن، يمثل أعلى نقطة من السطح كان موضع القصبة القديمة التي أشار اليها البكري، يحتل اليوم موضعا مجاورا للمتحف الأركيولوجي مما يلي الغرب.

30) بديل لما سماه النص ب (FAGINA) fagina

للرماية (31). قارن هذا الخبر الأخير بالنتيجة المترتبة عن سقوط القذيفة الثانية التي أصابت منزل الحاكم و ما عداه من المباني.

وحسب نفس المخبر أن المولى اليزيد (32) أحد أنجال السلطان من زوجته الانجليزية، ومن المعروفين بروحه الحربية، لن يقدم على محلة والده، نفورا منه لما يلاقيه الجيش من الجوع والحاجة إلى الأقوات. فالدجاجة الواحدة كانت توزع على ثمانية رؤوس، ويصل ثمنها إلى ثمانية دراهم (33)، وهو ما يزيد على خمس ريالات البليون من سكتنا. ويباع الرغيف الواحد بأربعة دراهم. أما الشعير وباقي المواد فمما لا وجود له بالمرة. (34)

وعلل المخبر إحجام المسلمين عن تنظيم الغارة على الحصن، بكونهم على علم بوجود النطاق الملغم (35)، فلهذا يكتفون بتركيز هجوماتهم، انطلاقا من المواقع

---

(31) لم نتأكد بعد من مصداق هذا الخبر، على الرغم من أن الوقت القصير الذي مر على بداية الحصار، والمدة الطويلة التي سيستغرقها الى غاية 16 مارس 1775، مما سيسمح لنا بتقبل أهمية هذا الخبر.

(32) Mulay HASSY: لم يحضر اليزيد حصار مليلة بأمر من والده، لما تكلف به من الاشراف على البحرية المغربية منذ سنة 1771. بقي بتلك المهمة الى بداية الحصار، وآنذاك أنيطت به حراسة المضيق. تحسبا لغزو محتمل يقوم به الأسطول الاسباني المرابط حينئذ بقادس وسبتة(Diario de Oran: أيام 29 — 30 — 31 ديسمبر 1774 — A.H.N - ESTADO)وإلى غاية شهر يناير كان المولى اليزيد قائما بنفس المهمة (رسالة قادس : 6 يناير 1775 ملف 4312 ESTADO، — A.H.N.)

(33) استعمل صاحب النص لفظ Blanquillos. ونعتقد أن ما يعنيه " بالقطع البيضاء "، وهو معنى اللفظ الاسباني، هو الدراهم الفضية، بدليل تقديم المعادل لها بالسكة الاسبانية.

(34) حسب يومية وهران : " أن فنيكا القمح تساوي 4 " بسوس (Pesos)ويساوي الشعير " بيسو " واحد، وهي أسعار لم يسمع بمثلها بالمنطقة الشرقية " (أيام 29 — 31 ديسمبر 1774)

(35) بالفعل أعد الاسبان في وقت سابق للحصار حقلا واسعا من الألغام لحماية المتحصر الواقع بين الأبراج : " سان أنطونيو " و " سان كارلوس " و " فكتوريا القديمة " و " سانتياغو المداحق "، وأحدثوا عدة ممرات باطنية تمكنهم من الانتقال نحو تلك الأبراج (الرسم رقم ـ 1).

الكائنة «ببونتييا» (36)، على برج «فكتوريا». (37) وزاد المخبر أن الغرض من تركيزهم الهجوم على تلك الجهة يرمي إلى قتل عدد من اليهود وبعض المارقين. وتوحي آخر الأخبار التي جاء بها بقصر المدة التي سيمكثها السلطان بالميدان. لم يتحقق أغلب هذه الأخبار مما علمناه خلال الأيام التالية.

يــوم 15

حفر المسلمون في صباح هذا اليوم خندقا جديدا بموقع «بونتييا» (38)، نصبوا به بطارية مكونة من أربع قطع مدفعية للرد على نيران برج «روساريو» (39)، إلا أنهم لم يحققوا أدنى شيء مما كانوا يرومونه لحد الآن. وقابلنا رميهم بقصف قوي. وأشغال الحصن متواصلة، فتجري الزيادة في متانة جدران البرج المذكور، علاوة على ما ندبره من الخطط لافشال مساعيهم، على الرغم من أنهم وجهوا نحونا عددا كبيرا من القذائف، تداعى بسببها أغلب مباني الحصن، غير أنهم لم يتوصلوا إلى إلحاق الخسائر البليغة بالحامية.

يــوم 16

لم يسجل من التحركات في ساحة الأعداء، سوى ما قاموا به من إمداد

---

36) أعد المغاربة، علاوة على المخيمات الثلاثة السابقة، مخيمين آخرين، احتل أولهما تل '' مركا (Cerro de Horca)''، والثاني منهما منبسطا مجاورا لرأس '' بونتيا ''. حسبما يوضحه رسم 30 ديسمبر 1774.

37) Fuerte de Victoria grande : شيد سنة 1736 على الكدية المشرفة على المرسى القديم، (Cerrode Cubo) من شمال المدينة. وهو مثلث الشكل، يسع لست عشرة قطعة مدفعية. مشروع إسباني كبير أطلقوا عليه اسم '' النصر الاكبر ''، تمييزا له عن برج آخر مجاور أقدم وأصغر حجما.

38) أشار اليه الرسم 3 بحرف h ويحتل بقعة على أرضية الرأس.

39) Fuerte de Rosario : الأبراج الخارجية الواقعة في الشمال، تحميه جرف مشرف على البحر يدعوه الاسبان : '' كورتدورا '' (Cortadura) أي الحافة العمودية.

البطاريات بالمهاريز، بلغ عددها 32 مهرازا، من عيارات 8 و 12 و 15 بوصة (40)، وبها استأنفوا قصفهم دون جدوى، رغم أنهم يقلقون راحتنا بما لاحد له من الازعاج.

تتابع الأشغال بحماس، وتم تعزيز بطاريات «كونتشيون» بأربع قطع مدفعية، أصابت أهدافها بميدان الأعداء بنجاح كبير، نتيجة موقعها الممتاز المشرف على البلد. وفي هذا اليوم أمكن ترحيل النساء والأطفال على ظهر السفينة الفرنسية، ولم تحل دون ذلك قوة هبوب الرياح الجنوبية الشرقية. (41)

أيـــام 17 و 18 و 19

اتصل القصف خلال هذه الأيام كلها في الاتجاهات المشار إليها بالأمس. وفضل الاعداء تجميع مخيماتهم.ويداوم السلطان تفقد الخنادق والبطاريات بنفسه، إلخ..ويقوم بتلك الزيارات على ظهر عربة جميلة، أهداها له عاهلنا، ويقيم في خباء مميز عن باقي الأخبية المجاورة له، وهو أيضا من هدايا جلالته. (42)

تمكنت مدفعيتنا من عرقلة أشغال العدو بقدر من التوفيق. وتبين من تحليل مركبات قذائفه أنها مزيج من البارود والكافور، وهوتركيب مجهول لدينا. ويحاول بعض المسلمين التوصل إلى الوسيلة التي لا يتأثر بها المزيج أثناء وقوع القذيفة

(40 Pulgadas

(41) توصل الكورضي الاسباني بخبر الحصار المغربي، مما دفعه الى إصدار أوامره بجمع الامدادات، التي لن تصل إلا يوم 30 دجنبر 1774. (رسالة الكورضي : 16 شتمبر 1774. 19 F—
A.G.S. - Noticias y Confidencias L 524

(42) من بين الهدايا التي بادل بها سيدي محمد بن عبد الله هدايا كارلوس الثالث اليه، خلال مباحثات الاتفاق المغربي الاسباني لسنة 1767.

في المياه، مثلما يلاحظ على أغلبها المتساقط في عرض البحر، حين يدفع الانفجار بكتلة هائلة من المياه إلى الأعلى بشكل عمودي.

أيـــام 20 و 21 و 22

تصدعت قنوات بعض مدافعنا الحديدية، نتيجة الأسراف في استعمالها، ووصل الحد برجال المدفعية إلى الاحجام عن زندها.ورداءة هذا النوع من المدافع تلح علينا ترقب وصول الأمدادات التي سبقت المطالبة بها، فأغلب ما يوجد منها غير صالح للاستعمال، إذا استثنينا منها 14 أو 16 قطعة.

لاحت لنا بعض المراكب القادمة من إسبانيا، وحينما وصلت إلى الجون لم تتمكن من الدخول إلى المرسى لافراغ ما حملته، بسبب هبوب العاصفة الهوجاء الآتية من الشرق. وحرمنا هذا العائق من التوصل بإمدادات عسكرية وذخائر حربية، جاءت بها أربع فركاطات حربية من قرطاجنة. (43)

تقرر خلال هذا اليوم نصب بطارية بأعلى سطح «كونثبثيون»، وتوجيه أفواهها نحو موقع «بونتييا». إلا أننا عجزنا عن تنفيذ الخطة لحاجتنا إلى رجال المدفعية. وهذه الحاجة هي المانع أيضا من التوصل إلى نصب قطعتين، كان من الضروري نصبهما بساحة الأسلحة، (44) لمواجهة القصف الصادر من بطارية الشاطىء. ويستمر القصف بين الجانبين في نفس الاتجاهات، دون أن يلاحظ آي تقدم لحد الآن على الأشغال التي يوجهها العدو ضد الحصن.

---

(43) التوصل بهذه الامدادات الأولى على الفركاطة (FARGATA : سفينة ذات ثلاثة أعمدة، تستطيع حمل بطارية من المدافع) ناتج عن التحركات التي قام بها قبطان ساحل غرناطة، إثر توصله بخبر الحصار في حينه.

(44) Plaza de Armas : الساحة التي تتوسط مباني القديمة (الحائط الثاني)، تقدم وصف بعض معالمها الطبيعية بالهامش رقم 22.

أيـام 23 و 24 و 25

شرع الأعداء منذ اليوم الأول في حفر الأنفاق (45)، وجهوا خط اتجاهها إلى التي سبق أن مددناها نحو «بونتيبا» (46)، وسرعان ما اتخذت من جانبنا تدابير مستعجلة لاحباط تلك المشاريع، بخلق عدد من العراقيل (47) الكفيلة باعتراض طريق تقدمهم. وحينما تأكدنا من اقترابهم، سارعنا إلى تفجير لغم كنا غرسناه بالموضع لمثل هذا الغرض، وبذلك نجحنا في الحد من أشغالهم الجارية بتلك الجهة. (48)

لاحظنا انشغال جيش المغرب بالتأهب طيلة صباح اليوم الأول. وشاهدنا، على الساعة الواحدة، خروج السلطان من محيط المحلة، برفقة فيلق هام من الخيالة (49)، وعدد من المشاة، وسار الجميع نحو «بونتيبا»، مما لاشك فيه لمعاينة

---

45) هي الخطة التي نهجها المجاهدون القلعيون منذ بداية عهد المولى الرشيد، تحت قيادة رئيس المجاهدين بلقاسم الشاوي القلعي، ومحمد بن مسعود القيطوني، مقدم خمس الكعدة، الغاية منها الوصول عن طريق النفق الى أساس الأبراج، ليتسنى تخريبه بالبارود أولا، وتنظيم الغارة عليه ثانيا. (حسن الفكيكي. قلعية ... ص 209)

46) يبدو الخندق على الرسم رقم 3، ممتدا على منحدر يشغله حاليا شارع '' كانديدودي لوبيرا '') Calle Candido de labera، حده الشرقي يقف عند جرف مشرف على البحر، غير بعيد عن برج '' روساريو ''، وحده الغربي منتهي عند المكان المعروف آنذاك ب '' فم النفق (Bocamina)''

47) وضعت كلمة العراقيل لتدل على المعنى الذي يؤديه اللفظ الاسباني :Ramales

48) تطلب حفر النفق، كما هو المستخلص من تقاييد ابن القاضي (النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري) عدة أيام. وبناء على ذلك فإن الحفر كان قد بدأ قبل يوم 23 دجنبر ويمكن اعتبار أنه اليوم الذي تفطن اليه الاسبان، وذلك باقتراب الحفر من نفق الاسبان، وبذلك أمكن لهم زنده في نفس اليوم.

49) يبين رسم '' خوان كبيرو ''، المسجل يوم 15 يناير 1775 موقع مخيم الخيالة، عند أسفل وادي '' إوهذانن ''. ويشير إليه برقم 3.

الأشغال الجارية هناك والاطلاع على الأضرار الناجمة عن الانفجار الذي أحدثناه بالمكان. و لم تتأخر بطاريتنا عن إطلاق نيرانها القوية على الأعداء، بمجرد اقترابهم أو الارتيـاب في نواياهم. وبقيت الحامية متمسكة بسلاحها إلى أن تأكد لديها هدف تلك التحركات. يستمر القصف بنفس القوة، ويلحق الخسائر بالمباني، حيث يوجد أغلبها طريحا على الأرض.

أيـام 26 و 27 و 28 و 29

يثابر الأعداء على مد أشغال الحفر بحماس كبير في اتجاه أنفاقنا الملغمة من موضع آخر. وتقوم حاميتنا من جهتها بإعداد كل مامن شأنه أن يعرقل تلك الأشغال. وعلمنا أن خط الحفر المتجدد يسير على مستوى موافق لخط امتداد نفقنا، مما يسهل علينا اكتشاف نواياهم. وزندنا أحد الألغام فصادفنا به نجاحا كبيرا، ولابد أن تكون الخسائر المترتبة عن الانفجار جسيمة. (50)

كان من سوء حظنا أن انفكت، أثناء ليلة اليوم الثاني، أمراس (51) إحدى السفن من مقابضها، وعلى متنها موادُ التجهيز وكميات من الأخشاب، فقذفت بها الرياح نحو شاطىء العدو وحرثت به (52)، ووزعها المسلمون قطعا، مما كان له تأثير على مدفعيتنا (53).

اتصل بنا في اليوم الأخير والسابق له مخبران مسلمان فأنبآ أن الأشغال الجارية

50) تمكنت القذائف المغربية في هذا اليوم من إصابة المستشفى العسكري. (رسالة مليلة : 27 دیسمبر L 526 — F L - (A.G.S. Noticias y confidencias L 54 — 1774

51) Amarras

52) اعتادت الوثائق المغربية استعمال الكلمة في المعنى الذي يدل عليه اللفظ الاسباني: Amarras

53) هذا دليل على أن بدء الحفر كان قريبا بالموقع المعروف بـ '' فم النفق ''.(Bocamina)

حلت بهذا الجون في ليلة اليوم الأخير ثلاث جابيات (55) وفركاطتان حربيتان برفقة عدد من المراكب الخاصة بالنقل، حاملة معها إمدادات هامة من جنود وذخائر حربية وأقوات، أدخل وصولها ارتياحا عظيما على نفوس هذه الحامية الصغرى، بعدما نال منها التعب خلال عشرين يوما من الحصار، ولم تكن تلقت أية إعانات من جهة أخرى. (56) وتم من جانب آخر إصلاح إحدى البطاريات، مكونة من ثلاثة مدافع، وضعت بساحة الأسلحة، وتؤدي الآن وظيفتها بإحكام ضد بطاريات الشاطىء.

يوم 30

استمر دخول المراكب إلى المرسى طوال هذا اليوم تحت حراسة السفن الحربية البالغ عددها 24 سفينة. كلفت بنقل الجنود من مالقة وحمل القطع المدفعية والمؤن الحربية والأقوات. (57) ومن بين المراكب الواصلة إلى مليلة، مركب جلالته المدعو «سان خنارو» (San Genaro)، وهو من فئة 70 راكبا كان قد رافق من منطلقه الأول قادس أربعة من «سنتاس» قطلانية، مختصة في نقل المدافع. في اتجاه مضاد لنفق «بونتييا» تتابع من الناحية الشرقية، وزادا أن العدو يعاني من قلة ما يتوفر عليه من الأقوات، الأمر الذي أثار استياء الجنود.

---

55) رددت رسالة صادرة من مالقة بتاريخ 27 ديسمبر 1774 نبأ ندرة الأقوات بالميدان المغربي F55 (A.G.S. Noticias y Confidencias —L 526 —

56) وصلت الامدادات الأولى من قرطاجنة في 1774/12/20، غير أنها لم تتمكن من إفراغ حمولتها بسبب سوء الأحوال الجوية.

57) وصل من ضمن تلك الامدادات مؤلف هذه اليومية، ومن ذلك نعلم أن المعلومات التي قدمها مستقاة من أخبار من سبقه من جنود فرقة '' برينثيسا '' التي وجدت بالحصن.

(58) غير أن عدد الرجال الذين تمكنوا من النزول لم يتجاوز ثلاثة ضباط من رجال المدفعية واثنين وعشرين جنديا. ومن جملة من تمكن من النزول المهندس «خوان كبييرو» (59)، والكرونيل «خوان دمنكو» سلزار (Juan Domingo Salazar) وبعض الضباط من بروكسيل برافانتي (Bravante) وعدد من رجال نابلي وكطلونيا، ونحو من 600 جندي من فرقة المشاة، بينما بقيت غالبية الجيش من الجنود وبعض الضباط على ظهر السفن، لاستحالة عملية النزول بهذا المرسى وقت اشتداد هبوب الرياح الشرقية.

ظهرت الآثار الحسنة للغم قمنا بتفجيره يوم أمس. (60) فالأشغال التي كانت جارية بنفق الأعداء، يصل إلينا صداها من بعيد على شكل نقرات متقطعة. أما القصف فمتواصل بين الجانبين. وأكد لنا مخبر أن الموت متفشي بالمحلة بسبب، ما تعانيه من ندرة الأقوات. (61)

يـوم 31

أجبرت قوة هبوب الرياح جميع المراكب الداخلة إلى هذا الجون قبل هذا اليوم على الاقلاع بكل حمولتها، وبما كان على ظهرها من الجنود. وضاعت «اللانشات»

(58 SAETAS : سفينة ذات أعمدة ثلاثة، تتكون من طابق واحد، أقل من الجابية حجما وأكبر من الكاليوطة.

(59 Juan Caballero Aylmer : مهندس حربي، سبق أن ترأس وفدا كلف بدراسة تحصينات مليلة سنة 1774. وكلف منذ شتمبر 1774 بمهمة مماثلة (قادس 2 شتمبر 1774 — 41 F— L (A.G.S. - Noticias y Confidencias) L 532. عكف منذ وصوله الى مليلة على كتابة يومية عن الحصار توجد نسخة منها محفوظة بأرشيف سمنكاس.

(60) التفجير وقع برأس الخندق المشار اليه آنفا.

(61) حسب '' يومية وهران : '' إن الأقوات كانت نادرة، وأن السلطان لم يتوصل الى توفيرها رغم الجهود التي بذلها. (Diario de Oran : أيام 29 — 31 دجنبر 1774 — A.H.N.)

التي بعثتها سفن جلالته لحماية نزول الرجال. ولم يقتصر الأمر على اصطدامها بصخور المرسى وتناثر أجزائها، بل أشرف الجنود جميعهم على الغرق، فبادروا إلى التخلص من أغلب ما كان لديهم من الأثقال، ولو لم يهتدوا لهذا الحل لكان الغرق مصيرهم المحتوم.

قام الجنرال، برفقة المهندس المدير، بزيارة تفقدية لأسوار الحصن، بهدف إدخال الاصلاحات اللازمة على المتضرر منها، خاصة بعد التأكد من أن الأعداء جادون في أشغال الحفر الجارية «ببونتييا»، ومن تقدمهم مسافة 20 «فاراس» (62)، سيرا في اتجاه برج «فكتوريا». (63) ويبدو أن النفق المنطلق من نفس الموقع نحو برج «روساريو» يوجد على بعد 60 «فاراس» (64) بالنسبة للبرج المذكور. ويواجه رجال الحامية تلك المساعي بوضع العراقيل ومد الأنفاق الفرعية، التي شرع في حفرها منذ يوم 23، بقصد إحباط الخطة التي يدبرها العدو من تلك الجهة.

فر إلينا أحد أسرى محلة العدو، وهوإسباني الأصل، من بادس مالقة (Vades de Malaga) فأكد النقص الحاصل في عدد جيش العدو، بسبب حالات الفرار المسجلة في صفوفه، وهي حالات ناتجة عن ندرة المواد الغذائية. وذكر أن الأعداء عازمون على تنظيم هجوم على الحصن في اللحظات التي سيقومون فيها بإقتحام

---

(62) Vara : مقياس طولي يساوي 3 أقدام (القدم الاسباني = 0,278 م. أو 4 أشبار، والشبر يساوي 0,209 م.) فالفارة تعادل : 0,835 م. وبناء على ذلك فإن المسافة المحفورة وصلت إلى 16,700 م.

(63) انطلق الحفر من النقطة التي يمثلها الخندق الشرقي المستطيل الشكل المشرف على البحر. المعروف بعولاذورا (Vuladura).

(64) أي ما يعادل 50,1 م.

الأبراج عن طريق الأنفاق التي يبذلون من أجلها كل الجهود. (65) وقال الأسير عن نفسه إنه كان يعمل ضمن رجال القذائف وهذا هو ما يدل عليه هندامه. (66)

علمنا من نفس الأسير بطريقة شحن المسلمين للمهاريز، فهم يقتصرون على وضع شحنة كبرى من البارود بحوض المهراز (67)، وإثبات الفتيلة في نفس الموضع. دون الاضطرار لمخض البارود.

يواصل الجانبان القصف المتبادل في الاتجاهات المتعادة. ولوحظ انشغال العدو بإدخال كميات كبرى من الأحراش إلى موقع «سانتياغو»، طوال المدة المتراوحة بين الساعة الرابعة والخامسة من مساء هذا اليوم بدون توقف.

عـــام 1775

يــوم 1 ينايــر

شرع العدو في حفر خندق مواز لآخر، انطلاقا من موقع «سانتياغو»، يسير خط اتجاهه نحو موقع ترارة وبطاريات الشاطىء هذا هو ما يفسر جلب الأحراش المشار إليها فيما سبق إلى نفس الموقع. (68)

---

65) طبقا للطريقة التي استعملها مجاهدو أواخر القرن السابع عشر.

66) جرت العادة أن يساهم عدد من الأسرى الأجانب في الخدمة بالمدفعية المغربية. دل على ذلك ما شاهده الأجانب من تدريب المغاربة على أيدي الاسبان والفرنسيين والبرتغال بمراكش وسلا والعرائش (سبتة 1770 (سبتة 30 ماي 1770 — 4309 — .A.H.N) وما بعدها. —)
Ramon Lourido Diaz – El armamento J la asistencia tecnica Militar europea en el asidio marroqui de Melilla – 1774 – 75 p. 132 (Revista de historia Militar - 1972.-)

67) Recamara.

68) لا يظهر هذا الخندق على الرسم رقم 3، إذ أن أشغاله ستتوقف.

وتعرف أشغالنا تقدما كبيرا، فقد زيد في عدد قطع بطاريات الأبراج الخارجية. ونحن مقبلون على إحداث بعض المشاريع التي يرجى من ورائها وضع الحصن في موقف دفاعي جيد، لضمان حماية الجنود من أخطار تساقط القذائف، لعدم وجود المباني والملاجيء الباطنية.

تعزز دفاع جميع مواقع الحصن بفضل ما توصلت به من الامدادات، وكذا الأمر بالنسبة للتحصينات الخارجية التي لايسهر على حمايتها سوى عدد قليل من الرجال المجهدين.

يــوم 2

يواصل العدو بذل الجهود في أشغال حفر الخندق الذي سيصل «سانتياغو» ببطاريات الشاطيء، رغم تعرض رجاله لقصف المدافع وإقلاق راحتهم بها. وسمعنا عند غروب الشمس طلقات متوالية من البارود، منبعثة من المخيمات والمواقع على السواء. كان ذلك بالطبع بمناسبة زيارة السلطان للأشغال الجارية هناك (69).

تتابع أشغالنا بتقدم ملموس ويلاحظ الحماس الذي يحث الجنود على ترك البندقية ومغادرة الأسوار لتناول الفأس والمجرفة. فقد أمكن لجماعة من رجال القذائف التابعين لفيلق «برنثيسا» من نصب أغلب القطع المدفعية الواردة من إسبانيا منذ أن بدأ هذا الحصار.

يــوم 3

حلت في هذا اليوم فركاطتان حربيتان قدمتا من قادس حاملتين على متنهما جنود

---

69) يفهم : زيارة السلطان لأشغال خندق الفحص الذي سيربط رباط مليلة بموقع الشاطيء.

فرقة «سمورا» (Zamora) بهدف حماية هذا الحصن. لم يتمكن من النزول سوى مجموعتين من رجال المفرقعات، وثلاث مجموعات من المشاة، كان من ضمنها الكرونيل «يوسف أبيانيدا». (Yoseph Abellaneda) واستقر رأي الجنرال بالنسبة لباقي الجنود على عودتهم إلى مالقة، لضيق المساحة الايوائية التي تسمح بها المدينة. وبوصول هذه الامدادات، بلغ عدد الجنود 2.500 وارتفع عدد المنفيين إلى 1.000. يواصل العدو أشغاله في الخندق الذي سيربط «سانتياغو» «بترارة». ولم تختلف درجة القصف عما كانت عليه يوم أمس.

يوم 4

دخلت إلى هذا المرسى جابية جلالته «بيلار» (Pilar)، قادمة من برشلونة، وعلى ظهرها كرونيل مدفعية و 40 من الجنود بمعية ضباطهم وأربعة جراحين، ومع كل ذلك التجهيزات المجلوبة من مالقة وقادس، إلخ..(70) (نحو 23 مركبا)، أمدت الحصن بما يحتاجه من المؤن الحربية والأقوات.

ستبقى بها الجون، بأمر جلالته، عمارة مؤلفة من أربع جابيات وفركاطتين حربيتين بقصد المداومة به، تحت قيادة «ضون خوسي إذالكوسيسنيروس (José Idalgo Cisneros)» وإشراف الجنرال، رعيا لخدمة المصالح المستعجلة المترتبة عن الحصار.

واصلت جميع تلك المراكب إفراغ حمولتها على الرغم مما بذله العدو من الجهود

(70) صادف هذا اليوم اعتدال هبوب الرياح، حسبما أكدته Gaceta de Madrid عدد 24 يناير 1775 — صفحة 37 — A.H.N — Estado

للحيلولة دون ذلك بواسطة بطارية من المدافع وضعت على الجانب الأيمن المقابل لرصيف الافراغ. (71)

تستمر الأشغال من الجانبين وبنفس الحماس. ويسير القصف وفق الخطة المعتادة مع فارق وحيد، تميزه طريقة الرمي. فالمسلمون يرموننا بنحو 32 قذيفة دفعة واحدة، وهو مجموع المهاريز الموجود في حوزتهم ويكفي هذا العدد لالحاق الأضرار البليغة بالحامية. والحق أن هذا النوع من القصف جد مؤذ لنا، إذ أن كل من حاول النجاة من القذائف المتساقطة على المكان المتواجد فيه، يجد نفسه مهددا في ذات الوقت بقذيفة أخرى يحتمل تساقطها في المكان الذي لجأ إليه. ويسمي رجالنا هذا النوع من القصف «روساريو دي مأوما». (72)

يــوم ■

توبع خلال هذا اليوم إفراغ حمولة السفن، بفضل هبوب الرياح الغربية. ومن جملة ما تم إنزاله، خمسة مدافع برونزية من العيار الكبير، مما كنا في أمس الحاجة إليه، علاوة على ما تسلمناه من عيارات 12 و 18 و 24.

تبدو الخطط الهجومية التي يدبرها الأعداء ضئيلة القيمة (حسبما يشاهد بواسطة المنظار المكبر)، لحاجتهم إلى المدفعية...رغم المحاولات التي يبذلونها سعيا لتعديل تلك الخطط. ونحن حريصون على عدم إهمال كل ما من شأنه أن يجعل دفاعنا خليقا بالاعتزاز.

---

71) أتت المراكب بثمانية مدافع برونزية، قطعتان منها من عيار 12، وأخريتان من عيار 18 وباقيها من نوع 16 (Gaceta de Madrid) : رسالة فرنسيسكو إذالكوتسنيروس : ■ يناير 1775 صفحة..38 ــ A.H.N.).

72) Rosario de Mahoma : أي سبحة محمد.

يوم 6

تستمر عملية إنزال المدافع الواردة علينا من برشلونة. ودخلت إلى المرسى سفن أخرى، جاءت بالامدادات من ساحل إسبانيا، كل ذلك بفضل هدوء الرياح الغربية. نصب الأعداء بطارية مهاريز بمقربة من موقع «سانتياغو» (73)، في موضع مقابل لبرج «سان مكيل» (74)، كما شرعوا في حفر بعض الخنادق الصغرى (75)، في اتجاه البرج المذكور وبرج «سانتاباربرا»، الواقع يساره. ويظهر أن الهدف من تلك المشاريع يرمي إلى معرفة ما إذا كان في نية الحامية القيام بهجوم عنيف ضد بطارياتهم.

تم الاتفاق على غرس صف من الألغام على بعد ثلاث خطوات خارج سياج برج «فكتوريا»، يمتد غرسها على طول منحدر الطريق الواصل بين برجي «سان أنطونيو» (76) و «روساريو»، وهي الجهة التي يرجح أنها ستكون ممرا لجيش العدو أثاء الغارة. وتقرر في حال التأكد من الهجوم زند تلك الألغام، لادخال الرعب في صفوف رجاله، وتزند في نفس اللحظة ألغام المنحدر المشار إليه، وبذلك تنجح الخطة، ويكون للانفجار آثاره المرجوة.

---

73) الموقع المشار إليه في رسم 3 بحرف e

74) Fuerte de San Miguel : من الأبراج الخارجية الهامة، كان موضعه على الضفة اليسرى من واد المدور، حيث تمتد اليوم ساحة إسبانيا. أسس سنة 1707 لمراقبة تسرب المغاربة إلى الفوطات. شكله مربع، يسع لخمسين من الجنود، ويوجد على بعد طلقة مدفعية واحدة.

75) الخنادق المشار إليها في رسم 3 بحرف v

76) Fuerte de San Antonio : برج منعزل في الجنوب الغربي لبرج فكتوريا. أشير إليه في رسم 2 برقم 30.

يــوم 7

أتاح الجو الهادىء استمرار السفن في إفراغ حمولتها، مما وفر لنا المؤن المتنوعة، من زاد وذخائر حربية، بقدر يكفي الحصن خلال فترة لايستهان بها. (77) شاهدنا صباح هذا اليوم انتقال السلطان بموكب من الفرسان إلى موضع «ألميدا» (78). يلازمه جندي لحمل مظلة خضراء اللون تقية لحر الشمس. ويرى من ضمن فرقة الفرسان عدد من الجياد الممتازة، خاصة تلك التي تشكل الحرس السلطاني. ولا تتقدم أشغال الأعداء إلا ببطء، وكذا الأمر بالنسبة لبطارياتهم. أما أشغالنا فمنصبة على شق الأنفاق الباطنية، لتوفير الملاجىء ومستودعات الأقوات.

يــوم 8

اتفق في هذا اليوم على تنفيذ أشغال غرس الألغام المشار إليها سابقا، بوضعها في منحدر الطريق المقابل لبرج «فكتوريا»، تحت حماية فرقة من رجال المفرقعات المنتمين إلى فيلق «بريتشيا»، بحضور كل من الجنرال والحاكم. كما شيدت بعض السطوح عند أعلى «السور الملكي»، (79) بقصد نصب بعض المهاريز في نفس المكان. وأحدثت سطوح مماثلة على الأبراج الصغرى، البارزة من امتداد الأسوار، (80) بالكيفية التي تسمح بها لقطعة مدفعية من القطع التي توصلنا بها أخيرا، آملين

---

77) تبدأ يومية «خوان كيميرو» في الظهور. (مليلة: 8 يناير 1775 — F 12 — A.G.S.L. 523

78) ALAMEDA : تعني لغويا الغابة الصغرى، يصعب تحديد موقعها داخل الميدان المغربي ويمكن فقط أن يشار إلى أنها مقابلة لمليلة من الأراضي المزوجة.

79) Muralla Real : مازال هذا السور قائما ومعروفا بنفس الاسم، موضعه أعلى باب البحرية (Puerta de la MArina) المؤدية إلى المرسى.

80) هي المعروفة خلال هذه الفترة باسم : Baluarte.

بذلك جعل القصف من تلك الجهة قويا.

كلفت إحدى اللانشات بمهمة الاستطلاع من عرض البحر المقابل لموقع «بونتيبا»، استعدادا لقصفها بواسطة بعض السفن الحربية وإلحاق الأضرار بمواقعها وخنادقها. امتاز قصف العدو بقوته، حيث رمانا بسحاب من القذائف، على شكل مجموعات، بلغ عددها في بعض الأحيان 32 قذيفة. وتلحق هذه الطريقة الأضرار البليغة برجال الحامية القائمين بالأشغال. (81)

يــوم 9 ينايــر

اتفق في صباح هذا اليوم على أن يقوم إثنا عشر من شجعان المنفيين باقتحام ميدان العدو وتخريب النفق الذي يحفرونه هناك بإلقاء ثلاث أو أربع مفرقعات من خلال المنافذ المشرفة على البحر، كان المسلمون قد فتحوها للتخلص من الأتربة المستخرجة من النفق. وهو على بعد أربع «طئيساس» من برج «روساريو». وصدرت الأوامر من جهة أخرى لاقتراب فركاطة من نفس الموقع ورميه بالقذائف. (82)

خرجت جماعة المنفيين على الفور، فألقت بنفسها خارج محيط السياج، وفاجأت مسلما كان في حراسة المنفذ الأول (Claraboya) وقتله، وتمكن الرجال من إلقاء ثلاث أو أربع مفرقعات من قوة 9 بوصات (Pulgadas) في باقي المنافذ.

---

(81) أشار تقرير رئيس البحرية الملكية السابق الذكر أن المغاربة توصلوا بإمدادات جديدة خلال الأيام الأخيرة، بعد أن ردد تناقص عدد الجنود المغاربة. وربط التقرير ذلك بندرة الأقوات، إلى حد أن وجبة الفرد الواحد لم تتجاوز الرغيف من خبز الشعير.

(82) رددت رسالة خوان شرلوك نفس الخبر والأحداث التي تلته. (مليلة : 9يناير 1775 Gaceta de Madrid عدد 24 يناير 1775 ص. 38 — A.H.N. Estado

فلم يسع المسلمين الذين كانوا بداخل النفق سوى الاسراع إلى الخروج والنجاة بأرواحهم والالتحاق بالخنادق، فالانفجار كان كافيا لخنق أنفاسهم لو أنهم بقوا بالداخل.

بادر المنفيون بعد ذلك، متحمسين بالأثر الحسن الذي أحدثه الانفجار، ومستغلين التغطية التي وفرها لهم قصف الفركاطة للخندق المذكور، إلى الهجوم على ذلك الموقع ببعض المحروقات المصنوعة لهذا الغرض، (83). ففر من المكان نحو 200 مسلم، متوهمين أنهم تعرضوا لغزو شامل، وآنذاك استغل المنفيون الفرصة لاشعال النار في الخندق المذكور. (84) لم يلبث المسلمون أن تراجعوا بعد تيقنهم من واقع ما دبر لهم، فأقبلوا نحو رجالنا الذين نجوا بأرواحهم تحت ظل نيران الأبراج الثلاثة : فكتوريا، روساريو، وسان أنطونيو.

سارعت جنود العدو، كنتيجة لما حدث، إلى حمل السلاح وهرعوا قاصدين خندق «بونتييا» إلى حد أن خلت مواقع بطاريات الجهة اليسرى من الرجال. لو تفطنت الحامية لهذا الخطأ وأقدمت على توجيه ثلاثة أو أربعة فرق من رجال المفرقعات، لأمكن تدمير بطاريات الشاطىء، دون أن يكلفهم ذلك خسارة رجل واحد. وبعد مضي وقت وجيز بادر الأعداء، مسوقين بالحذر، إلى تعزيز تلك المواقع بما يكفي من الرجال، وشرعوا في قصف الحصن بقوة لم يسبق لها مثيل(85). واحتفظنا بقذيفتين، بقيتا دون انفجار، كان وزن كل منهما نحو عشرة أرباع (86).

(83) هي المعروفة باسم «سالتشيتشا» (Salchicha)، وهي عبارة عن اكياس صغيرة، أسطوانية الشكل، مشحونة بالبارود، ينتهي أحد طرفيها بفتيلة. تستعمل لأحراق الخنادق.

(84) شيد المغاربة الخنادق بالأخشاب والأحراش وأكياس حلفاء، بوضع بنظام على القسم الأعلى. (مليلة 9 يناير 1775 ــ Gaceta de Madrid عدد 24 يناير 1775 ص 39

(85) ذكرت رسالة «عنوان شرلوك» السابقة : دام القصف أربع ساعات متوالية. المصدر السابق.

(86) ARROBA : يساوي 11,50 كلغ. وزن القذيفة هو : 115 كلغ.

يــوم 10

عادت فركاطة أخرى إلى الاقتراب من موقع «بونتيبا» لقصفه من عرض البحر. إلا أنها لم تتمكن من تحقيق نتائج كبرى كتلك التي ترتبت عن قصف يوم أمس، بسبب قلةالأعداء المرابطين بالموقع، نتيجة ما نالهم من روع القصف السابق. وقد جرب بعض من كان بالخندق رمي الفركاطة بالقنابل دون جدوى.

لم تظهر لحد الآن أية نتيجة للهجوم الذي ينظمه الأعداء من الخنادق، باستثناء استبدالهم بعض المهاريز بأخرى في إحدى بطارياتهم إثر الانتهاء من استصلاحه بموضع مجاور «للرميلة» (87)، وانتهائهم من أشغال الخندق الممتد من «سانتياغو» إلى «سان لورنثو».

11 و 12

تلقينا خلال هذين اليومين الامدادات الواصلة من مالقة على ظهر أكثر من عشرة مراكب، محملة بالمؤن الحربية والأقوات. وكلفت مراكبنا الحربية بعض اللانشات لاستطلاع ساحل العدو الممتد إلى «رستينكا»، فأدت مهمتها بنجاح. (88)

تمكن الأعداء، ليلة اليوم الأول، من إشعال النيران في سياج برج «سان أنطونيو» (89)، وترتب عن الحريق إتلاف ما يزيد على 20 سياجا (Estacadas).

---

(87) RAMBLA : واقعة على ما يبدو عند اتصال شارع أبنيدا «بساحة إسبانيا»، غير أن رسم المواقع المغربية المرسوم من طرف «خوان كبيرو» لايشير إلى وجود المدافع بتلك البقعة. وأقربها موقع «هركا».

(88) RESTINGA : يعني به الاسبان الشريط الرملي المكون للرصيف القاري. وينطبق هذا على الشريط الرملي الفاصل بين البحر الصغير (سبخة بوعرك) والبحر المتوسط. والجزء المقصود من النص هو القسم الشمالي المقابل للمخيمات المغربية. (بني أنصار)

(89) يشير الرسم II إلى السياج برقم 29

وتوصلنا لحسن الحظ إلى القضاء على اللهيب، بعد أن كادت ألسنته تصل إلى «سالتشيتشا» (Salchicha) المتصلة بالألغام المغروسة في منحدر نفس السياج. (90)

عاود الأعداء في ليلة اليوم الثاني إشعال النيران مرة ثانية في نفس السياج خلال ثلاث محاولات، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى مرماهم، بفضل يقظة رجال الحراسة. يستمر القصف بين الجانبين في نفس الاتجاهات. وحل بالحصن، على الساعة الخامسة، مخبر مسلم، بقيت الأخبار التي جاء بها وقفا على علم كل من الجنرال والحاكم.

يومـا 13 و 14

وصلت بعض المراكب بالذخائر الحربية وبالمدافع التي كنا في أمس الحاجة إليها، وسيتيح لنا وصولها تزويد باقي بطارياتنا، وأشرت في السابق إلى أن الصالح منها لم يتجاوز أربع عشرة قطعة. (91)

من المرجح أن بطارياتنا أنزلت بعض الخسائر بمدفعية العدو. استخلصنا ذلك من ضعف قصفها لسفننا الداخلة إلى المرسى، خلافا لما لاحظناه على مهاريزه البالغ عددها خمسا وثلاثين قطعة، صالحة للاستعمال إلى حد الساعة. ويخيم الصمت على المحلة والخنادق.

---

(90) كان قد تقرر غرسها يوم 6 يناير.

(91) ردد حاكم ساحل غرناطة ما توصل به من أنباء الحصار. (رسالة مالقة 13 يناير 1775 F 19 — A.G.S Notieras Y Confidencial – L. 525

يومـا 15 و 16

لوحظ، بعد هجوم متواصل استغرق كل ساعات يوم أمس، تجمع أعداد غفيرة من جنود العدو بموقع «بونتيبا» لمعاينة أثر اللغم الذي تم تفجيره يسار برج «روساريو» كان هذا على الساعة السادسة والنصف. أما عن الانفجار فلم تنتج عنه أية خسائر، أدى فقط إلى رفع كمية من الأتربة، وعلى العكس مست أثاره سور كل من برجي «فكتوريا» و «روساريو» مساً خفيفا. (92)

رمانا الأعداء بمجموعة من القذائف، كان الغرض منها بدون شك، إرباك رجالنا إذ لم تترتب عنها أية خسائر. وتوقفت أشغالهم بالخنادق منذ يوم أمس. ونظن أن نيتهم مقتصرة على تركيز أشغالهم بالجهة المتصلة ببرجي «فكتوريا» و «بونتيبا». وتتابع من جهتنا عملية نصب المدافع، بتشييد عدد من السطوح، للتمكن من إضافة عدد آخر من القطع المدفعية، وهوعمل يتقدم كل يوم. (93)

يـوم 17 و 18

لم يلاحظ على ميدان العدو سوى ما شاهدناه من تحرك بعض فرق الفرسان المواكبين للسلطان ذهابا وجيئة، الأمر الذي اضطر بطاريات الحصن إلى إطلاق نارها. في اتجاههم. وأخبر المراقب المكلف باستطلاع أحوال الميدان بواسطة

---

92) بعث «عنوان شرلوك» تقريرا عن الحصار الخاص بهذا اليوم : (مالقة 16 يناير 1775 — 11
A.G.S. Noticias y Confidencias - L526 — F

93) حرر أحمد الغزال رسالة إلى «الماركيس دي كريمالضي»، رئيس الحكومة الاسبانية، يذكره فيها : أن المغرب متمسك بالهدنة في البحر دون البر (14 دي القعدة 1188 هـ، ملف 4309 — (A.H.N. - Estado). وكان الغزال قد راسل نائب القنصل الاسباني بتطوان بنفس المعنى. (A.H.N. Estado — 4312).

المنظار المكبر، (94) بمقتل شخص، دل هندامه أنه القائد عمرو، المعروف بلباسه الحربي، لدى الجميع، إذا أنه من جملة هدايا جلالته إليه، كان قد تسلمه على يد حاكم مليلة. (95) دخل مخبر مسلم على الساعة الخامسة بعد الزوال، خص الحاكم والخترال بما جاء به من الأخبار. (96)

يومـا 19 و 20

لم يحدث خلال اليوم الأول ما يسترعي الانتباه. وفي فجر اليوم الثاني رفعت الرايات على الأبراج الخارجية، وأطلقت البطاريات عدة طلقات مدفعية عند مطلع الشمس ووقت غروبها، احتفالا بحلول عيد ميلاد جلالته الكاثوليكي، وشاركتنا في هذا الاحتفال جميع المراكب الراسية بالجون.

رد الأعداء علينا بقذائف المهاريز، مما ألحق بعض الخسائر بالحصن. ولوحظ أنهم مشتغلون بحفر خندق يمتد من موضع الانفجار الذي أحدثوه سابقا إلى النفق المقابل لبرج «سانتالوثيا» ويسمونه «فم الميناء» (97)، ويبعد عن سياج البرج المذكور بنحو 16 «طيساس» (98). وهذا هو ثالث الخنادق الموجهة نحو برج «فكتوريا» بطريقة موازية. (99) اتصل بنا المخبر عمرو بعد الغروب، لكن الخترال

---

94) اتخذ الاسبان من أعلى نقطة بالحصن برجا للمراقبة. أختير موقعه بأعلى مبنى الكنيسة أشير إليه في رسم 2 برقم 4.

95) الخبر غير صحيح. سيشير صاحب اليومية إلى وجود القائد عمرو عدة مرات بعد هذا التاريخ.

96) في الوقت الذي رددت فيه رسالة «خوان شرلوك»، خترال مليلة، انتصارات الاسبان في الميدان، (رسالته 20 يناير 1775 — F 106 — 526 — A.G.S. - L) كان المولى عبد السلام مهتما بجمع المدافع والبومب والحبال والمعاول بتطوان. (رسالة قادس : 20 يناير 1775. ملف 4312 — A.H.N. Estado).

97) BOCAMINA : هو الموضع المشار إليه بحرف O في رسم 3.

98) أي ما يعادل 25,6 م.

99) معروفا باسم : «فولاذورا» (Vuladura) الرسم 3.

والحاكم احتفظا بالأخبار التي جاء بها.

يــوم 21

امتاز هذا اليوم بالنسبة للأعداء بحلول أحد أعيادهم، (100) خصوه بايقاد عدد من الأنوار بقيت مشتعلة طوال الليل، أما النهار فقد كان القصف خلاله قويا، قوبل بالمثل من طرف بطاريات الحصن.

لم يطرأ بساحتنا ما يستحق الذكر، إذا استثنينا ما كان من انفجار بعض المدافع الحديدية التي لم يتسن لنا استبدالها بما هو أفضل منها، ولم يكن من استعمالها بد منذ أن بدأ هذا الحصار. وسنعمل على التخلي عن استعمالها مع توالي وصول الامدادات المنتظرة.

يواصل العدو أشغال الحفر في الخندق المقابل لبرج «فكتوريا»، من الواجهة المقابلة لبونتيا، انطلاقا من موضع انفجار لغمهم إلى «فم الميناء»، رغم ما ترميهم به بنادقنا، وما يتساقط عليهم من قذائف أبراج «سان أنطونيو» و «فكتوريا» و سانتالوثيا» و «روساريو» وفي صباح هذا اليوم حل بالحصن أحد المخبرين. ويتابع القصف بنفس الوتيرة.

يــوم 22

لوحظ في صباح هذا اليوم انتقال مخيمات العدو من الأماكن التي احتلتها منذ بداية هذا الحصار إلى جبل القرمود (101)، مبتعدة مسافة نحو 200 طتيساس

---

100) يوافق ليوم 21 يناير لـ 19 ذي القعدة 1188 هـ، وليس التاريخ مناسبة لعيد ديني.

101) CARAMUS : منحدر جبل «السبت» (أيضا سيدي أحمد الحاج) المشرف على جماعة فرخانة من جهة الجنوب. ويقصد النص استقرار المخيمات على كمدة «تسمغين»، المجاورة لمدشر فرخانة، أو على كمدة «أكركور» (Gurugu)، مما يلي نفس المدشر جنوبا.

(102). ويرجع هذا الابتعاد إلى القصف الذي قامت به بطارياتنا يوم أمس، إذ أنها حققت أقصى نقطة لها في الرمي بقذائفها، حيث شوهدت بعض الأخبية مطروحة على الأرض، ويظهر خباء السلطان على بعد منا، بعد أن تراجع إلى الوراء تجنبا لأي خطر. (103)

قيل إن نحواً من 1.600 فارس ابتعدوا عن المخيمات مسافة سبعة فراسخ، في طريق البحث عن مراعي جديدة، لعدم صلاحية الأعشاب السائدة بتلك الجهة، إذ أنها كانت السبب في موت عدد كبير من رؤوس الخيل. (104)

تستمر أشغال حفر الأنفاق بحماس كبير من جهتنا. وأضيفت خمس قطع مدفعية إلى ما كان موجودا منها ببرج فكتوريا، بعد فتح عدة ثغرات بين التي كانت موجودة بأعلى السور، وبناء السطوح اللازمة لها. يتوالى علينا القصف في الاتجاهات المعروفة.

يــوم 23

هبت خلال هذا اليوم رياح جنوبية غربية قوية مصحوبة ببعض الأمطار، مما

---

102) أي أن الخيمات المغربية ابتعدت بنحو 333,6 م. مما يقابل الشمال.

103) أشارت رسالة مليلة المؤرخة في [illegible] يناير 1775 : وأن السلطان حول مكان إقامته من الاتجاه الشرقي إلى الجنوب الغربي. (Gaceta de Madrid). عدد 24 يناير 1775 ص. 38 (A.H.N. Estado).

104) نرجح أن انتقال أولئك الفرسان، إن صدق الخبر، كان لمهمة أخرى غير التي أخبر بها الجواسيس، سيما وأن المسافة المقدرة تصل إلى ما يقرب من 40 كلم، وهي مسافة تتجاوز سهب «بوعرك» إلى سهب «كرط»، حيث مجالات أولاد شعيب وبني بويحي من الأحلاف.

105) ويعني هذا أن البرج متوفر على 21 قطعة مدفعية.

أجبر السفن الراسية بهذا الجون على الابحار إلى جزر «الشفارين» (106)، حيث يوجد مرسى آمن. يبعد عن الحصن بنحو 9 فراسخ. (107). والمكان عبارة عن جزيرة أو صخرة جرداء تتوفر على مرسى حسن (108)، تلجأ إليه السفن المعرضة للرياح الشرقية القوية، خوفا من أن تقذف بها إلى ذلك الساحل.

يخيم الهدوء على محلة العدو وبطارياته، فهذا هو اليوم الوحيد الذي لم يطلق فيه طلقة واحدة منذ مستهل هذا الحصار. إلا أنهم حاولوا في منتصف الليل إشعال النار في سياج برج «روساريو»، لكن بدون جدوى. فبعد تفطن الحراس إلى وجودهم بالمكان المذكور، بادر أولئك إلى الفرار، تاركين هناك المشعلة (Atocha) التي جاءوا بها لذلك الغرض، في مكان يبعد عن نفس السياج بما يزيد على ثلاث «فارات»، حيث بقيت إلى أن خمدت شعلتها. (109)

يوم 24

لايزال الهدوء مخيما على محلة العدو، بينما يستمر هبوب الرياح بقوة. وحاول المسلمون إشعال النار في سياج برج «سانتا بابرا» (110)، دون أن ينالوا منه مبتغاهم مثل المحاولات السابقة. ورمونا أثناء الليل بمجموعات من القذائف، بلغ

---

106) Islas Chafarinas : هي جزر ملوية أو جزر كبدانة الواقعة قبالة رأس الماء، تتألف من ثلاثة جزر خالية آنذاك، كانت مركز السفن الجهادية، وبذلك نعتها الأجانب بهذا الاسم وقد نتج عن محاولة إرجاع الاسم إلى أصله المغربي خطأ حين سميت «بالجزر الجعفرية». هذا هو ما دل عليه البحث، وتأكد لدي من استطلاع قمت به سنة 1976.

107) أي مسافة 50 كلم بحرية. (الفرسخ الاسباني يساوي : 70، 5.572 م).

108) يوجد المرسى بين الجزيرتين الشرقية والوسطى لتقاربهما، مما يوفر الحماية للسفن من الرياح الشرقية.

109) VARA : مقياس طولي يعادل 0,835 م. وعلى هذا تكون المسافة المقدرة هي : 2,5 م.

110) Fuerte de Santa Babara : البرج الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية من المحيط الرابع مما يجاوز «سان مكيل» جنوبا.

عددها 30 قطعة، كانت السبب في مقتل بعض رجالنا. وكلما لجأوا إلى هذا النوع من القصف، أصبح من المتعذر علينا ضمان نجاة الرجال العاملين خارج ثكناتهم من الأخطار المحدقة بهم، في محيط ضيق مثل الذي تشغله مساحة هذا الحصن.

علمنا من طرف بعض المخبرين بمقتل رئيس مدفعية العدو بطلقة مدفع. ومات في نفس الوقت أحد قواد جيش الأمير. (111) وأخبر جاسوس جاء من صخرة بادس أن خمسين قتيلا هم حصيلة انفجار لغم يوم 29 من الشهر الماضي ببونتييا، كما أن القصف المنطلق من برج «فكتوريا» يبعث الرعب في نفوس المسلمين، ويسمونه «البرج الذي لايقهر» (El invencible).

وأضاف نفس المخبر أن المسلمين منكبون على صنع عدد كبير من السلالم، بالطريقة التي تستطيع حمل ثقل عشرة جنود، استعدادا لتنظيم هجوم عام على هذا البرج. وضبط موعد الهجوم بيوم 10 من الشهر الآتي، وسوف يعتمدون في تنظيمه على ما سيتوصلون به من الامدادات.

يــوم 25

تبعنا الزيارة التفقدية التي قام بها السلطان للمحلة والخنادق، على بعد طلقة مدفعية ونصف بالقياس إلى مواقع بطارياتنا، برفقة موكب من الفرسان المرموقين. ولوحظ في مساء هذا اليوم إقبال عدد كبير من المسلمين على تداريب الرماية بالقذائف اليدوية، أجروها في الميدان القريب من محلتهم. والغاية من إجراء تلك التداريب، كما هو المعتقد، ترمي إلى التأهب لتنظيم الغارة على هذا الحصن. ويستمر القصف متثاقلا. واستقبلنا خلال هذه الليلة مخبرين، كان أحدهما عملاقا.

(يتبع)

(111) لم نتمكن من الكشف عن إسم رئيس المدفعية أو إسم قائد جيش الأمير، لعدم توفرنا على قائمة أسماء القواد المرافقين للجيش المغربي.

من شعرائنا القضاة

عبد الجواد السقاط

يتميز العطاء الأدبي في المغرب بجملة من السمات التي طبعته على امتداد تاريخه العريق، وأحلته مكانة تستدعي غير قليل من الاهتمام والدراسة، سواء منها ما تعلق بالنثر أو ما تعلق بالشعر.

وبغض النظر عن النثر المغربي ومميزاته، نصرف القول نحو الشعر، لنقف من خلاله على ظاهرة بارزة ظلت ترتبط بهذا الشعر منذ مراحله الأولى إلى اليوم، متمثلة في التلاحم الذي استمر قائما بين القضاة المغاربة والابداع الشعري بمستوياته المختلفة.

ولعل أول ما يلفت النظر في هذه الظاهرة أنها برهنت على ازدواجية الشخصية الثقافية لدى فئة من هؤلاء القضاة، حيث انهم كانوا يجمعون بين الثقافة الأدبية بروافدها المتنوعة، وبين الثقافة العلمية سواء منها الدينية أو اللسانية؛ كما أنها برهنت على ما كان يطبع شخصية هذه الفئة من تكامل أتاح لها أن تتوسل بالشعر للتعبير عن مواقفها وعواطفها، شأنها في ذلك شأن غيرها من الشعراء الذين لم يرتبطوا بمهمة القضاء كما ارتبطت بها هي.

وهكذا نستطيع ــ ونحن نتصفح تاريخ المسيرة الشعرية ببلادنا ــ أن نقف على مجموعة من الأسماء التي جمع أصحابها بين القضاء والشعر، أيا كان العصر الذي تنتمي إليه.

***

فإذا انطلقنا من العصر المرابطي ــ عصر البذور الأولى للحركة الأدبية بالمغرب ــ طالعتنا أسماء يعتبر بعضها من معالم الثقافة والفكر، كقاضي طنجة أبي الحسن علي بن بياع (1)، وقاضي سبتة عياض بن موسى اليحصبي (2).

فابن بياع كان ممن فرضوا وجودهم في الساحة الأدبية سواء داخل المغرب أو خارجه، يشهد بذلك الفتح بن خاقان الذي يقول فيه : « إن نطق رأيت البيان منسربا من لسانه، والاحسان منتسبا لاحسانه، حوى العلوم وحازها، وتحقق حقائق العرب ومجازها، وروى قصائدها وأرجازها، وعلم إطالتها وإيجازها» (3). ولعل هذا الحكم صادر عن اقتناع ويقين نظرا لمكانة الرجل أولا، ثم نظرا للعلاقة المتينة التي كانت تربط بينه وبين ابن خاقان، والتي يخلدها ابن بياع بقوله :

ولولا أبو نصر (4) ولذات أنسه ... تقضت حياتي كلها وهي علقم

فتى فتح الله المعارف باسمه ... ومن دونها باب من الجهل مبهم

---

1) يجهل تاريخ وفاته، انظره في قلائد العقيان ص 226 ــ 231، والتعريف بالقاضي عياض ص 111، والوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ج 1 ص 31 ــ 51، والنبوغ المغربي ج 1 ص 93، والأدب المغربي ص 142 ــ 145.

2) مات عام 544 هـ، انظره في أزهار الرياض، والتعريف بالقاضي عياض، وقلائد العقيان ص 222 ــ 226، والاعلام ج 9 ص 319 ــ 397، والنبوغ المغربي ج 1 ص 87 ــ 89، والأدب المغربي ص 151 ــ 159، والقاضي عياض الأديب، ومجلة المناهل : عدد خاص عن القاضي عياض، ودورة القاضي عياض.

3) قلائد العقيان ص 226

4) يقصد الفتح بن خاقان

تأخر في لفظ الزمان، وإنه — بمعناه في أعيانه متقدم
أتوا بالمعاني وهي در منظم — وجاء بها من أفقها وهي أنجم
وما يستوي في الحكم راق وغائص — لقد نال أسنى الرتبة المتسنم (5)

وكذلك كان عياض موسوعة شاملة لما كان يحيط به من ثقافات واسعة جعلته أعجوبة عصره حتى قيل عنه « لولا القاضي عياض لما عرف المغرب »، وبوأته مكان الصدارة في الساحة العلمية التي أغناها بمؤلفاته القيمة، وخاصة منها كتاب الشفا بتعريف حق المصطفى. غير أن هذا الميل إلى العلوم المختلفة لم يصرفه عن الخوض في مجال الشعر مبدعا حينا، وناقدا حينا آخر، بل إنه تعامل مع الشعر منذ سن مبكرة كما يفهم من كلام ابنه أبي عبد الله : « كان شعره رحمة الله عليه في شبيبته كثيرا، ولكن لم أجد منه بخطه إلا يسيرا، وأكثر ما عندي منه إنما أخذته عن أصحابه لا عنه لأنه لم يدونه » (6). ونحن نستطيع انطلاقا مما وصلنا من هذا الشعر، أن ننتهي إلى غزارة المادة عند الرجل، ولاسيما أنه توسل به في أغراض شتى، منها التذلل والاستغفار في الأبيات الآتية :

إليك بؤت بذنبي — فاغفر خطاياي ربي
وامنن علي بعطف — تجبر به صدع قلبي
فقد كثرت ذنوبا — سودت منهن كتبي
وطال تقصير سعيي — في كل فرض وندب
وقد أسأت فأحسن — فلم تزل محسنا لي
وجئت أطلب توبا — إذ ضاق بالذنب رحبي
فاقبل بفضلك توبي — واغفر برحماك ذنبي

5) قلائد العقيان ص 228.
6) التعريف بالقاضي عياض ص 103

وعافني واعف عني   فأنت يا رب حسبي (7)

وإلى هذين نشير إلى قاضي فاس محمد بن عيسى (8) الذي كان محيطا بعلوم الحقائق — كما يقول هو عن نفسه — إلى جانب قوله الشعر. ويكفي أن نستشهد من هذا الشعر بأبيات أبدى فيها استسلامه لقدر الموت حيث يقول:

أمن بعد غوصي في علوم الحقائق   وطول انبساطي في مذاهب خالقي
ومن بعد إشرافي على ما ذكرته   أرى طالبا شيئا إلى غير رازقي
وقد أذنت نفسي بتفويض رزقها   وأعنف في سوقي إلى الموت سائقي
وإني وإن ألفيت أو رعت هاربا   من الموت في الآفاق فالموت لاحقي(9)

وإذا توقفنا بعد هذا عند العصر الموحدي، وجدناه لا يختلف في شيء عن العصر الذي سبقه، إذ تطالعنا فيه هو الآخر أسماء كانت لها مكانتها في المجتمع، فمارست القضاء كمهنة، كما مارست قول الشعر في مناسبات مختلفة؛ ومن هذه الأسماء :

● أبو حفص عمر الأغماتي (10) الذي تولى قضاء فاس فتلمسان فإشبيلية، والذي « كان فقيها علامة، وفي النظم والأدب أندر علامة » كما يصفه

---

7) نفس المصدر السابق ص 97

8) مات عام 505 هـ، انظره في الجذوة ج 1 ص 253 — 254.

9) نفس المصدر السابق والجزء ص 254، على أن ابن أبي زرع الفاسي ينسبها لسعيد بن عبد الرحمن ابن وهب بن عبد ربه (انظر الذخيرة السنية ص 46).

10) مات عام 604 هـ، انظره في أزهار الرياض ج 2 ص 361 — 374، والغصون اليانعة ص 91 — 97، والذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الأول ص 222، وصلة الصلة ج 7 ص 72، والنبوغ المغربي ج 1 ص 168 — 169، والاعلام ج 9 ص 275 — 277، والوافي بالأدب العربي ج 1 ص 168 — 184، والأدب المغربي ص 188 — 192، والأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي ص 111 — 115.

ابن سعيد (11)، حيث يولي وجهته نحو الشعر، فيطرق فيه أغراضا مختلفة ربما كان الغزل أبرزها، حتى إنه اتهم بكونه «غير حافظ للناموس الشرعي بكثرة تغزله واشتهار مقطعاته وانهماكه في العشق» (12). ومن نماذجه في هذا الموضوع قوله :

هم نظروا لواحظها فهاموا وتشرب عقل شاربها المدام
يخاف الناس مقلتها سواها أيذعر قلب حامله الحسام
سما طرفي إليها وهو باك وتحت الشمس ينسكب الغمام
وأذكر قدها فأنوح شوقا على الأغصان تنتدب الحمام
وأعقب بينها في الصدر غما إذا اغتربت ذكاء أتى الظلام (13)

● أبو بكر محمد بن ابراهيم (14) الذي تولى قضاء غرناطة، والذي «كان ينظم الشعر مولعا بذلك مغضيا عن ضعفه فيه» (15).

■ عبد الله بن محمد بن عيسى التادلي (16) الذي تولى قضاء فاس زمانا، والذي تعرض لمحنة قال على إثرها :

اصبر إذا ما أردت أمرا فالصبر مفتاح كل نجح
والهم ليل، وكل ليل لابد أن ينجلي بصبح (17)

---

(11) الغصون اليانعة ص 91
(12) نفس المصدر السابق ص 92
(13) نفس المصدر السابق ص 93
(14) مات عام 648 هـ، انظره في الذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الثاني ص 511.
(15) نفس المصدر السابق والسفر والقسم والصفحة
(16) مات عام 597 هـ، انظره في درة الحجال ج 3 ص 49؛ والجذوة ج 2 ص 421 — 422، والتكملة ج 2 ص 921 — 923، والذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الأول ص 229.
(17) الذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الأول ص 229، الهامش رقم 212.

■ عبد الله بن عيسى بن محمد التادلي (18) الذي استقضي بمدينة بسطة وغيرها من البلاد، و «كان أديبا بارعا، كاتبا شاعرا مفلقا» (19). ومن نماذجه قوله مخاطبا قاضي الجماعة أبا جعفر بن مضاء :

يـــا غـــارسا لي ثمار مجد ... سقيتها العـذب مـن زلالك
أخـاف مـن زهرهـا سقوطـا ... إن لم يكن سقيها ببالك (20)

● يونس بن يوسف الجذامي (21) الذي تولى قضاء طرابلس إفريقية، و «كان أديبا ماهرا ذا إدراك وإقدام، مع مشاركة في غير ما فن، وحظ من قرض الشعر " (22). ومن جملة شعره تسميطه لاحدى قصائد حسان بن ثابت (23) في مدح الرسول " ص " يستهله بقوله :

من كان من معشر الباكين مقتصدا ... وخاض في غمرات الحزن متئدا
ولم يذب أسفا ولم يمت كمدا ... أنا الذي حزنه لا ينتهي أبدا
آليت ما في جميع الناس مجتهدا ... مني ألية بر غير إفناد (24)

■ محمد بن حسين بن عطية بن غازي الأنصاري السبتي (25) الذي تولى

---

18) مات قبيل عام 600 هـ. انظره في نيل الابتهاج ص 137، والجذوة ج 2 ص 421، والذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الثاني ص 532 — 533، والاعلام ج 4 ص 201 — 202
19) الذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الثاني ص 533
20) نفس المصدر السابق والسفر والقسم والصفحة
21) مات عام 641 هـ. انظره في الذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الثاني ص 473 — 476.
22) نفس المصدر السابق والسفر والقسم ص 474.
23) مطلع القصيدة :
آليت ما في جميع الناس مجتهدا ... مني ألية بر غير إفناد
تنظر القصيدة كاملة في ديوان حسان بن ثابت ص 152 — 153.
24) الذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الثاني ص 475
25) مات عام 591 هـ انظره في الذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الثاني ص 503 — 504

القضاء كسابقيه، والذي كان '' له شعر كثير وأراجيز '' (26).

● أبو القاسم بن عمران (27) الذي تولى قضاء القصر الكبير، والذي كانت له مشاركة في الحقل الشعري، منها قوله مهنئا أحد أصدقائه :

أبا حسن زادت مآثركم حسنا ... بفعل جميل موجب لكم الحسنى
لكم أجره الأوفى وأجر من اقتفى ... سبيلك فيه أو بسنتك استنا
أجل واليد الطولى فليس بغربنا ... حفي بأهل العلم منتك امتنا
تخيرت أغلاق الدواوين معرضا ... بإدنائها منكم عن العرض الأدنى (28)

● محمد بن حسن بن عمر الفهري (29) قاضي سبتة، الذي '' كان أديبا بارعا كاتبا بليغا ناظما وناثرا '' (30)، ولعل أكثر شعره كان على طريقة التصوف كما هو الشأن في النموذج الآتي :

هل يطلب العشق قلبا أنت مطلبه ... أو يذهب الشوق روحا أنت مذهبه
ما ان دعاه هوى خلق ليغلبه ... إلا وحبك يدعوه فيغلبه
وكيف يرجو وصالا من تبعده ... أو كيف يخشى بعادا من تقربه
وكيف يخرب ربع أنت تعمره ... بل كيف يعمر مسكون تخربه
وقال أهل الهوى شأن الهوى عجب ... فقلت إن سلوي عنك أعجبه
وكان حال الهوى صعب مسالكه ... على المحب، وسمع العذل أصعبه
يا من أناجيه والأشواق توهمني ... نيل الوصال كأن الشوق يوجبه

26) الذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الثاني ص 504
27) مات عام 643 هـ، انظره في الذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الأول ص 197 — 198
28) الذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الأول ص 197
29) مات عام 661 هـ، انظره في الذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الأول ص 289 — 293.
30) نفس المصدر السابق والسفر والقسم ص 289.

كم طيبة لك بالألطاف توجدها عند اللقا، وفنائي فيك أطيبه
فارحم تقلب قلبي فهو شيمته حتى يكون بما ترضى تقلبه
رفقا به فهو في حالي مناقضة فالقبض يحزنه والبسط يطربه
ومنة الجود تدنيه فتؤنسه وخشية الرد تقصيه فتحجبه
مناي أنت وحسبي أن تكون مني يا واهبا رغباتي قبل أرغبه
كن كيف شئت فما لي عنك منصرف فالعبد ليس سوى مولاه مطلبه (31)

وإذا نظرنا الى العصر المريني والوطاسي كذلك، ألفينا الظاهرة نفسها من خلال مجموعة من الأسماء التي نقتصر على ذكر بعضها فيما يلي :

● محمد بن يحيى المغيلي (32) القاضي بفاس، والذي " كانت له مجالس ممتعة بجامع القرويين، خلدها في قطعة شعرية، كان منها :

وبجامع القروي شرف ذكره أنس تذكره يهيج تململي" (33)

● محمد بن عبد الملك المراكشي (34) الذي تولى قضاء مراكش، والذي نعته ابن الزبير بأنه كان " أديبا بارعا شاعرا مجيدا، امتدح بعض كبراء وقته " (35)،

---

(31) نفس المصدر السابق والسفر والقسم ص 290

(32) مات عام 726 هـ انظره في روضة النسرين ص 36، والجذوة ج 1 ص 233، وجامع القرويين ج 2 ص 486.

(33) جامع القرويين ج 2 ص 486

(34) مات عام 743 هـ انظره في المرقبة العليا ص 71 ـــ 72، ودرة الحجال ج 2 ص 24، والذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الثاني ص 523 ـــ 524، والاعلام ج 4 ص 331 ـــ 335، والحياة الفكرية المغربية تحت المرينيين والوطاسيين ص 147 ـــ 155، والنبوغ المغربي ج 1 ص 206، والوافي بالأدب العربي ج 2 ص 370 ـــ 377.

(35) الوافي بالأدب العربي ج 2 ص 371 نقلا عن ابن الزبير

كما نعته الدكتور محمد بنشقرون بأنه أديب من الطبقة الأولى (36). ومن شعره قوله في مراكش :

لله مراكش الغراء من بلـد	وحبذا أصلها السادات من سكن
إن حلها نازح الأوطان مغترب	أسلوه بالأنس عن أهل وعن وطن
عن الحديث بها أو العيان لها	نشا التماسك بين العين والاذن (37)

● محمد بن أبي حاج الجزولي (38) الذي استقضي بمدينة فاس، والذي كانت له مساهمة في قرض الشعر، منها هذه الأبيات في المدح، أجاب بها أحد أصدقائه من الفقهاء الأعلام :

أما ومعان قد نظمت مقصرا	فأطلعتها غراء في أفق الفكـر
وأودعتها من حل سحرك فتنة	أحالت الى التحليل عاقبة السكر
لقد نسمت من علم روضك نفحة	تناست بها الألباب عاطرة الشحر
وأهديت لي بكرا تكامل حسنها	فاكرم بها حسناء عالية القدر
لها غزل ينسي اللبيب وقـاره	لها زجل بالحمد يغني عن الشكر
تحي فتحيي من هوى النفس دائرا	يجدد لي عهدا بما ضل من فكري(39)

● محمد بن محمد الفشتالي (40) الذي تولى قضاء فاس كذلك، والذي

(36) الحياة الفكرية المغربية تحت المرينيين والوطاسيين ص 147.

(37) الاعلام ج II ص 332

(38) مات عام 755 هـ انظره في روضة النسرين ص 26، الهامش رقم 1، ودرة الحجال ج 2 ص 240 ـــ 241، والجذوة ج 1 ص 229 ـــ 230، وسلوة الأنفاس ج 3 ص 275، ونثير الجمان ص 355، ونيل الابتهاج ص 249

(39) الجذوة ج 1 ص 230 ونثير الجمان ص 356

(40) مات عام 777 هـ انظره في المرقبة العليا ص 170، ودرة الحجال ج 2 ص 270، والجذوة ج 1 ص 234 ـــ 235، ونيل الابتهاج ص 265، ونفاضة الجراب ص 145، وشجرة النور الزكية ص 235 ـــ 236، والسلوة ج II ص 259

وصفه ابن القاضي بالشاعر المجيد والكاتب البليغ (41)، ومن شعره قوله متوجها إلى السلطان أبي عنان المريني :

أيا إماما ندا كفيه قد وكفا — حسبي اعتصامي بحبل منكم وكفى
وكيف أصرف وجه القصد عن ملك — ما صد عني سنا بشر ولا صرفا
ما إن شكوت بما أضنى تطلبه — إلا وجدت لديه من ضناي شفا
ولا وقفت عليه منتهى أملي — إلا قضى وطرا منه وما وقفا
في كل يوم له تجديد عارفة — مهما انقضت هذه لهذه اقتفا
وليس ممن يرى أن لا يتيح يدا — حتى يقام له بالشكر ما سلفا (42)

■ أبو علي الحسن بن عثمان التجاني المعروف بالونشريسي (43) الذي تولى قضاء مكناس ثم سلا، والذي وصف ابن الأحمر شعره بأن « فيه حلاوة، وكلامه فيه عذوبة وعليه طلاوة » (44). ومن هذا الشعر ما أجاب به ابن الأحمر على أبيات بعث إليه بها وهي :

يا أوحد الفقهاء والكبراء — وأخا التقى والفضل والعلياء
قل لي وقاك الله كل مساءة — وحباك كل مسرة وبهاء
كيف الخلاص من الهوى وأنا له — تبع مدى الاصباح والامساء

فكان نص جواب الونشريسي :

يا ابن الملوك الأكرمين ذوي العلى — أهل الوفاء وملجإ الضعفاء

---

(41) الجذوة ج 1 ص 234

(42) نفس المصدر السابق والجزء ص 235 ونثير الجمان ص 359

(43) مات عام 781، انظره في نثير الجمان ص 366 — 369، ونيل الابتهاج ص 107، وسلوة الأنفاس ج 3 ص 259.

(44) نثير الجمان ص 368

هذا قريضك قد أتاني منبئا	عن بعض ما أودعت من علياء
وطلبت ما ينفي معاتبة الهوى	وينيـــل كل مسرة وبهاء
فاعلم فدتك النفس أني أشتكي	فوق الذي تشكو من البرحاء
ولعل مولانا ينيل جميعنا	عز اللقا في زمرة السعداء
أمسكت رقعتك التي وجهتها	من كونها خصت بحسن ثناء
وعليك مني ألف ألف تحية	في سعفها تترى بكل ثناء (45)

● أبو القاسم محمد بن يحيى البرجي (46) الذي استقضي بفاس، والذي كان بارع الشعر والنثر، مما جعله صدرا في الأدب كما يقول ابن القاضي (47)، ومن شعره قوله :

صحا القلب عما تعلمين فأقلعا	وعطل من تلك المعاهد أربعا
وأصبح لا يلوي على حد منزل	ولا يتبع الطرف الخلي المودعا
وأضحى من السلوان في حرز معقل	بعيد عن الأيام أن يتضعضعا
يرد الجفون النجل عن شرفاته	وإن لحظت عن كل أجيد ألتعا
عزيز على داعي الغرام انقياده	وكان إذا ناداه للوجد أهطعا
أهاب به للشيب أنصح واعظ	أصاخ له قلبا منيبا ومسمعا
وسافر في أفق التفكر والحجى	زواهره لا تبرح الدهر طلعا
لعمري لقد أنضيت عزمي تطلبا	وقضيت عمري رقبة وتطلعا
وخضت عباب البحر أخضر مزبدا	ودست أديم الأرض أغبر أسفعا(48)

---

45) المصدر نفسه ص 369.
46) مات عام 786 هـ، انظره في روضة النسرين ص 29، الهامش رقم 1، والجذوة ج 1 ص 311 ـــ 312، وجامع القرويين ج 2 ص 498.
47) الجذوة ج 1 ص 311
48) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة

■ أحمد بن القاسم القباب (49) الذي تولى قضاء جبل الفتح (50)، والذي كانت له مشاركة في الحقل الشعري، منها هذه الأبيات التي اعتذر بها إلى ابن الخطيب عن عدم تلبية دعوته إياه :

رسولك لم يبن لي عن طريقه   تقرب من حديقتك الأنيقه
فلا بأو لدي ولا إباء   ولكن ساء في الغرض الطريقه
وهب أني أسأت فكم صديق   تدلل واعتدى فجفا صديقه
فلا عجب فديت لرفق حر   يسكن عند خجلته رفيقه
وإني فيك معتقد ولكن   أرى الأيام حاقدة حنيقه
على ذي الود فيمن ود حتى   يفارقه وإن أضحى رفيقه (51)

● أبو محمد عبد الله الهرغي الزقندري (52)، قاضي أغمات وسبتة ومراكش، والذي وصفه ابن الخطيب بكونه سديد النظر جم المشاركة في حديث ورواية وتاريخ وجبر وكلام وفقه ونظم ونثر (53). ومن شعره قوله معتزا بمدينة سبتة :

ولما تجاوزنا زلولا وسبتة   وطاشت حلوم لم تكن بعد طائشه

---

(49) مات عام 778 هـ، انظره في الاحاطة ج 1 ص 187 ـ 188، والديباج المذهب ص 41، ودرة الحجال ج 1 ص 47 ـ 48، والجذوة ج 1 ص 123 ـ 124، وشجرة النور الزكية ص 235، والوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ج 2 ص 482، والنبوغ المغربي ج 1 ص 205.

(50) هو جبل طارق

(51) الأبيات واردة في نفح الطيب ج 6 ص 275 منسوبة إلى أحد الموثقين بسلا، بينما وردت في الوافي بالأدب العربي ج 2 ص 482 منسوبة إلى أحمد بن القاسم القباب.

(52) مات عام 768 هـ، انظره في نيل الابتهاج ص 148، ونفاضة الجراب ص 62، ولقط الفرائد ص 213، والاعلام ج [illegible] ص 232 ـ 234، والوافي بالأدب العربي ج 2 ص 482.

(53) نفاضة الجراب ص 62

تيقنت أن لا منزلا بعد سبتة يسر وأن لا إلف من بعد عائشه (54)

■ علي بن موسى بن هارون (55) الذي كان قاضي الجماعة بفاس، والذي كان شاعرا ووشاحا. ومن موشحاته واحدة سلك فيها نهج ابن الخطيب أولها :

جادك الغيث إذا الغيث انهمر حضرة الأنس البديع المؤنس
لم يكن إلا كلمح للبصر أو بريق لاح لي من تونس (56)

***

ولعلنا ونحن نتوقف عند العصر السعدي ننتهي إلى الملاحظة نفسها حيث نصادف مجموعة من القضاة الذين مارسوا قول الشعر، وتوسلوا به في مناسبات مختلفة؛ ومن هؤلاء القضاة الشعراء :

● إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي (57) الذي تولى القضاء مدة، وله شعر منه قصيدة موجهة إلى سكان توات وقاضيها ينكر عليهم موالاتهم لليهود (58)، ومنه أخرى في موضوع الرثاء أولها :

تغيرت البلدان واحلولك الليل وشب ضرام الشر وانهمر السيل (59)

إلى جانب مقطعات شعرية أخرى في أغراض شتى، وأراجيز.

---

54) الوافي بالأدب العربي ج 2 ص 482
55) مات عام 951 هـ. انظره في درة الحجال ج 3 ص 254، والجذوة ج 2 ص 477 — 478، والحياة الفكرية المغربية تحت المرينيين والوطاسيين ص 421، والوافي بالأدب العربي ج 2 ص 606 — 609
56) الجذوة ج 2 ص 477
57) مات عام 954 هـ. انظره في دوحة الناشر ص 132، والجذوة ج 1 ص 99 — 101، والحركة الفكرية ج 2 ص 512
58) انظر الفريد للفجيجي ص 42
59) الجذوة ج 1 ص 100

■ عبد الواحد بن أحمد الونشريسي (60) الذي كان قاضيا ومفتيا بفاس، والذي جمع « طلاقة اللسان وحسن التعبير وسرعته وجودة الخط والشعر الرائق » (61).

● محمد بن عبد الله الهبطي المعروف بالصغير (62) الذي تولى القضاء هو الآخر، وكان يقول الشعر ولو نظما، من ذلك أرجوزته المسماة « المعرب الفصيح » التي عرف فيها بوالده وأشياخه وتلاميذه.

● أبو القاسم بن علي الشاطبي (63) الذي كان قاضي الجماعة بمراكش، والذي كان من شعراء المولديات في عهد المنصور. ومن نماذجه في هذا الموضوع واحدة استهلها بهذه الأبيات :

ما بال طيفك لا يزور لماما   وبمنحنى الأحشا ضربت خياما
أيعيش فيك عواذلي بسهامهم   وأموت فيك صبابة وغراما
وتبيح نهرك سائلا من أدمعي   أو ليس نهر السائلين حراما (64)

● عبد الواحد الحميدي (65) قاضي الجماعة بفاس، الذي كان من شعراء المولديات كذلك، إلى جانب مواضيع أخرى لعل أبرزها الفكاهة والمداعبة

---

(60) مات عام 955 هـ، انظره في نشر المثاني ج 1 ص 45

(61) نشر المثاني ج 1 ص 45

(62) مات عام 1001 هـ، انظره في الصفوة ص 86، وطبقات الحضيكي ج 1 ص 101، ونشر المثاني ج 1 ص 35

(63) مات عام 1002 هـ، انظره في نشر المثاني ج 1 ص 40، والنزهة ص 148 ــ 149، والحركة الفكرية ج 2 ص 378، والوافي بالأدب العربي ج 3 ص 679.

(64) الوافي بالأدب العربي ج 3 ص 679

(65) مات عام 1003 هـ، انظره في روضة الآس ص 19، ودرة الحجال ج 3 ص 142، ونشر المثاني ج 1 ص 44، وشجرة النور الزكية ص 294، والحركة الفكرية ج 2 ص 361، والوافي بالأدب العربي ج 1 ص 660.

كما يتجلى في هذه الأبيات التي داعب بها عبد الرحمن بن محمد العنابي وقد بعث إليه بكبش وعسل :

أيا كاتب السر يا من بدت ... محاسنه في الورى باهره
منحت الشفاء لنا صلة ... فأكرم بها منحة ظاهره
وكبشا سمينا له كلوة ... تفوق الكلى نعمة زاهره
فلا زلت تثبت كتب الامام ... رسوما لأعدائه قاهره (66)

■ حسين بن أبي القاسم الملولي الدرعي (67) الذي تولى القضاء نيابة بسلا، والذي ثبت عنه بعض الأشعار، منها أبيات يستجيز فيها أحمد بن القاضي المكناسي مروياته فيقول :

أراوية العلم الذي زانه العمل ... وكعبة أفضال يطوف بها الأمل
ويا دوحة الفضل الذي طاب محتدا ... وطاب نجارا وارتدى المجد واشتمل
عبيدك بالنعمى حسين بن قاسم ... وقاه إله العرش من وقفة الخجل
بباب الهدى يبغي إجازة سيد ... به يرتجي من ربه نيل ما سأل
ليشرب إذ يدعوك شيخا وينتمي ... لجانبك الرحب السليم من الدغل
وينظم في سلك الذين تحملوا ... تفاريع هذا العلم عنك بلا خلل (68)

كما ثبت عنه أنه كان « يحفظ المعلقات وغيرها من قصائد فحول الشعراء الجاهليين والاسلاميين » (69).

---

66) روضة الآس ص 176

67) مات عام 1010 هـ، انظره في درة الحجال ج 1 ص 249 ـ 253، وروضة الآس ص 270 ـ 271، وخلاصة الأثر ج 2 ص 103، والدرر المرصعة ص 42، وشجرة النور الزكية ص 294 ـ 295، والحركة الفكرية ج 2 ص 449.

68) درة الحجال ج 1 ص 252

69) الحركة الفكرية ج ■ ص 449

■ محمد بن علي الهوزالي (70) الذي تولى القضاء بتارودانت، والذي كان أديبا بارعا تمكن من أن يصبح الشاعر الرسمي في دولة السعديين، نظرا لجودة شعره وتضلعه في اللغة والأدب، ذلك التضلع الذي حذا به نحو شرح ديوان المتنبي. ومن نماذجه في أحد فتوحات المنصور:

فتوح جنى المنصور في عرصاتها ... أزاهر نصر يانع من (غصونها)
ولا غصن إلا من قناة قويمة ... ولا زهر إلا من شباة سنانها
ولا روض إلا من حماة كماتها ... ولا سقي إلا ما جرى من طعانها
كتائب منصورية قــذفت بها ... مرام نأت عن أرضها ومكانها
تهيم بها الأرواح حتى كـأنها ... تناغي عزيف الجن في دورانها
وتطوي بساطا أرضهـا بقنابـل ... سنابكها أضوى لها من بنانها (71)

■ علي بن عبد الرحمن السلاسي (72) قاضي الجماعة بفاس، الذي كان يقول الشعر أحيانا، كالأبيات التي أجاب بها — وهو في السجن — الشاعر أبا عبد الله محمد المكلاتي (73) حيث يقول :

تفتق عن زهر الربيع سطـور ... فما هي إلا روضة وغديـر
هزمت من الصدر الجريح همومه ... فأنت على جند الكـلام أمير

---

70) مات عام 1012 هـ، انظره في درة الحجال ج 1 ص 233، وطبقات الحضيكي ج 2 ص 47، والحركة الفكرية ج 2 ص 408، والأدب المغربي ص 326 — 330، والنبوغ المغربي ج 1 ص 263، وانظر بعض أشعاره في صفحات متفرقة من مناهل الصفا.
71) الأدب المغربي ص 327
72) مات عام 1018 هـ، انظره في درة الحجال ج 3 ص 255، ونشر المثاني ج 1 ص 148 — 149، والوافي بالأدب العربي ج 3 ص 698.
73) كان المكلاتي هذا قد بعث إلى علي السلاسي بأبيات أولها :
أمـا لهلال غـاب عنـا سفـــور ... فيـجلى بـه خطب دجـاه يثـور
انظر الأبيات كاملة في نزهة الحادي ص 241

محمد هل في العصر غيرك شاعر	لـه معه في الخافقين ظهـور
فإني على صفو الوداد وإنني	سأشدو وقلبي بالهموم كسير
متى وعسى يثني الزمان عنانه	بنهضة جد والزمان عثـور
فتدرك آمال وتـقضى مـآرب	وتحدث من بعد الأمور أمور
عليك سلام الله مني فإنني	غريب بأقصى المغربين أسير (74)

■ عبد الوهاب بن عبد الواحد الحميدي (75) قاضي الجماعة بفاس كذلك، والذي نكتفي بنموذج من شعره قدم له محمد العربي بن يوسف الفاسي بقوله : « كتب إلي صاحبنا الفقيه الأديب الأصيل قاضي الجماعة أبو محمد عبد الوهاب بن قاضي الجماعة أبي محمد عبد الواحد الحميدي رحمه الله لأمر أوجب ذلك :

يا قرة العين يا نجمي ومن سعدت	به العوالم والطلاب أمثـالي
نفسي الفداء لذاك الوجه قد سكنت	تحت الجوار له مكبولة الخال » (76)

■ محمد بن عبد الله الرجراجي (77) الذي تولى قضاء تادلا ثم مراكش، والذي نكتفي من شعره هو الآخر بهذه الأبيات التي قدم لها صاحب ابتهاج القلوب بقوله : « وأنشد الفقيه العلامة قاضي مراكش أبو عبد الله محمد ابن أبي عبد الله الرجراجي حين كان بفاس، قدمها مع الخليفة أبي العباس المنصور عام 1011 هـ :

---

74) نشر المثاني ج 1 ص 149

75) مات عام 1022 هـ، انظره في نشر المثاني ج 1 ص 181، وابتهاج القلوب ص 226.

76) ابتهاج القلوب ص 226

77) مات عام 1022 هـ، انظره في درة الحجال ج 2 ص 131، وابتهاج القلوب ص 185، والحركة الفكرية ج 2 ص 389.

لي واحد خلفت قلبي عنـده ... والقلب منه في اتباعي ظاعـن
بنكي وأبكي للفراق وطـالما ... بتنـا وقلنـا والزمـان لين
فـالشوق فيمـا بيننـا متـردد ... والوجد منا للفؤاد طاعن (78)

● محمد بن عبد الله أزيات (79) قاضي القصر الكبير، والذي مارس قول الشعر كسابقيه، وإن كانت المصادر لا تهتم إلا بقصيدة « بديعة تشتمل على أزيد من مائة وثلاثين بيتا يرثي بها حصن العرائش لما مكنه محمد الشيخ ابن المنصور للنصارى » (80). ومن مقاطع هذه القصيدة قول أزيات يخاطب ملوك الغرب :

ألا يا ملوك الغرب فلت شموسكم ... وألبستم ثوب الردى والفضيحة
وما سكم إلا وقد جار واعتدى ... لفتك ونهب قد عدا عن نهاية (81)

ونصل أخيرا إلى عصر الدولة العلوية المنيفة لتكرس الملاحظة بعينها من خلال جماعة من القضاة الذين فرضوا وجودهم في الساحة الأدبية عامة، والشعرية بوجه خاص، ومنهم :

■ عبد الوهاب بن محمد العربي الفاسي (82) الذي تولى قضاء تطوان إلى جانب نظارة أوقاف القرويين بفاس، والذي كان يقرض الشعر بين الحين

78) ابتهاج القلوب ص 185
79) مات عام 1026 هـ انظره في نشر المثاني ج 1 ص 217، ومرآة المحاسن ص 150 ــ 151، والحركة الفكرية ج 2 ص 430.
80) نشر المثاني ج 1 ص 218
81) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة
82) مات عام 1078 هـ انظره في الصفوة ص 193 ــ 195، والنزهة ص 250، والتقاط الدرر ص 173، ونشر المثاني ج 2 ص 172 ــ 174، والبدور الضاوية ص 172 وصفحات أخرى، والدر المتضد الفاخر ورقة 143 ــ 144

والحين. من ذلك مساجلته مع الشاعر محمد الشرقي الدلائي، فقد ثبت أن هذا الأخير كان في مجلس بين يدي أخيه محمد بن أبي بكر، ويبدو أنه أراد معرفة الوقت الذي كان فيه من أوقات النهار، فوجه الخطّاب شعرا إلى الأديب عبد الوهاب بن العربي الفاسي، وكان ممن حضروا المجلس ذلك اليوم، فقال :

هل زالت الشمس أم لا فاقضين أربي   لازال ظلك ممدودا على الأدب

فأجابه عبد الوهاب الفاسي بقوله :

قد زالت الشمس لازالت مكارمكم   تنور الأفق في الدنيا مدى الحقب
وإن تك الشمس غابت في مغاربها   فشمسكم في سماء الفضل لم تغب
وإن يك الأفق الغربي مطلعها   فما لنا في سوى الشرقي من أرب (83)

● قاضي تطوان محمد بن سعيد بن قريش (84) الذي تعددت قصائده وأنظامه، كقوله ناصحا مرشدا :

وما لذة الدنيا سوى حل مقفل   عويص ثوى في مغلقات الغياهب
فهذا الذي يبقى نعيما مؤبدا   ومستمتعا مسترسلا غير ذاهب
وذلك فان من تلاهى به فقد   تباهى بثوب من نسيج العناكب (85)

● محمد بن الحسن المجاصي الغياثي (86) الذي تولى قضاء مكناس بعد فاس، والذي كان « له باع في النظم والنثر » كما يقول صاحب الاتحاف (87).

---

(83) البدور الضاوية ص 221
(84) مات عام 1103 هـ، انظره في الدرر المرصعة ص 376 ـــ 377، وتاريخ تطوان ج 3 ص 9
(85) تاريخ تطوان ج 3 ص 9
(86) مات عام 1103 هـ، انظره في إتحاف أعلام الناس ج [illegible] ص 47 ـــ 55.
(87) إتحاف أعلام الناس ج 4 ص 47

ومن شعره قوله ناظما عمود نسب النقيب مولاي عبد القادر بن عبد الله الشبيهي مطلعه :

حمدا لمن جعل السعادة كلها حب النبي وصحبه والآل (88)

● قاضي القضاة عبد المالك التجموعتي (89) الذي توسل بالشعر في أكثر من مناسبة، كقوله مادحا للشيخ محمد بن ناصر الدرعي من قصيدة أولها :

بسمت ثغور الزهر بالنشر وجلت عبوس الروض بالبشر
وألم طيف من سعاد بعدما أصمت فؤاد الصب بالهجر
وتعللت نفس العليل بوجدها فسرى الخيال وكان لا يسري (90)

● القاضي محمد بن ابراهيم (91) الذي نشير إلى إحدى قصائده، وكان رثى فيها الشيخ أحمد بن أحمد بن أبي المحاسن الفاسي مطلعها :

هطلت بوبل نجيعها الأحداق وتعززت بجموعها الأشواق (92)

● القاضي محمد بن أحمد مرينو (93) الذي كانت « له قصائد ومدائح نبوية وعدة موشحات وتلاحين وأزجال في أغراض شتى من الأغراض الأدبية» (94). ومن هذه النبويات أشير إلى واحدة يقول في بدايتها :

---

88) إتحاف أعلام الناس ج 4 ص 53
مات عام 1118 هـ، انظره في الدرر المرصعة ص 367 — 378، ونشر المثاني المطبوع ج 2 ص 165، والمخطوط ج 2 ورقة 54 — 155 وتاريخ تطوان ج 3 ص 10، والاعلام ج 8 ص 362 — 374.
90) الدرر المرصعة ص 367
91) كان حيا عام 1117 هـ، انظره في نشر المثاني ج 2 ص 308
92) نفس المصدر السابق والجزء
93) كان حيا عام 1143 هـ، انظره في الاغتباط ص 113 — 117
94) نفس المصدر السابق ص 114

ألا من للعويشق ذي الصبابه كسير البال ماسور الكآبه
وبلبال تلظى في حشاه وأشجان به هاجت عذابه
بوصل الدار دار حل فيها حبيب لم أزل أهوى اقترابه (95)

● القاضي أبو القاسم سعيد العميري (96) الذي نجد له أشعارا عديدة في التشوق والحنين، خصوصا إذا علمنا أنه أقام بالريف مدة، فكان ينظم أشعارا يتشوق في بعضها إلى وطنه وأهله بمكناس، فهو القائل عن نفسه :

بمكناسة الزيتون خلف أهله وحل بقرب الريف فردا بلا أهل (97)

ومن شعره كذلك هذه الأبيات التي خاطب بها والده وقد مرض مرضا أشرف به على الموت :

حياتك منتهى الآمال عندي فليت الموت يقبلني فداء
أيجمل أن أراك رهين حال وآمل — لاعدمتكم — بقاء
ولم أصبر وأنت اليوم حي فكيف إذا تخذت ثرى ثواء
صغرت عن التحمل، إن مثلي وحقك لا يطيق له عناء
وكيف ولي أخيات وقلبي تقسم فيك بينهم سواء
ملأت صدورهم بشا غداة فعادت في مآقيهم مساء
وكم أرغمت في أنوف قوم يروني في عيونهم قذاء (98)

---

95) نفس المصدر السابق ص 115
96) مات عام 1178 هـ، انظره في الاتحاف ج 5 ص 541 — 563، والوافي بالأدب العربي ج 3 ص 847
97) الاتحاف ج 5 ص 551
98) الاتحاف ج 5 ص 547

■ قاضي العدوتين أحمد بن أحمد المكي (99) الذي وصفه صاحب الاغتباط « بالأديب الشاعر الناثر » (100)، والذي نختار من شعره قوله في النصح والحكمة :

صاح إن زلت بك القـــدم	واعتـــرى باطـــنك النـــدم
ورأيت الصحف قـد ملـئت	مـــن خطايـــا دونها السـديم
فاخلـع الهزل الـذي ألـفت	مـــنك نـفس مـــا لها ذمم
وتـــدرع للتقـــى حلـــلا	حاكها التوفيق والنـدم (101)

● القاضي محمد بن صالح (102) الذي قال عنه صاحب سوس العالمة: « وقفنا أخيرا على ديوان له جمع فيه قصائد كثيرة، وغالبها إما في الجانب النبوي، وإما في أمير عهده مولاي سليمان، وهي قواف لم تحظ كثيرا من البيان والبلاغة إلا بقليل، على رغم ما قال في ابن صالح قرينه أبو زيد الجشتيمي بأنه شاعر مفلق » (103). ومن شعره قوله متغنيا بجمال الطبيعة :

إني أعير مسامعـــي للاحـــي	والروض يدعونا إلى الأقـداح
والصادحـات سواجـع بغنائهـــا	والزهر ينفح بالشذى الفـواح
قم واسقنيها صرخـدا ممزوجـة	واجهر بذاك على عيون اللاحي
وال الكؤوس وكلمـا ناولتنـي	اصفع قفا لاح لحاك وقـاح
إن الربيع ربيع من يبغي الصفا	وعناق خود في الرياض رداح

---

99) مات عام 1226 هـ انظره في الاغتباط ص 31 — 39

100) نفس المصدر السابق ص 31

101) نفس المصدر السابق ص 33

102) مات بعد عام 1230 هـ أنظره في سوس العالمة ص 93، والمعسول ج 8 ص 32 — 52، والوافي بالأدب العربي ج 3 ص 857.

103) سوس العالمة ص 93

هذا نسيم الروض رق كأنه   نفس الحبيب أنمته بوشاحي
والجو صاف وجهه فكأنه   حبب تبسم من رحيق صباح
من لم يكن بصبوحه متمتعا   والدهر ساعد والزهور ضواح
والسعد يحدو بالربيع مسرة   في بهجة بفقاقع الأقداح
فالرمس أولى ما يصبحه به   دهر حباه فعقه بجماح (104)

■ محمد بن محمد بن جلون (105) الذي تولى قضاء الرباط، والذي كان يمارس قول الشعر كما تشهد بذلك هذه المساجلة الشعرية التي دارت بينه وبين بعض شعراء وقته؛ فقد رافقهم إلى زيارة قبر الشيخ عبد الله بن ياسين فقال أحدهم وهو الفقيه الشاعر أحمد الحكمي :

جئناك جئناك نشكو يا ابن ياسينا   فكن من الضر بيت الفضل آسينا

فقال ثانيهم وهو محمد بن التهامي :

مازلت تسقي كؤوس الفضل مترعة   وقد أتينا لكي تكون حاسينا

فقال ثالثهم وهو الفقيه الشاعر أحمد بن خضراء السلوي :

فأنت من معشر أضحوا لزائرهم   بكل ما أملوا فورا مواسينا

فقال القاضي محمد بن جلون :

ومن يؤملك نال السؤل أجمعه   فلا تكن ببلوغ السؤل ناسينا

---

104) المعسول ج 6 ص 50
105) مات عام 1234 هـ، انظره في الاغتباط ص 167 — 170

ثم قال الحكمي :

وقد أتاك ضعاف عزهم شرك　　عسى يعودون بعد العري كاسينا

فقال محمد بن التهامي :

وكل خلق له مأوى يلوذ به　　لكن أبوابكم قدما مراسينا

فقال ابن خضراء السلوي :

رحماك رحماك يا بدرا سما شرفا　　لمن تلا ضارعا طه وياسينا

فقال محمد بن جلون :

واضرع إلى الله في المامول عن عجل　　لكي يصير العدا بذاك خاسينا

ثم قال التهامي :

شفيعنا لك خير الخلق من مضر　　من أوتي الذكر فضلا والطواسينا
ومن تلاه على النهج القويم له　　عز يلين له بالله قاسينا

فقال ابن خضراء السلوي :

صلى عليه إله العرش ما افتخرت　　أعلام أم القرى به على سينا (106)

● القاضي صالح بن أحمد الحكمي (107) الذي ثبتت عنه مساجلات شعرية مع بعض معاصريه. ومن شعره هذا التخميس الذي أوله :

---

106) الاغتباط ص 169

107) مات عام 1251 هـ انظره في الاتحاف ج ■ ص 382 — 387، والوافي بالأدب العربي ج 3 ص 897 — 898.

ألا من لخود قد تجرعت بينها   ولو أن ربات الخدور رأينها

لكبرن إجلالا وقبلن عينها   ''رمتني وسر الله بيني وبينها

عشية آناء الديار رميم''

توارت وقلبي بانتسابي بيتها   ولو أنني أهل لقلت فديتها

وحسبي فخرا أن أكون وقيتها   ''ويارب يوم لو رمتني رميتها

ولكن عهدي بالنضال قديم'' (108)

■ محمد بن أحمد بن الكبير العوفي (109) قاضي مكناس الذي كان له هو الآخر نصيب من قرض الشعر، من ذلك قصيدة ضمنها الكلام على فروع أولاد ابن سودة ونسبهم وما كانوا عليه قديما وحديثا جاء فيها :

فالسوديون جميعهم من متلد   منهم بأندلس ومن يمن ثووا

سل عنهم صنعا بذي يمن وعن   شرف شهير كالظهيرة قد حووا

فلهم بها مجد وعلم وثروة   ومروءة وعلى حبا الخير انطووا (110)

● عبد العزيز بن أحمد المطاعي (111) قاضي الجماعة بمراكش، والذي ثبتت عنه أشعار منها قوله وهو في مصر :

بتميم رأيت بدرا تلالا   راكبا صافنا ينادي ألالا

قد رمى مهجتي بسهم لحاظ   ليته قد سقاني عذبا زلالا

أضرم في فؤادي نار هواه   فاعجبوا لغزال صاد غزالا (112)

---

108) الاتحاف ج 4 ص 384

109) من رجال القرن 13 هـ انظره في الاتحاف ج 4 ص 176 ـ 181

110) الاتحاف ج 4 ص 177

111) من رجال القرن 13 هـ انظره في الاعلام ج 8 ص 445 ـ 449

112) الاعلام ج 8 ص 446

● قاضي الدار البيضاء أحمد الزعيمي (113) الذي كان شاعرا مكثرا، والذي وصف محمد جندار شعره بقوله : " جل شعره على هذا المنوال من الاسهاب والسلاسة والانسجام، زيادة عن كونه في الغالب على سبيل البديهة والارتجال " (114). ومن شعره في وصف الطبيعة :

يوم السرور من الايام أهناها — فاطرب فبشراك قد أبدت خباياها

هذي شموس الهدى لاحت طلائعها — لنا فهمنا بها لما فهمناها

والروض أصبح مخضلا كأئمه — قد فاح فيه من الأزهار أذكاها

والورق فوق غصون الآس ساجعة — تبدي انتحاباكأن الشوق أضناها

غنت إلينا بأصوات فهاج بها — بلابل طرب الأرواح معناها (115)

● قاضي مراكش عبد الواحد بن محمد المواز (116) الذي " قام في أبحر العروض بالتوافل والفروض " (117). ومن شعره قصيدة قالها ' في المولد النبوي الشريف عام 1298 قرىء بعضها عند تمام البردة والهمزية وقرب طلوع الفجر بحضرة أمير المومنين بمكناسة الزيتون " (118). ومما جاء في هذه المولدية قوله :

إليك صفي الله سقت وسائلي — فجد لي بفضل من نداك مؤبد

لقد صار لي طبعا هواك وشيمة — وحسبي به زادا إذا أتزود

---

113) مات عام 1329 هـ، انظره في الاغتباط ص 62 ــ 67.

114) الاغتباط ص 66

115) نفس المصدر السابق والصفحة

116) مات عام 1318 هـ، انظره في الاعلام ج 8 ص 533 ــ 539، وفواصل الجمان ص 183

117) الاعلام ج 8 ص 537 نقلا عن « الحسام المشرفي »

118) الاعلام ج [illegible] ص 534

وإني وقد أرقاك ربك رتبة | تعالت فلن تعطى لرسل وهجد
فأنت رسول الله أكرم من مشى | على الارض في بيد وغور وأنجد(119)

■ محمد بن محمد الحاجي الدرعي (120) قاضي درعة فقصبة مراكش، والذي نستدل من شعره بأبيات من قصيدة في مدح الرجال السبعة بمراكش جاء فيها :

يا سادتي شفني اصطباري | على شمات العدا الشقور
وأطال شكوي وظلم جاري | ذل مجير الحمى الغيور
فأنصفوني من الأعادي | وعاجلوا الكل بالدمور

وأزمعوا السير بي معافى | إلى معادي وحيث دوري
حتى أهنا مديد باع | بالعلم والأهل والدثور
وفسحة العلم في اتباع | خير الورى أحمد الطهور
تترى عليه مع الأهالي | صلاة ربي مدى الدهور (121)

■ قاضي القضاة أحمد بن عبد الواحد المواز (122) الذي نعته المرحوم عبد الله بن العباس الجراري ببطل الأدب (123)، والذي نذكر من شعره قوله — وهو بمدريد — يهنىء السلطان المولى عبد الحفيظ بالظفر بأبي حمارة :

جازت لنا البحر أنباء من الظفر | فكان ريح الصبا من نفحة الخبر

---

119) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة
120) مات عام 1333 هـ، انظره في الاعلام ج 7 ص 213
121) الاعلام ج 7 ص 213
122) مات عام 1341 هـ، انظره في الاغتباط ص 102 — 107، والتأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين ص 76 — 78.
123) التأليف ونهضته بالمغرب ص 77

أهدت لذي غربة أنسا بشائرها ... والأنس حال النوى من منتهى الوطر
وللنفوس بقدر البشر تسلية ... والبشر تهواه طبعا أنفس البشر
يا منبئا بفتوح للعلى اتسعت ... فداك وهو قليل قرة البصر
ردد علينا أحاديث السعود بما ... نالت جيوش العلى من مسعد القدر (124)

■ القاضي محمد بن أحمد التريكي الآسفي (125) الذي كانت " له قصائد ومقطعات أدبية في الشاي ومحبة الشرفاء " (126)

■ قاضي الصويرة فالعرائش فالدار البيضاء أحمد بن المامون البلغيثي (127) الذي تميز " باشتغاله بالأدب منذ صباه وترامیه على دواوين الشعراء مطالعة ودراسة حتى اضطلع بالأدب العربي وعد من شيوخه بين طبقته " (128). ومن شعره الذي تعددت موضوعاته قوله معتزا بعلو همته :

أبت همتي إلا المعالي دائما ... وراثة نفس من جدود ومن أب
فان عن في نهج المناصب ذلة ... تنكبت ذاك النهج حفظا لمنصبي
فتاتي المعالي نحو بابي سريعة ... وأدرك منها وفق قصدي ومطلبي
إذا لم تكن نفس الشريف شريفة ... فما شرف الأجساد عندي بنيسب (129)

● عبد الله بن الهاشمي بن خضرا السلوي (130) قاضي الجماعة

---

124) الاغتباط ص 103
125) مات عام 1344 هـ انظره في التأليف ونهضته بالمغرب ص 84 — 85
126) التأليف ونهضته بالمغرب ص 85
127) مات عام 1348 هـ انظره في الأدب العربي في المغرب الأقصى ج 1 ص 15 — 19، والتأليف ونهضته بالمغرب ص 62 — 68.
128) الأدب العربي في المغرب الأقصى ج 1 ص 15
129) نفس المصدر السابق والجزء ص 17
130) من رجال القرن 14 هـ انظره في الاستقصاء 9 ص 166 — 172، والاعلام ج 8 ص 346 — 350

بمراكش ثم فاس، والذي كانت له قصائد في مدح السلطان امولى الحسن الأول، هذه بداية إحداها :

لبيك لبيك يا خير السلاطين   أدامك الله في عز وتمكين
دعوت عبدك فاستجاب مبتدرا   وقد أناخ على الطير الميامين
يهدي إليك تحية مباركة   أذكى وأطيب من مسك ونسرين
ممرغا وجنتيه فارحا جذلا   إذ فاز منك بتخصيص وتعيين (131)

■ العربي بن المقدم المنبعي (132) قاضي مراكش، والذي نختار من شعره تشطيره لبيتي الحاج إدريس الحنش :

تنبه لشمس الأصيل غدت   تجر ذيول البها في البطاح
وقد ساعدتها بنيل المنى   على وادي فاس قبيل الرواح
كذوب الأتاي وصفرته   ورقة ذي شغف بالملاح
فطاب لنا الشرب في أنسها   بكأس زجاج أضاء ولاح (133)

● القاضي محمد بن اليمني الناصري (134) الذي يتساءل ابن العباس القباج في مستهل ترجمته فيقول : '' من يجهل الأستاذ الناصري ومكانته السامية في الادب ومقامه العالي في الشعر حتى نحتاج إلى تعريفه وتقديمه ؟'' (135).

---

131) الاعلام ج 8 ص 346.
132) من رجال القرن 14 هـ، انظره في فواصل الجمان ص 194، والاعلام ج 9 ص 37 — 40
133) الاعلام ج 9 ص 38
134) مات عام 1391 هـ، انظره في الأدب العربي في المغرب الأقصى ج 1 ص 101 — 109، والتأليف ونهضته بالمغرب ص 271
135) الأدب العربي في المغرب الأقصى ج 1 ص 101

ومن نماذج شعره قوله من قصيدة في رثاء مصطفى لطفي المنفلوطي :

يا مصطفى وليت عنا لابسا — حلل الثناء موفق الخطوات
لم تأت فيما قد علمنا وصْمة — أبدا ولم تدنس من الزلات
بل كنت فينا مرشدا ومهذبا — ومشذبا بالخير خير نبات
حتى بنيت على أساس محكم — صرحا من الأخلاق والهمات
ألقت به العليا عصا تسيارها — لتناشد الفتيان والفتيات
فالأنس للأحرار بعدك وحشة — تحشو الحشا بلواعج الجمرات(136)

● القاضي الهاشم الاقاوي (137) الذي أورد له محمد المختار السوسي بعضا من شعره، منه الأبيات التي مدح بها معاصره محمد بن الهاشم صاحب الزاوية التيمكديشتية حيث يقول فيه وفي أسرته :

نسل الكرام كلهم — أهل المعارف والعلوم
بجميع ما فيه من الـ — عرفان والتقوى يدوم
فمقامهم من زاره — يحظى بسائر ما يروم (138)

● قاضي وجدة فالجديدة فسطات أحمد سكيرج (139) الذي تميز بأشعاره التي تعالج الكثير من القضايا الاجتماعية والوطنية، كقوله من قصيدة يحث فيها على ضرورة محاربة الجهل، والتحلي بالحزم والجد :

---

136) نفس المصدر السابق والجزء ص 106.
137) من رجال القرن 14 هـ، انظره في المعسول ج 6 ص 319 — 840
138) نفس المصدر السابق والجزء ص 340
139) من رجال القرن 14 هـ، انظره في الأدب العربي في المغرب الأقصى ج 1 ص 56 — 61، والفكر السامي ج 2 ص 557 — 559

ألا زاحموا أهل العلى بالمناكب	ولا تقعدوا من بعد نيل المراتب
فمن طلب العليا بعزم ينالها	وذو الحزم فيما يبتغي غير خائب
قفوا وانظروا من فاقكم كيف فاقكم	تـــروه بجد محرزا للمطـــالب
تقـــدم في أعمالـــه بمعـــارف	فجاء بما فيه عجاب العجائب
فإن راقكم حسن الترقي بعصركم	فشدوا حزام الجد من كل طالب
ردوا من ينابيع العلوم مواردا	بها ينجلي الجهل الكثير المعاطب
فكل بلاء أصله الجهل في الورى	وما الجهل إلا مرتع للمعايب(140).

***

على أننا إذا حاولنا أن نلقي نظرة تأملية حول شعر هؤلاء القضاة، وما كان يتلون به من سمات وخصائص، لأمكننا أن ننتهي إلى جملة ملاحظات نذكر بعضها فيما يلي :

(1) لقد تطرق شعر القضاة هذا إلى أغلب المواضيع التي تطرق إليها شعر غيرهم من مدح ومولديات ورثاء وغزل ووصف وغيرها مما يمكن الوقوف عليه فيما عرض من نماذج سابقة. وهو تطرق يدل على مدى ارتباط هذا الشعر بقضايا الساعة، تاريخيا أو فنيا، وتجاوبه مع الموضوعات والأغراض التي كانت تفرضها ظروف معينة على الشاعر، سواء تعلق ذلك بالجانب الذاتي كما نلاحظ في شعر ابن عيسى مثلا أو شعر الأغماتي، أو تعلق بالجانب الاجتماعي أو السياسي كما هو الشأن عند إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي أو محمد أزيات كذلك.

ولعل من المفيد للباحث المتتبع أن نورد نماذج أخرى من هذا الشعر في موضوعاته وأغراضه المختلفة.

---

140) الأدب العربي في المغرب الأقصى ج 1 ص 60

ففي باب الغزل يقول القاضي ابن بياع :

نزاع ما أرى بك أم نزوع ... لقد شقيت به منك الضلوع
يروعك أو يريعك كل داع ... أكل مثوّب داع سميع
جهلت وقد علاك الشيب أمرا ... يقوم بعلمه الطفل الرضيع
ولولا ذاك ما قدرت أني ... أنوء بحمل ما لا أستطيع
فحسبك أو فحسبي منك دهر ... يشت بصرفه الشمل الجميع
وشوق تقتضيه نوى شطون ... فتقضي عنه واجبك الدموع
حملت الحب مؤتمنا عليه ... فكيف يضيع ذلك أو يذيع
لقد جشمت نفسك متلفات ... بكل ثنية منها صريع
وحال الصب تخضبه دموع ... كحال القرن يخضبه نجيع
وقد تحمى الدروع من العوالي ... ولا تحمى من الحدق الدروع
ورب فتى تراع الأسد منه ... تقنص قلبه الرشأ المروع (141)

وفي باب المدح نورد قول القاضي عياض في مدح الرسول « ص »، وفيه شيء من الصنعة كما يتضح من المقطع الآتي :

هذا الذي وخدت شوقا له الابل ... هذا الحبيب الذي ما منه لي بدل
هذا الذي ما رأت عين ولا سمعت ... أذن بأكرم من كفيه إن سألوا
هذا الذي جاءت التوراة شاهدة ... بأنه خير من يحفى وينتعل
هذا الذي جاء في الانجيل مبعثه ... يتلوه من قبل ذا رهبانه الأول
هذا الذي هتفت من قبل مولده ... به الهواتف واشتاقت له المقل
هذا الذي جاءت الأخبار واتفقت ... قدما على بعثه الأحبار والملل

141) قلائد العقيان ص 229

هذا الذي كان من سيف بن ذي يزن   مع جده نبأ من بعثه جلل
هذا الذي جاء عن شق له خبر   وعن سطيح حديث منه ينتقل
هـذا محمـد الماحـي وأحمدهـم   هذا أبو القاسم الماحي إذا جهلوا(142)

وكذلك نورد أبياتا من قصيدة طويلة مدح بها القاضي عبد الوهاب الفاسي شيوخ الزاوية الدلائية إذ يقول :

نهج الهدى في استقامـه   لمن يـروم مرامـه
إن تبـغ مجدا وتهوى   عـراره وثمامـه
أهـل الـدلا أهـل مجد   وأرضهـم أرض رامـه
لما ارتقـوا في المعـالي   وخلفـوا كل هامـه
واستبعـوا المجد لما   ألقـى إليهم زمامـه
وخيمـوا في ذراه   دون الانـام خيامـه
جعلتهم لزمـاني   أجـل درع ولامـه (143)

وفي موضوع الرثاء نقتصر على قول القاضي محمد بن ابراهيم وهو يرثي الشيخ أحمد بن أحمد بن يوسف الفاسي :

هطلت بوبل نجيعها الأحـداق   وتعـززت بجموعهـا الأشواق
وتناشدت ورق الحمائم شجوها   وتمايلت بشجـونها الـعشاق
وتفتـقت كبـد لفـرط تحسر   وتأسف صدعت لـه الأطـواق
وبرت صوارم جثة قد طالما   نعمت بحسن جمالها الأحـداق
وفشا التولـه والتواجـد حيثما   قمـر السيادة مـا لـه إشراق

142) مجموع بخزانة ابن يوسف بمراكش رقم 352 غير مرقم الأوراق
143) الدر المنضد الفاخر ورقة 143

فخر الأفاضل أحمد نجل الألى ... نشروا مفاخـر للعـلا سبـاق
ركن الفضائل ماجد متـورع ... جم الفـواضل نـاسك مصداق
سامي المناصب سائر مسرى الألى ... منحـوا المعـارف زانها أخـلاق
طود النزاهة بارع كهف التقى ... سامـي النباهـة أمجد مرفـاق
عظمت مآثر نالها عن أن ترى ... تحصى بطـرز حـازه أوراق
فاحرص على تحصيل باهر ورده ... تجد النجاح زهت لـه أسواق
وأدم تعاهد رمسه تكسى حلى ... نظـمت بسر رامـه أحـداق
فـتصيرن بجلا فكـل ملمـة ... وعليـه بـر لامحال يطـاق
منع الجوانح أن تبيح نجيهـا ... طلب احتساب قولـه الخلاق
فسقى ضريحا حله صوب الرضا ... يهم بنشر زانه إطلاق (144)

وفي مجال المولديات نشير إلى قصيدة أبي القاسم الشاطبي التي مطلعها :

ما بال طيفك لا يزور لماما ... وبمنحنى الأحشا ضربت خياما

جاء فيها في مدح الرسول 'ص' قوله :

خير الأنام محمد الهادي الذي ... أردى الضلال وجب منه سناما
كنز العـوالم سر طينـة آدم ... ولحفظ ذاك السر جاء ختاما
وأجل أرسال الاله ومـن بـه ... قد لاذ يونس حين خاض ظلاما

ومن ثم تخلص الى مدح خليفة وقته أحمد المنصور السعدي فقال :

خير الورى وإمامها المنصور من ... في ظـل دولته الأنـام أنامـا
أضفى على الأرضين ظل مهابة ... فحمى بها حام العباد وساما (145)

---

144) نشر المثاني ج [illegible] ص 308
145) الأدب المغربي ص 509

وفي غرض الشعر السياسي والوطني نكتفي بالاشارة إلى قصيدة القاضي إبراهيم الفجيجي التي أثار فيها موضوع تسليم العرائش إلى النصارى من قبل محمد الشيخ السعدي، وفيها يقول :

وفاه بقول ماسد وهو زاعم ... به أنه من ناظمي الخلافة
وذا كذب حقا على الله وافترا ... ودولته في الوقت أشباح دولة
وما منكم إلا وقد آل أمره ... لبيع الهدى بالغي أبخس قيمة (146)

(2) علاوة على تعدد الأغراض في شعر القضاة هذا يلاحظ أن هذا الشعر قد توسل بأنماط مختلفة من التعبير الشعري، بدءا من القصيدة التي تعتبر النموذج الأكثر استعمالا عندهم، الى غيرها من الألوان والأنماط. وقد ظهر من خلال النماذج المعروضة سابقا أن هذا الشعر توسل أحيانا بالموشحة والزجل والأرجوزة، كما توسل بالتسميط والتخميس والتشطير. ولعل في هذا التعدد دليلا آخر على تمكن الشعراء القضاة من مختلف الأساليب الشعرية المعروفة، ورغبتهم في ممارسة القول على غرارها، تماما كما هو الشأن بالنسبة لغيرهم من الشعراء المبدعين.

ونستطيع أن نمثل لأسلوب الأرجوزة بأكثر من نموذج، فقد وظفه بعضهم للتعبير عن إحساسه ووجدانه، كما فعل القاضي عبد المالك التجموعتي الذي أجاب القاضي محمد بن سعيد بن قريش فقال :

أنظم در ما أرى ... أم سحر هاروت عرا
فقت لعمري يا أبا ... عبد الاله الأدبا
بعثت نظما قد زرى ... بنظم من تصدرا

---

146) نشر المثاني ج 1 ص 219

لولاك كان مني … جواب شعر " دعني "
إذ تبت عنه لما … رأيته لا يحمي
والشعر بالشعر ربما … عند جميع الأدبا
لكن جوابك لدي … أراه كالفرض علي
فقلت والحكم جلي … هذا الشريف قد بلي
إن من التداوي … ترك أبي الشكاوي
يكفيك ما في اللقب … ولو سما بالنسب.. (147)

بينما وظفه البعض الآخر لنظم المعارف الدينية كما فعل الفجيجي في أرجوزته حول العبادات، والحقائق التاريخية كما فعل القاضي الكراسي في أرجوزته " عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل " التي تربو على أربعمائة بيت، والتي نظم فيها تاريخ الوطاسيين تقليدا للشاعر عبد العزيز الملزوزي الذي نظم تاريخ المرينيين في أرجوزة سماها «نظم السلوك»، ومن أرجوزة الكراسي نختار المقطع الآتي :

وإنني لما رأيت سادة … تقدموا من الملوك قادة
من خلفاء من خيار الناس … من أهل وطاس الشداد الباس
أردت نظمهم على سلوك … من جاز قبلهم من الملوك
لأن ترى أخبارهم عيانا … ولمحاسن أتت بيانا
في رجز مهذب مقرب … لملك وطاس بأرض المغرب.(148)

(3) بالرغم من أن هؤلاء الشعراء القضاة قد مارسوا قول الشعر،

---

147) تاريخ تطوان ج 3 ص 10
148) الوافي بالأدب العربي ج 2 ص 617

وصدرت عنهم منه نصوص تقل عند البعض وتكثر عن البعض الآخر، فإننا لا نعرف لهم دواوين جمعوا فيها أشعارهم، أو جمعها فيها غيرهم من ذويهم أو تلامذتهم أو الباحثين عموما، إلا ما كان من أمر القلة القليلة منهم، كالقاضي محمد بن صالح الذي أكد المرحوم محمد المختار السوسي أنه وقف على ديوانه. ولو أن الظروف أسعفت بالوقوف على غيره من دواوين هؤلاء الشعراء لكنا أمام مادة دسمة يستطيع الدارس من خلالها أن يقف على مجموعة من الحقائق التاريخية والأدبية والفنية، تمكنه من الخروج بتصور واضح عن واقع المسيرة الشعرية ببلادنا، تلك المسيرة التي ما زالت بحاجة إلى بعث النصوص من مراقدها حتى يتسنى للدارس بحثها وتصورها بشكل أكثر وضوحا وجلاء.

(4) يبدو من خلال هذا الشعر أن أصحابه كانوا يتوفرون على ثقافة أدبية واسعة، تجلت عند بعضهم في حفظ المعلقات والأشعار القديمة كما هو الشأن عند الملولي الدرعي مثلا، بينما تجلت عند جملة أخرى منهم في رواية القصائد والأرجاز. وقد نتج عن هذه الثقافة الأدبية أن ظهرت بصماتها واضحة في شعر بعضهم. فإذا نحن قرأنا قول ابن بياع :

فتى فتح الله المعارف باسمه ومن دونها باب من الجهل مبهم

ذكرنا هذا بقول أبي تمام في رثاء الطوسي :

فتى كلما فاضت عيون قبيلة دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر [149]

وإذا قرأنا قول أبي القاسم البرجي :

صحا القلب عما تعلمين فأقلعا وعطل من تلك المعاهد أربعا

149) ديوان أبي تمام ص 219

ذكرنا في الآخر بقول بشار بن برد :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله   وعري أفراس الصبا ورواحله(150)

ولم يظهر هذا على مستوى القصيدة فحسب، بل ظهر كذلك على مستوى الموشحات. ونستطيع أن نمثل لهذا بموشحة علي بن موسى بن هارون التي مطلعها :

جادك الغيث إذا الغيث انهمر   حضرة الأنس البديع المؤنس
لم يكن إلا كلمح للبصر   أو بريق لاح لي من تونس

فلعل هذا المطلع محاكاة لقول لسان الدين الخطيب في مطلع إحدى موشحاته :

جادك الغيث إذا الغيث همى   يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما   في الكرى أو خلسة المختلس (151)

(5) تأثر هذا الشعر بالثقافة الدينية التي كان الشعراء القضاة متشبعين بها. وهذا واضح في شعر بعضهم سواء تعلق ذلك بالمعاني والأفكار، أو تعلق بالصياغة والأسلوب. وكدليل على النوع الأول قول أبي القاسم بن عمران :

لكم أجره الأوفى وأجر من اقتفى   سبيلك فيه أو بسنتك استنا

فلعله مقتبس من الحديث الشريف القائل : من سن سنة حميدة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، وكذلك قول أبي القاسم الشاطبي :

---

(150) شرح شعر زهير بن أبي سلمى ص 101
(151) في الأدب الأندلسي ص 333

وتبيح نهرك سائلا من أدمعي أو ليس نهر السائلين حراما

فلعله قريب من قوله تعالى من سورة الضحى : « واما السائل فلا تنهر» (152)، مع ما فيه من تورية لطيفة.

وكدليل على النوع الثاني قول أحمد القباب :

وإني فيك معتقد ولكن أرى الأيام حاقدة حنيقه

(6) يبدو أن من هؤلاء الشعراء القضاة من حاول ترسم خطى أغلب الشعراء القدامى، والالتزام بالهيكل العام الذي اعتمدوه في معظم قصائدهم. فهذا القاضي عبد الملك التجموعتي مثلا يلتزم بالبداية الغزلية في قصيدة المدح على غرار ما هو معروف عند الكثير من شعراء العربية في هذا الباب. فبعد مقدمة غزلية استهلها بقوله :

بسمت ثغور الزهر بالنشر وجلت عبوس الروض بالبشر
وألم طيف من سعاد بعدما أصمت فؤاد الصب بالهجر
وتعللت نفس العليل بوجدها فسرى الخيال وكان لا يسري

انتقل إلى مدح الشيخ محمد بن ناصر الدرعي والتوسل إليه قائلا :

مولاي نجل الناصر الممتاز من بين الورى بالفتح والنصر
شيخ الطوائف مغربا أو مشرقا حدث ولا حرج عن البحر
امنن علي بتوبة عن خشية محفوفة بعزائم الصبر (153)

---

152) الآية 10
153) الاعلام ج 8 ص 372

(7) نهل شعر القضاة هو الآخر من مناهل البلاغة العربية، وخاصة منها ما يتعلق بميدان البديع، إذ أننا نعثر بين الحين والحين على بعض المحسنات البديعية من جناس وطباق ومقابلة وتورية وغيرها. ومن نماذج ذلك قول القاضي أحمد المواز في الجناس :

وللنفوس بقدر البشر تسلية   والبشر تهواه طبعا أنفس البشر

وقول القاضي ابن بياع :

حملت الحب مؤتمنا عليه   فكيف يضيع ذلك أو يذيع

وقول القاضي محمد بن حسين الفهري في ميدان المقابلة :

وكيف يرجو وصالا من تبعده   أو كيف يخشى بعادا من تقربه
وكيف يخرب ربع أنت تعمره   بل كيف يعمر مسكون تخربه

وهكذا إذن يبدو أن مساهمة القضاة المغاربة في مسيرة الحركة الشعرية بالمغرب، كانت مساهمة لها من القيمة والقدر ما يدعو إلى الوقوف عند هذه الظاهرة، والنظر إلى إنتاجهم الأدبي الحافل، لاسيما وأن هذا الحقل من الدراسة لازال يشكو من الفراغ والاهمال، وإن كنا نجد أعمالا قليلة جدا صنفها أصحابها في ترجمة قضاة المغرب مثل :

- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للشيخ أبي الحسن النباهي، ويعرف أيضا بتاريخ قضاة الأندلس، حيث جعل المؤلف من بين مترجميه بعض القضاة المغاربة.

- قضاة مدينة فاس لعبد السلام بن سودة المري

■ أرجوزة تكميل قضاة فاس على ما في جذوة الاقتباس وولاة الدولة العلوية وقضاتها وأمرائها وملوكها لأبي القاسم الزياني

● نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان لأبي الوليد إسماعيل بن الأحمر، ويعرف أيضا بأعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن، ولعله أهم من غيره في هذا المجال، إذ خصص المؤلف الباب الحادي عشر منه لشعر قضاة المغرب وفقهائه، على غرار الباب التاسع من الكتاب، والمخصص لشعر قضاة الأندلس وفقهائها.

المصادر والمراجع المذكورة في البحث

+ ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب

لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 326

+ إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس

لعبد الرحمن بن زيدان العلوي، المطبعة الوطنية 1347 هـ ــ 1929م.

+ الاحاطة في اخبار غرناطة

للسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة .

+ الأدب العربي في المغرب الأقصى

لمحمد بن العباس القباج، مطبعة فضالة، المحمدية 1400 هـ ــ 1980 م.

+ الأدب المغربي

لمحمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1960.

+ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض

لأحمد المقري التلمساني، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358 هـ ــ 1939 م.

+ الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام

لعباس بن إبراهيم التعارجي، المطبعة الملكية، الرباط، 1974 م

+ الاغتباط بتراجم أعلام الرباط

لمحمد بوجندار الرباطي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1287

+ الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي

للدكتور عباس الجراري، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1394 هـ — 1974 م

+ البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية

لسليمان الحوات، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 261.

+ تاريخ تطوان

لمحمد داوود، المطبعة المهدية تطوان، 1385 هـ — 1965 م.

+ التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين من 1900 إلى 1972 م.

لعبد الله بن العباس الجراري، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، 1406 هـ — 1985 م.

+ التعريف بالقاضي عياض

لمحمد بن القاضي عياض، تحقيق الدكتور محمد بنشريفة، مطبعة فضالة، المحمدية. 1982 م.

+ التكملة لكتاب الصلة

لمحمد بن عبد الله بن الأبار، نشر وتصحيح عزت العطار الحسيني مكتبة الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد، 1956 م.

+ تكميل قضاة فاس، على ما في جذوة الاقتباس وولاة الدولة العلوية وقضاتها وأمرائها وملوكها

لأبي القاسم الزياني، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط رقم 138

+ جامع القرويين، المسجد والجامعة بمدينة فاس

للدكتور عبد الهادي التازي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973.

+ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس

لأحمد بن القاضي المكناسي، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط 1973

+ الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين

للدكتور محمد حجي، مطبعة فضالة، 1397 هـ — 1977 م.

+ الحياة الفكرية المغربية في عهدي المرينيين والوطاسيين (بالفرنسية)

للدكتور محمد بنشقرون، مطبعة محمد الخامس، فاس 1394 هـ — 1974 م.

+ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر

لأبي عبد الله محمد المحبي، المطبعة الوهبية، القاهرة، 1284 هـ.

+ الدر المنضد الفاخر فيما لأبناء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر

لمحمد بن عبد القادر الكردودي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1584

+ درة الحجال في أسماء الرجال

لأحمد بن القاضي المكناسي، تحقيق الدكتور محمد الأحمدى أبو النور، المكتبة العتيقة بتونس ودار التراث بالقاهرة

+ الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة

لمحمد المكي بن موسى الناصري، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 265.

+ دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر

لمحمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، تحقيق الدكتور محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1396 هـ 1976 م.

+ دورة القاضي عياض

وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، مراكش جمادى الأولى 1401 هـ مارس 1981 م، مطبعة فضالة المحمدية.

+ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب

لابراهيم بن فرحون المدني، مطبعة المعاهد، 1351 هـ

+ ديوان أبي تمام ـــ حبيب بن أوس الطائي

مراجعة الدكتور محمد عزت نصر الله، دار الفكر للجميع، بيروت

+ ديوان حسان بن ثابت ــ حسان الانصاري

شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان 1401 هـ 1981 م.

+ الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية

لعلي بن أبي زرع الفاسي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972م.

+ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة

لمحمد بن عبد الملك الأنصاري، تحقيق الدكتور محمد بنشريفة، مطبعة المعارف الجديدة الرباط 1984 م.

+ روضة الآس، العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس

لأحمد المقري التلمساني، المطبعة الملكية، الرباط، 1383 هـ ـــ 1964م.

+ روضة النسرين في دولة بني مرين

لأبي الوليد إسماعيل بن الاحمر، المطبعة الملكية، الرباط، 1382 هـ ـــ 1962 م

+ سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس

لمحمد بن جعفر الكتاني، المطبعة الحجرية بفاس 1316 هـ

+ سوس العالمة

لمحمد المختار السوسي، مطبعة فضالة، المحمدية، 1380 هـ ـــ 1960 م.

+ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية

لمحمد بن محمد مخلوف، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان

+ شرح شعر زهير بن أبي سلمى

صنعة أبي العباس ثعلب، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

+ الشفا بتعريف حقوق المصطفى

للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق محمد أمين قرة علي وآخرين، مكتبة الفارابي، دمشق

+ صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر

لمحمد الصغير اليفرني، المطبعة الحجرية بفاس

+ صلة الصلة

لأبي جعفر أحمد بن الزبير، تصحيح وتعليق ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، 1937 م.

+ طبقات الحضيكي

لمحمد أحمد السوسي الحضيكي، المطبعة العربية، الدار البيضاء. 1357 هـ ـــ 1938 م.

+ الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة

لعلي بن موسى بن سعيد، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف بمصر.

+ الفريد في تقييد الشريد

لأبي القاسم بن محمد الفجيجي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 1598

+ الفكر السامي في تاريخ الفكر الاسلامي

لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، المكتبة العلمية، المدينة المنورة 1397 هـ، 1977 م.

+ فواصل الجمان في وزراء وكتاب الزمان

لمحمد غريط الفاسي، المطبعة الجديدة، فاس، 1347 هـ، 1921 م.

+ في الأدب الأندلسي

للدكتور جودت الركابي، دار المعارف بمصر 1970

+ القاضي عياض الأديب

لعبد السلام شقور، نشر دار الفكر المغربي، مطبعة دار أمل طنجة — 1983 م.

+ القرآن الكريم

المصحف الحسني برواية ورش، مطبعة فضالة، المحمدية، 1395 هـ.

+ قضاة مدينة فاس

لعبد السلام بن سودة المري، مخطوط خاص

+ قلائد العقيان ومحاسن الأعيان

للفتح بن خاقان، المطبعة الخديوية، القاهرة، 1283 هـ

+ لقط الفرائد من حقائق الفوائد

لأحمد بن القاضي المكناسي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 270

+ مجلة المناهل

العدد 19 — السنة 7، صفر 1401 هـ — دجنبر 1980 م

+ مجموع فيه بعض أشعار القاضي عياض

لجامع مجهول، مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش رقم 352

+ مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن

لأبي حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي، المطبعة الحجرية بفاس، 1324 هـ — 1906 م

+ المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا

لأبي عبد الله النباهي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت.

+ المعرب الفصيح عن سيرة الشيخ الرضى النصيح

لمحمد بن عبد الله الهبطي، مخطوط خاص بالرباط

+ المعسول

لمحمد المختار السوسي، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1380 هـ 1960م.

+ مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا

لعبد العزيز الفشتالي، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة

+ النبوغ المغربي في الأدب العربي

لعبد الله كنون، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1961 م.

+ نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان

لابن الوليد إسماعيل بن الاحمر، تحقيق وتقديم الدكتور محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت

+ نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي

لمحمد الصغير اليفرني، تصحيح السيد هوداس، منشورات بردى ــ الرباط

+ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني

لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق الدكتور محمد حجي، وأحمد التوفيق، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1397 هـ ــ 1977 م، 1407 هـ ــ 1986 م

ع. ج. س